بين العقل والإيمان

الجزء الثاني

كيف نفهم
طبيعة الله؟

بقلم د. هيرمان بافينك

بين العقل والإيمان

الجزء الثاني

كيف نفهم طبيعة الله؟

بقلم د. هيرمان بافينك

ترجمة

سعيد باز

All Rights Reserved
جميع الحقوق محفوظة – الرجاء التقيد
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إليكترونية أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن خاص ومكتوب من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل.
يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي فقط وليس بهدف بيعها أو المتاجرة بها بأي طريقة كانت ومهما كانت الأسباب.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المحتويات

تقديم

الفصل الأول كينونة الله

الفصل الثاني الثالوث الأقدس

الفصل الثالث الخلق والعناية

الفصل الرابع أصل الإنسان وجوهره

الفصل الخامس الخطية والموت

الفصل السادس عهد النعمة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تقديم

عزيزي القارئ

منذ أن ظهر كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" في عام **1888**، والذي أعيد طبعه كما هو بعنوان "علم اللاهوت النظامي" في السبعينات من هذا القرن، لم يظهر في العربية حتى اليوم كتاب آخر يصلح مرجعاً لاهوتياً لكل من يرغب في دراسة علم اللاهوت من وجهة نظر إنجيلية. لقد ظهرت فعلاً بعض الكتابات، لكننا لا يمكن أن نعتبر أيّاً منها مرجعاً لاهوتياً.

وقد خدم كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم "عدّة أجيال، وما زالت أجزاء كبيرة منه تصلح مرجعاً لاهوتياً مفيداً. إلا أن من يتصفحه يلمح على الفور أنه يقرأ كتاباً مصوغاً في إطار فكري يعود بالقارئ إلى قرن مضى، سواء من حيث المفردات أو القالب الفكري أو حتى المضمون.

لذلك كانت الحاجة ملحة لأن يتوفر للقارئ العربي، ولكل من يرغب في الاستزادة من العلوم اللاهوتية، كتاب يتحدث بلغة العصر في صياغة حديثة ويعنى بالموضوعات المعاصرة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ظهر الكتاب الذي بين يديك باللغة الهولندية أوّلاً في عام **1909** بعنوان "أعمال الله الرائعة" ثم ترجم إلى الإنجليزية بعنوان "إيماننا المعقول" ونشر في عام **1956** ثم أعيد طبعه عدة مرات. وها هو قد ترجم الآن إلى العربية تحت عنوان "بين العقل والإيمان".

وقد قامت دار نشر "مطبوعات الشرق الأوسط" بطباعة الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة **1990** تحت عنوان "كيف نفهم إعلان الله؟" والجزء الثاني الذي بين يديك ونوالي طباعة الجزئين الثالث والرابع المذكورين في ظهر الغلاف تباعاً. ورغم أن هذا الكتاب لا يتفاعل مع مؤثرات فكرية كثيرة ظهرت بعد كتابته، إلا أنه يقدم لنا صياغة لاهوتية أقرب إلى العصر الذي نعيش فيه، والجو الفكري الذي يحيط بنا.

ومؤلف الكتاب عالم اللاهوت الهولندي المرموق (هيرمان بافينك **Herman Bavinck**) قام بتدريس مادة علم اللاهوت لسنوات طويلة وله عدة مؤلفات لاهوتية حاول أن يُضمِّن خلاصتها في الكتاب الذي بين يديك. ويلاحظ القارئ أن الكتاب يشمل دراسة ملتزمة للكتاب المقدس، ولذلك فهو غنيّ بالإشارة إلى الآيات الكتابية التي نرجو أن يُلاحَظ أنها ليست دائماً بنصها الحرفي كما هو في الكتاب المقدس، لأن الاقتباسات في كثير من الأحيان اقتباسات تفسيرية وليست حرفية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نأمل أن تكون هذه السلسلة سبب بركة كبيرة لمجد الله ولخير الإنسانية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الأول

كـينونـة اللـه

ناقشنا في الجزء الأول "كيف نفهم إعلان الله؟" طبيعة الإعلان الذي منحنا إيّاه الله بنعمته. وبيّننا أيضاً بشيء من التفصيل كيف برز هذا الإعلان إلى الوجود، كما أوضحنا كيف توصلنا إلى الوقوف عليه بفضل قوانين الإيمان وإقراراته الـــتي صيغت لتوجيهنا إليه. فيتبقى لنا الآن أن نكشف مضمون ذلك الإعلان، وأن نشير بطريقة منهجية إلى ما نحن مدينون به للإعلان الإلهي في العقل والقلب، ومن حيث المعرفة والحياة معاً. فإذا صحّ القول إنّنا، في ما سبق أن قلناه حتى الآن، كنا نتأمل صرح الإعلان من الخارج، وقد تكونت لدينا فكرة ما عن مخططه العام، فإننا الآن مزمعون أن ندخل إلى قُدسْ الإعلان بالذات حيث ننعم النظر في كنوز الحكمـــة والمعرفة المعروضة فيه كي نمتّع بها أنظارنا.

ولا شك أننا نستطيع استعراض مضامين الإعلان الغنيَّة بطرائق شتّى، كما يتسنى لنا أن ندع أجزاءه المتنوعة تمر أمامنا لندقّق فيها بطرق مختلفة. ولكن ليس ثمّة ما يحملنا على بحث كل من طرائق المعالجة هذه وأنماطها. لذا سنقتصر بحثنا على أسلوبين يمكننا بهما أن نتناول مضمون العقيدة المسيحية، الذي غالباً ما يتم تناوله بواسطتهما.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ففي المقام الأول، يمكننا التوجه مباشرة إلى المسيحي الذي استوعب بنفسه مضمون الإعلان، وذلك بفضل الإيمان القلبي الصادق. ومن ثم نسأل ذلك المسيحي عن طريقة بلوغه معرفة الحق، وما قوام تلك المعرفة، وأي ثمر أنتجت في فكره وحياته. هذه هي وجهة النظر التي تتبناها خلاصة العقيدة التي نعتمدها والمعروفة بخلاصة هايدلبرج. فالمتكلم في خلاصة العقيدة هذه هو المسيحي المؤمن، وهو يقدّم تصريحاً شاملاً وواضحاً عن الأمور التي تمثل عزاءه الوحيد في الحياة والممات، وعن النقاط المختلفة التي ينبغي للمرء أن يعرفها كي يحيا مباركاً ويموت سعيداً في عزائه ذاك. إنّه أسلوب جميل في المعالجة، وهو يستحق أوفر الثناء في دليل لاهوتي عملي. ذلك أن لهذا الأسلوب حسنات عديدة: فهو يُنيط الحق فوراً بمجمل الحياة المسيحية، ويجعلنا في منجي من الجدل الفلسفي والاسترسال في التصور والتخمين، كما أنه بمقاربته كل عناصر العقيدة يبرز مباشرة ما فيها من قيمة بالنسبة إلى العقل والقلب على السواء. وأيّة منفعة وتعزية يجلبها الإيمان بهذا كله؟ إنه يؤكد لي أني مبرر أمام الله في المسيح وأني وارث للحياة الأبدية.

وفي المقام الثاني، نستطيع معالجة حقائق الإيمان دون الاقتصار على أسلوب التوجه إلى المسيحي لسؤاله عمّا يؤمن به. فبوسعنا أيضاً أن نقف موقف المسيحي المؤمن، ومن ثم نحاول أن نقدّم لأنفسنا وللآخرين تصريحاً مستمداً من الكتاب المقدس عن مضمون إيماننا وبهذه الطريقة لا ندع عرضنا لعقيدتنا يسير بمقتضى الأسئلة الموجهة إلينا بخصوصها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بموجب هذا الأسلوب الثاني، نستعرض نحن أنفسنا مضمون عقيدتنا على نحو إيجابي. وحينذاك لا نهتم كثيراً بتتبع التدرج الذي به توصلنا إلى معرفة الحق، بل نحاول بالأحرى أن نتلمس النظام البديع الكامن موضوعياً في حقائق الإيمان في حد ذاتها، ونتبين كيف ترتبط هذه الحقائق بعضها ببعض، وما المبدأ المهيمن عليها جميعاً. هذا هو الأسلوب المتبع في إقرار الإيمان المعتمد في الكنيسة المصلحة. وفي هذا الإقرار أيضاً نجد أن المتكلم هو المسيحي، غير أنه لا ينتظر حتى تطرح الأسئلة عليه، بل بالأحرى هو نفسه يشرح مضمون عقيدته. إنه يؤمن بقلبه ويعترف بفمه بما يريد الله أن يقوله للكنائس بروحه وفي كلمته.

إن أسلوبي المعالجة هذين ليسا بالطبع على طرفي نقيض كلي، بل هما بالأحرى متكاملان يسد أحدهما نقص الآخر، ولكليهما قيمة عظيمة. فبالنسبة إلى الكنائس المصلحة، وكذلك بالنسبة إلى المدارس الفكرية المسيحية المصلحة، لهو امتياز لا يقدر بثمن أن يكون بين أيدينا إقرار الإيمان إلى جانب خلاصة العقيدة، وخلاصة العقيدة إلى جانب إقرار الإيمان. فهذان معاً يعطياننا في آن واحد ما هو موضوعي وما هو ذاتي، ما له علاقة بعلم اللاهوت وما له علاقة بعلم الإنسان. إنهما متداخلان بحيث يتصالح بهما العقل والقلب. وهكذا يصير الحق الإلهي بركة لفكرنا ولحياتنا على السواء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما أن هذين الأسلوبين في بسط مضمون الإعلان ليسا متناقضين بل هما متكاملان ومتتامان، فأمر يثبته بكل يقين كون المسيحي هو المتكلم لا من خلاصة العقيدة فقط، بل في إقرار الإيمان أيضاً. وفي كليهما نجد المسيحي ليس منعزلاً بل في شركة مع جميع إخوته وأخواته. ذلك أن الكنيسة، جماعة المؤمنين الواحدة، هي التي تعبر فيهما عن عقيدتها. إننا جميعاً نؤمن بالقلب ونعترف بالفم– هذه هي الكلمات التي يُستهَلّ بها إقرار الإيمان، وهكذا يجري مجراه، وهكذا أيضاً ينتهي. فهو إقرار حقيقي بالإيمان المسيحي يحتوي على خلاصة العقيدة المتعلقة بالله وبخلاص النفس خلاصاً أبدياً.

وعنصرا الإيمان هذان، أي العقيدة المتعلقة بالله وعقيدة خلاص النفس خلاصاً أبدياً، ليسا بندين منفصلين لا يجمع بينهما جامع مشترك، بل إنهما بالأحرى مرتبطان بعضهما مع بعض بعرى وثيقة لا تنفصم. فالعقيدة المختصة بالله هي في الوقت نفسه عقيدة خلاص النفس خلاصاً أبدياً، والثانية من هاتين تشتمل أيضاً على الأولى. وذلك أن معرفة الله في وجه يسوع المسيح ابنه إنما هي الحياة الأبدية (يوحنا 17: 3).

ومعرفة الله هذه تختلف، في النوع لكن ليس في المستوى، عن المعرفة التي نحصل عليها من الحياة اليومية أو من المدرسة. إنها معرفة ذات نوع فريد. فهي تختلف عن أي نوع آخر من المعرفة من حيث المبدأ والغرض والنتيجة، على حد ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

سبق أن أشرنا إليه في الفصل الثاني– من الجزء الأول– من هذا الكتاب. فهـــذه المعرفة تتعلق بالعقل والقلب معاً. إنها لا تجعلنا "أكثر ثقافة"، بالدرجة الأولى على الأقل، ولكنها تجعلنا أحكم وأفضل وأسعد فهي تجعلنا مباركين، وتعطينا الحيـــاة الأبدية التي وإن كانت تختص بما بعد هذه الحياة حقاً، فهي تتعلق أيضاً بما هو كائن هنا والآن. والأمور الثلاثة التي من الضروري لنا أن نعرفها ليست غايتها أن نموت ذات يوم ونحن مباركين بل أن نحيا أيضاً مباركين، من تلك اللحظة فصاعداً.

من يؤمن بالابن له حياة أبدية (يوحنا **3**: **16**). طـــوبى (الآن) للأنقيـــاء القلب: فهم مباركين هنا على الأرض، وإن كان سبب هذا أنهم سوف يعاينون الله في ما بعد (متى **5**: **8**). فإنهم بالرجاء قد خلصوا (رومية **8**: **24**).

****

وما إن نقبل الحياة الأبدية في قلوبنا حتى لا نملك إلا أن نتوق دائماً لأن نعرف المزيد عن ذاك الذي منحنا تلك الحياة. وإذا بنا نتطلع إليه أكثـــر فـــأكثر باعتباره نبع خلاصنا. وبسبب العزاء الذي نتمتع به في قلوبنا، وبسبب ما تعنيه لنا معرفة الله من نفع وثمر لنفوسنا ولحياتنا، نرانا نعود دائماً إلى التعبد للكائن الأزلي. وعندئذ نتوصل دائماً وبأكثر يقينية إلى الإحساس أن الله ليس موجوداً لأجلنا بل نحن موجودون لأجله. ليس أننا غير مبالين بأمر خلاصنا، بل إن هذا الخلاص هو وسيلة لتمجيده تعالى. فإن معرفة الله أعطتنا حياة، ولكن الحياة التي أُعطيت لنـــا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تُفضي بنا للعودة إلى معرفة الله. ففي الله نجد كل خيرنا وكل فخرنا، إذ يصير هو هدف عبادتنا، وموضوع تسبيحنا، وقوة حياتنا. ذلك أن كل الأشياء هي من الله، وبالله، ولله: وهذا يصبح اختيار قلوبنا وشعار عملنا. وإذا نحن أنفسنا وجميع الخلائق من حولنا نغدو وسيلة لتمجيد الله. والحق الذي نحبه في بادئ الأمر بصورة خاصة لأنه أعطانا الحياة، يصبح من بعد عزيزاً أكثر فأكثر لذاته، أي بسبب ما يعلنه لنا عن الكائن الأزلي. عندئذ تغدو عقيدة الإيمان بكاملها، كُلاًّ وأجزاءً، إعلاناً لحمد الله ومعرضاً لصفاته السامية وتمجيداً لاسمه. وهكذا تفضي بنا خلاصة العقيدة إلى إقرار الإيمان.

ولكن عندما نتأمل قليلاً في ما يعنيه كوننا نحن المخلوقات المسكينة والضعيفة والخاطئة نعرف الله وهو الكائن اللا محدود والأزلي الأبدي، عندئذ تسود مشاعرنا هيبة شديدة وحياء مقدس. فإننا إذ ذاك نسأل أنفسنا: هل يمكن بالفعل أن يهبط على الذهن المظلم للمخلوق البشري نور ما من لدن ذاك الذي لم يره أحد قط والساكن في نور لا يدنى منه (**1** تيموثاوس **6**: **16**) والذي هو نور نقي وليس فيه ظلمة البتّة (**1** يوحنا **1**: **5**)؟

طالما رد كثيرون بالنفي على هذا السؤال، وما زال بعض الناس يردون. غير أن هذا الإنكار لإمكانية معرفة الله يمكن أن يصدر عن موقفين عقليين مختلفين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جداً. فهذا المزاج الشكاك في هذه الأيام هو نتيجة نوع عقلاني كلياً وعلمي نظرياً من الجدل.

يقال إن المعرفة التي في متناول الذهن البشري تقتصر على الظواهر التي يمكن مراقبتها بالتجربة، وبالتالي تقدم هذه الحجة الجدلية: إنه لأمر متناقض أن نعتقد– من جهة– أن لله شخصية وعقلاً وإرادة، وأن نثبت– من الجهة الأخرى– أنه مع ذلك لا محدود وسرمدي ومستقل استقلالاً مطلقاً.

ويمكن رد هذه الحجة بالقول: حقاً إنه ما كان من الممكن للإنسان أن يعرف الله ذهنياً لو أن الله لم يعلن ذاته، سواء بطريقة عامة في الطبيعة والتاريخ، أو بطريقة خاصة في ابنه. ولكن مادام الله قد أعلن ذاته هكذا، فإنه يترتب على ذلك إمكانية أن يعرف إلى ذلك الحد نفسه الذي وصل إليه في عملية الإعلان. أما إذا أراد المرء أن ينفي إعلان الله ذاته بأيّة طريقة، فإن المعنى المتضمن في ذلك يكون أن العالم موجود منذ الأزل إلى جانب الله وبمعزل عنه، وأنه تعالى لا يستطيع أن يعلن ذاته في العالم وبواسطته. ويكون المعنى المتضمن بالتالي أنه ينبغي لنا ألا نتحدث البتة عن الله فيما بعد، إذ تكون هذه الكلمة مجرد لفظ أجوف لا أساس لها ولا جذور لها في الحقيقة. وهكذا يغدو المذهب المعروف باللا أدرية (القول باستحالة معرفة الله) مماثلاً في الواقع للإلحاد (إنكار وجود الله).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أن هذا الإنكار لإمكانية معرفة الله قد يصدر أيضاً عن إحساس المـــرء الطاغي لضالته وتفاهته مقروناً بشعوره بعظمة الله اللامحدودة وجلاله القهار. بهذا المعنى ما برح اعتراف جميع القديسين الإقرار بأننا لا نعرف شيئاً وبـــأن المعرفـــة أعجب من أن نستطيعها. وغالباً ما تقع عند آباء الكنيسة ومعلميها، في مجال التأمل في الله، العبارة التي تفيد أنهم في نهاية المطاف يستطيعون أن يقولوا ما ليس هو الله بصورة أفضل كثيراً من القول ما هو الله. وكالفن في أحد المواضع يثني قراءه عن السعي إلى انتزاع أسرار الله منه تعالى بقوتهم، لكون هذه السرائر تفـــوق جـــداً قدراتنا الضعيفة على المعرفة وكم شاعرٍ، مثل فونـــدل (Vondel) وبلـــدرديك (Bilderdijk)، قد تغنّى بعظمة الله الفائقة.

مع أن هذا الاعتراف المتواضع بجلال الله السامي وضآلة الإنسان يمكن أن يدعى– بمعنى من المعاني– إنكاراً لإمكانية معرفة الله، فإنه ليبدو لنا أن من الواجب أن نميز بين معرفتنا لله وفهمنا له فهماً كاملاً، وذلك في سبيل جلاء أي غمـــوض، وبمقتضى ما جاء في الأسفار المقدسة. فمن المؤكد أنه ليس في العالم كتاب يؤيـــد تعالي الله المطلق على كل مخلوق وفي الوقت نفسه يؤيد العلاقة الوثيقة بين المخلوق والخالق، على نحو ما يفعل الكتاب المقدس بطريقة فريدة وإلى أقصى حد.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتظهر لنا الصفحة الأولى من الكتاب المقدس تعالي الله المطلق على خلائقه. فبلا عناء ولا كلل يستدعي الله العالم كله إلى الوجود بواسطة كلمته فقط. بكلمة الرب صنعت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها (مزمور 33: 6). قال فكان، أمر فصار (مز 33: 9). إنه يفعل كما يشاء في جند السماء وبين سكان الأرض، ولا يوجد من يكف يده أو يقول له ماذا تفعل؟ (دانيال 4: 35). هوذا الأمم كنقطة من دلو، وكغبار الميزان تُحسب؛ هوذا الجُزُر يرفعها كالهباء. ولبنان ليس كافياً للإيقاد، وحيوانه ليس كافياً لمحرقة، كل الأمم قدّامه كلا شيء: من العدم والباطل تحسب عنده. فبمن تشبهون الله، واي شبه تعادلون به؟ (إشعياء 40: 15– 18). لأنه من في السماء يعادل الرب؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟ (مزمور 89: 6). وليس ثمة اسم يمكن أن يسمى به حقاً. فإن اسمه عجيب.[1] وعندما كلّم الرب أيوب من العاصفة وعرض أمامه عظمة أعماله، أحنى أيوب رأسه باتّضاع وقال: ها أنا حقير، فماذا أجاوبك؟ وضعت يدي على فمي (أيوب 40: 4). هوذا الله عظيم، ونحن لا نعرفه (أيوب 36: 26). عجيبة هذه المعرفة– إنها فوقنا ونحن لا نستطيعها (المزمور 139: 6).

إلا أن هذا الإله المتعالي والرفيع يقيم علاقةً وثيقة مع جميع خلائقه، حتى الصغير منها. وما يقدمه لنا الكتاب المقدس ليس مفهوماً غامضاً عن الله، على نحو

---

(1) تك 32: 29، قض 13: 18، أم 30: 4.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ما يقدّم لنا الفيلسوف، بل إنّه يضع أمامنا الله الحي بنفسه ويدعنا نراه في أعمال يديه. فما علينا إلا أن نرفع أنظارنا ونرى من صنع كل شيء. إن جميع الأشياء صنعتها يده إذ وجدت بإرادته وبعمله. وهي كلها قائمة بقوته. من هنا يحمل كل شيء طابع عظمته الفائقة وعلامة صلاحه وحكمته وقدرته. وبين الخلائق كلها خُلِقَ الإنسان وحده على صورته ومثاله تعالى. فالإنسان وحده يدعى ذُرِيَّة الله (أعمال 17: 28).

بسبب هذه العلاقة الوثيقة، يمكن تسمية الله بألفاظ من لغة خلائقه، ويمكن التحدث عنه بصورة إنسانية (وصفه بصفات البشر). فالكتاب المقدس الذي يتكلم بأسمى طريقة عن عظمة الله وجلاله الفريدين، هذا الكتاب نفسه يتحدث عنه باستعارات وتشبيهات نابضة بالحياة فهو يتحدث عن عينيه وأذنيه، يديه وقدميه، فمه وشفتيه، قلبه وأحشائه. وهو ينسب إليه تعالى جميع الصفات– من حكمة ومعرفة، وإرادة وقوة، وبر ورحمة؛ كما ينسب إليه أيضاً مشاعر مثل الفرح والحزن، والخوف والسخط، والغيرة، والندم والغضب، والكره (للخطية). ويتحدث الكتاب كذلك عن مراقبة الله وتفكيره، وسماعه ورؤيته، وتذكره ونسيانه، وشمه وذوقه، وجلوسه وقيامه، وافتقاده وتخليه، وبركته وتأديبه، وما إلى ذلك... ويستعير الكتاب المقدس لله استعارات شتى كالشمس والنور، والينبوع والعين، والصخر والملجأ، والسيف والترس، والأسد والنسر، والبطل والمحارب، والفنان والبنّاء، والملك والقاضي، والكرام والراعي، والأب. وبوجيز العبارة، فإن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كل ما يمكن أن يوجد في العالم كله من حيث الدعم والحماية والعون إنما يوجد أصلاً وعلى نحو كامل وبوفرة فائقة، في الله تعالى. فمنه تسمى كل عشيرة في السماوات وعلى الأرض (أفسس 3: 15). هو شمس الوجود، وجميع الخلائق أشعة هذه الشمس المترامية.

فمن المهم إذاً، في ما يختص بمعرفة الله هذه، أن نتمسك جيداً بكلتا مجموعتي الحقائق هاتين المتعلقتين بالكائن الإلهي، وأن ننظر إلى كلتيهما بالإنصاف. لأننا إذا ضحّينا بتعالي الله المطلق على خلائقه نتردّى في اعتقاد تعدّد الآلهة (وهذا مذهبٌ وثنيٌ) أو في اعتقاد وحدة الوجود (حيث كل شيء هو الله)، وهاتان ديانتان باطلتان نتعلم من التاريخ أنهما مترابطتان بحيث يسهل الانتقال من الواحدة إلى الأخرى.

وإذا ضحّينا بعلاقة الله الوثيقة مع خلائقه، نجنح إلى مهاوي مذهب التأليه الطبيعي (الاعتقاد بوجود إله دون الإفادة من الإعلان) أو الإلحاد (إنكار وجود الله)، وهاتان ديانتان بينهما عدّة خصائص مشتركة، شأنهما شأن مذهبي تعدّد الآلهة ووحدة الوجود.

يلتزم الكتاب المقدس كلتا مجموعتي الخصائص، وفي ركابه يسير علم اللاهوت المسيحي. ففي الواقع أن الله ليس له اسم واحد نستطيع أن نسميه به حقاً، وهو تعالى يسمي نفسه– ويدعنا نحن نسميه– بأسماء عديدة جداً. فهو المتعالي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلى ما لا نهاية، وفي الوقت عينه من يحيا مع جميع خلائقه. وبمعنى من المعاني، إن جميع صفاته فريدة بحيث لايمكن مشاركتها، لكنها بمعنى آخر مقدمة كلها على نحو يفسح المجال لمشاركتها. هذه حقيقة لا نستطيع أن نسبر غورها بعقولنا، فليس ثمة ما يمكن أن نعتبره مفهوماً كافياً ووافياً عن الله. وما من أحد يستطيع أن يُدلي بتعريف واف عن الله من جهة كينونته. ذلك أنه لا يوجد اسم يعبر تماماً عن هوية الله، غير أن مجموعتي الخصائص المشار إليهما أعلاه لا يتعارضان. وبالتحديد، لأن الله هو العلي المرتفع ساكن الأبد، فهو أيضاً يسكن مع المنسحقين والمتواضعين (إشعياء 57: 15). ونحن نعلم أن الله لم يعلن ذاته لكي نكون مفهوماً فلسفياً عنه من خلال إعلانه، بل لكي نقبله– هو الإله الحي الحقيقي– باعتباره إلهنا، ولكي نعترف به ونخضع له. هذه الأمور مُخفاة عن الحكماء والفهماء، لكنها معلنة للأطفال (متى 11: 25).

إذاً فمعرفتنا عن الله عن طريق إعلانه هي معرفة إيمان. وهي ليست وافية، بمعنى أنها ليست معادلة لكينونة الله، لأن الله متعال إلى ما لا نهاية فوق خلائقه جميعاً. وليست هذه المعرفة أيضاً رمزيّة صرفاً، أي معبراً عنها بتعابير صغناها بطريقة ما، بينما هي لا تناسب أية حقيقة. بل إنها انطباعية (كما تعبر الكلمات المطبوعة عن الأفكار) أو تماثلية (نسبة إلى التماثل، وهو التشابه في الشكل)، وذلك لأنها مؤسسة على الشبه والعلاقة المتواجدين بين الله وجميع أعمال يديه، رغم جلال الله المطلق. والمعرفة التي يؤتينا الله إياها عن ذاته، في الطبيعة وفي الكتاب المقدس، تبقى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

محدودة ومتفرقة الأجزاء، إلا أنها مع ذلك حقيقية ونقية. كذلك هو الله كما أعلن عن ذاته في كلمته، وبالتحديد في المسيح وبه، وهكذا هو وحده فيه شبع قلوبنا.

****

إن الجهد المبذول لاستجماع كل ما يرد في الكتاب المقدس من تعاليم عن الله، مع توكيد تعاليه عن خليقته وعلاقته بها في آن واحد، أفضى بالكنيسة المسيحية إلى التمييز المبكر جداً بين مجموعتين من صفات الكائن الإلهي. هاتان المجموعتان أدرجتا تحت عناوين مختلفة منذ أوائل عصر الكنيسة. وما زالت الكنيسة الكاثوليكية تؤثر التكلم عن صفات سلبية وأخرى إيجابية، فيما تتحدث الكنيسة اللوثرية عن صفات ساكنة وأخرى عاملة، والكنائس المصلحة عن صفات غير منقولة وأخرى منقولة (قابلة للانتقال وغير قابلة له). على أن هذا التباين يؤول في نهايته إلى أمر واحد عند كل هذه الكنائس. ذلك أن غرض كل منها هو التشديد على تعالي الله (انفصاله عن العالم وارتفاعه فوقه) وعلى حلوليته (شركته مع العالم وسكناه فيه). والتعبيران اللذان تطلقهما الكنائس المصلحة، أي الصفات غير المنقولة والصفات المنقولة،هما أكثر إنصافاً لهذا الغرض من التعبيرات التي يستعملها الكاثوليكيون واللوثريون. كما أن توكيد المجموعة الأولى من الصفات يجنبنا اعتقادي تعدد الآلهة ووحدة الوجود،أما توكيد المجموعة الثانية فيحمينا من اعتقادي التأليه الطبيعي والإلحاد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حتى لو كانت جميع تسمياتنا لهذه الصفات غير وافية، فليس من اعتراض مقنع على الاستمرار في استعمال التعبيرين اللذين درجت الكنائس المصلحة على استعمالهما. ولكن ما ينبغي لنا عندئذ أن نفعله هو أن نتذكر أن هاتين المجموعتين من الصفات غير المنقولة، والمنقولة لا تنفصل إحداهما عن الأخرى انفصالاً كلياً. إلا أن قوة التمييز يجب أيضاً ألا تضعف حتى تختفي. والدافع لذلك التمييز هو أن صفات الله غير المنقولة توجد بطريقة مطلقة وإلى درجة غير محدودة وغير قابلة للانتقال بالتالي. صحيح أن لمعرفة الله وحكمته وصلاحه وعدله، وماشابه، خصائص معينة تشترك بها مع الصفات نفسها في خلائقه، غير أن هذه الصفات الإلهية مختصة بالله بطريقة مستقلة وثابتة وسرمدية وكلية الحضور وطبيعية – أو بعبارة أخرى: بطريقة إلهية على نحو مطلق.

إننا، نحن الكائنات البشرية، نستطيع التمييز بين كيان الناس وصفاتهم. فقد يفقد الكائن البشري ذراعه أو رجله، أو قد يفقد وعيه في حال النوم أو المرض، لكنه لا ينقطع أن يكون بشراً. إلا أن هذا مستحيل بالنسبة إلى الله. فإن صفاته تتوافق مع كينونته. وكل صفة من صفاته هي في صلب كينونته. فهو ليس فقط حكيماً وصادقاً، صالحاً وقدوساً، عادلاً ورحيماً، بل هو أيضاً الحكمة والحق والصلاح والقداسة والعدل والرحمة. ومن هنا هو أيضاً مصدر جميع صفات الإنسان ومنبعها. هو كل شيء يمتلكه، كما أنه مصدر كل شيء يمتلكه البشر. فإنه المصدر الفيّاض لكل خير.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

من صفات الله غير المنقولة تلك السجايا أو الفضائل التي تبرهن على أن جميع ما في الله إنما يوجد فيه بطريقة إلهية وعلى نحو مطلق، ولذلك فهو غير قابل لتشارك الخلائق فيه. وهذه المجموعة من الصفات تؤكد رفعة الله وتفرده المطلقين. والتعبير الأكمل عنها هو في الاسم "إيلوهيم" أو الله. فصحيح أن لفظ "إله" يطلق أحياناً على الخلائق في الكتاب المقدس. فالأسفار المقدسة لا تذكر فقط أوثان الوثنيين باعتبارها آلهة، على حد ما تفعل حين تنهي عن اتخاذ آلهة أخرى أمام الله (خروج 20: 3)، بل إنها أيضاً تسمى موسى إلهاً لهارون (خروج 4: 16) ولفرعون (خروج 7: 1)، وتتحدث عن القضاة بين الناس باعتبارهم آلهة (مزمور 82: 1 و 6). ويشير المسيح إلى هذا الاعتبار في معرض الدفاع عن ذاته (يوحنا 10: 33 – 35).

غير أن هذا الاستعمال اللغوي هو استعمال مجازي. فاسم الله، أصلاً وجوهرياً، يخص الله وحده. فبذلك الاسم تقترن دائماً فكرة وجود كائن شخصي حقا ولكنه أيضا ذو سلطان رفيع جداً فوق جميع الخلائق وسرمدي في كيانه.

من هذا القبيل يكون لله الصفات غير المنقولة، وهي خاصة به وموافقة له وحده، ولا توجد في خلائقه ولا يمكن أن تشاركه فيها الخلائق مجرد مشاركة. فإن جميع الخلائق لا تقوم بذاتها، وهي عرضة للتغير، كما أنها مركبة وخاضعة للزمان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والمكان، غير أن الله قائم بذاته، بمعنى أنه لا يحدده أي شيء، بينما يحدد هو كل شيء سواه (أعمال 17: 25)، رومية 11: 36). وهو ثابت غير متغير بحيث يظل كما هو منذ الأزل وإلى الأبد، أما كل تحول وتغير فهما من صفات المخلوق والعلاقة التي يضع نفسه فيها تجاه الله (يعقوب 1: 17). والله كائن بسيط، أي غير مركب، خالص تماماً من أي تمازج بين روح ومادة، وفكر ومدى، وكيان وصفات، وعقل وإرادة، وما شابه ذلك من مقومات، وكل ما عنده فذاك هو الحق والحياة والنور،[1] وهو تعالى أزلي أبدي لا يحده زمن، ومع ذلك فهو يتخلل بسرمديته كل لحظة من الزمن (مز 90: 2). ثم إنه كلي الحضور كونه غير محدود بأي مكان، لكنه مع ذلك يطوق كل نقطة من المكان بقوته القادرة على كل شيء والدائمة الحضور.[2]

يوجد في زماننا الحالي نفر غير قليل من المراقبين الذين يجردون هذه الصفات غير المنقولة من أية قيمة دينية، ولا يرون فيها سوى تجريدات ميتافيزيقية. غير أن نقيض هذا بالضبط تبرهنه الحقيقة الكامنة في أن أيّة تضحية بهذه التحديدات تفتح الباب رأساً أمام وحدة الوجود وتعدّد الآلهة.

---

(2) مز 36: 9، يو 5: 26، يوحنا 1: 5.

(3) مز 139: 7، أعمال 17: 27 و 28.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإذا كنا لا نعتقد بأن الله قائم بذاته عديم التغير وأزلي أبدي وكلي الحضور، ومجرد وخالص من أي تركيب، فإننا نهبط به إلى مستوى المخلوق ونوحده بالعالم في جملته أو بإحدى قوّاته. من هنا يتزايد باستمرار عدد أولئك الذين يستبدلون بإله الإعلان قوة عالمية حلولية، أو الذين يؤثرون الاعتراف بتعدد الآلهة بدلاً من الله الواحد الحق. ومن الواضح أن وحدانية الله ووحدته مرتبطتان بصفاته غير المنقولة ارتباطاً مباشراً.[1] فإن الله لا يكون الإله الواحد والوحيد إلا إذا لم يكن لأي أحد أو لأي شيء أن يكون مثله، سواء إلى جانبه أو دونه. وعندما يكون الله قائماً بذاته وغير متغير، وأزلياً أبدياً كلي الحضور، عندئذ فقط يكون هو إله إيماننا غير المشروط وثقتنا المطلقة وخلاصنا الكامل.

****

وفي أثناء ذلك يبقى صحيحاً أننا بحاجة إلى أكثر من هذه الصفات غير المنقولة. فأي خير يأتينا من معرفتنا لكون الله قائماً بذاته وغير متغير، وأزلياً أبدياً كلي الحضور، إذا كان علينا أن ندبّر أمرنا دون أن نعرف أنه حنّان ومنعم ورحيم؟ صحيح أن الصفات غير المنقولة تخبرنا عن الطريقة التي بها توجد هذه الصفات في الله، إلا أن هذه الصفات تتركنا في ظلام من جهة مضمون الكينونة الإلهية. وهذا لا ينسحب على الصفات المنقولة. فهذه تفيدنا أن هذا الإله الرفيع والسامي على

---

(4) تث 6: 4، مر 12: 29، يوحنا 17: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نحو لا نهائي فائق يسكن أيضاً مع ذلك في جميع خلائقه، وهو على علاقة بها كلها، كما أن فيه جميع تلك الفضائل التي تنطبق على خلائقه أيضاً بطريقة مكتسبة ومحدودة. فهو ليس إلهاً بعيداً جداً وحسب، بل إنه أيضاً إله قريب. وليس هو بإله قائم بذاته وغير متغير وأزلي أبدي كلي الحضور، بل هو أيضاً حكيم وقدير، عادل وقدوس، منعم ورحيم. إنه ليس إيلوهيم وحسب، بل هو يهوه أيضاً.

فكما أن الصفات غير المنقولة معبّر عنها جيداً بالاسم "إيلوهيم"، ومعناه الله، فكذلك الصفات المنقولة تتجلى حقيقتها في الاسم "يهوه". ولئن كان اشتقاق هذا الاسم ودلالته الأصلية غير معروفين لدينا، وإن كان يرجح جداً أنه عرف قبل موسى بزمن، كما قد يستوحى من اسم العلم "يوكابد"، فإن الله لم يكن حينذاك قد أعلن ذاته لشعبه بهذا الاسم. فقد أعلن نفسه لإبراهيم بالاسم "إيل شدّاي"، أي الله القدير (تكوين 17: 1 و خروج 6: 2)، ذاك الذي يخضع جميع قوى الطبيعة ويجعلها تؤول إلى النعمة. أما الآن، وقد مرّت مئات السنين وبدا أن الله قد نسي عهده مع الآباء ووعده لهم، فإنه يعلن نفسه لموسى باسمه "يهوه"، أي بوصفه الإله نفسه الذي ظهر للآباء الأمين لعهده، الوفي بوعده، والذي يبقى على مر العصور هو نفسه تجاه شعبه. فإذا بمعنى "يهوه" يصير الآن: أكون الذي أكون (حاضراً ومستقبلاً). وهذا الاسم يدل على أمانة الله غير المتغيرة في علاقته بإسرائيل. "فيهوه" هو إله العهد الذي اختار شعبه وجعلهم له خاصة، وذلك بمقتضى محبته المطلقة. وهكذا، ففيما يدل الاسم "إيلوهيم" – أي الله – على الكائن الأزلي في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تعاليه المطلق على العالم، يؤكد الاسم "يهوه" –أي الرب– أن هذا الإله نفسه قد أعلن – مختاراً– ذاته لشعبه بوصفه إله قداسة ونعمة وأمانة.

إن قضية الصراع الديني بكاملها، في إسرائيل وفيما حتى أيامنا هذه، معنيّة جوهرياً بالسؤال عن هوية الله. فالأمم، وفلاسفة كثيرون، من قدماء ومحدثين، يقولون إن يهوه هو إله إسرائيل فقط: إله قومي ومحدود وثانوي. غير أن موسى وإيليا وسائر الأنبياء، والمسيح وجميع تلاميذه، يقفون موقفاً معاكساً ويؤكدون أن الرب وحده، الذي دخل في عهد مع الآباء ومع شعب إسرائيل، هو الإله الواحد الأزلي الحقيقي، وأنه لا إله آخر سواه (إشعياء **43**: **10** – **15**، **44**: **6**) وعليه فإن "يهوه" هو فعلاً اسم الله الحقيقي المميّز (إشعياء **42**: **8**، **48**: **12**). إن إله العهد، الذي يتنازل بكل عطف إلى شعبه على نحو فائق، والذي يسكن في ذوي الروح المنسحقة والمتضعة، هو في الوقت نفسه الله العلي المرتفع (إشعياء **57**: **15**).

إذاً، فإن نوعي الصفات ليسا بمتناقضين ولا متنازعين. ولنا أن نقول إن النوع الأول يلقي ضوءاً على سائر الصفات ويؤكدها. تأمل مثلاً في محبة الله. فما كان ليسمح لنا أن نتكلم عنها، ولا كان بمقدورنا أن نفعل ذلك، لو لم تكن الصفة التي يدعوها الناس محبته، وبمعنى من المعاني، انطباعاً أو صورة أو شبهاً للمحبة الكائنة في الله. ولا بد من وجود تماثل معيّن بين المحبة الإلهية والمحبة البشرية، وإلا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكان كل تفكيرنا في محبّة الله وكلامنا عنها من الأمور العديمة المعنى. على أن هذا التشابه لا دخل له في الهوية بأية حال. إذ ليست أنقى محبة وأقواها بين البشر إلا انعكاساً ضئيلاً جداً للمحبة التي هي في الله. وهذا الواقع يعلّمنا أن نفهم الصفات غير المنقولة. فمنها نعلم أن المحبة في الله تتعالى جداً عن محبة الخلائق. ذلك أن المحبة التي في الله قائمة بذاتها وغير متغيرة، وهي مجردة وأزلية أبدية كلية الحضور. إنها لا تتعلق بنا، ولا تتحرك بفعلنا، بل تفيض سخيّة نقيّة من أعماق الكيان الإلهي. وهي لا تشهد أي تبدّل، فلا تسقط ولا تقوم، ولا تظهر ولا تختفي، وليس فيها حتى ظل من ظلال الدوران. إنها ليست مجرد خصيصة من خصائص الكينونة الإلهيـــة إلى جانب سائر السجايا أو الصفات، ولا تدخل البتة في صراع مع تلك الصـــفات، لكنها تتوافق أيضاً مع الكائن الإلهي بالذات. فالله محبة، هو بنفسه على نحو كلي وكامل، وبكامل كيانه. ولا تخضع هذه المحبة للزمان والمكان، بل متعالية عليهما، وهي تهبط من عالم الأبدية لتدخل قلوب أولاد الله. إن محبة كهذه، تكون الثقة بها مطلقة. فإن نفوسنا تستطيع أن تستريح في رحابها عند كل حاجة، بمـــا في ذلـــك الموت أيضاً: فما دام إله المحبة المتّصف بهذا هو معنا، فمن يكون علينا؟

والقول عينه يمكن أن يقال بخصوص جميع الصفات الإلهية المنقولة. فإن في خلائق الله شبهاً قليلاً لما يخص الله من معرفة وحكمة، وصلاح ونعمة، وبر وقداسة، وإرادة وقوة وهذه كلها وقتية لأنها مرئية. فإن الأمور التي ترى تكونت من الأمور التي لا ترى (عبرانيين **11**: **3**). غير أن جميع هذه الصفات متواجدة في الله بطريقة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أصلية، قائمة بذاتها، غير متغيرة، مجردة، غير محدودة. فإنما الرب وحده هـــو الله، وهو الذي صنعنا لنكون شعبه وغنم مرعاه (مزمور **100**: **3**).

إن صفات الله المنقولة عديدة جداً بحيث يستحيل تلخيصها ووصفها هنا. فإذا كنا نريد أن نعالجها معالجة وافية، فعلينا أن نستخدم كل تلك الأسماء والصور والمقارنات التي يستعملها الكتاب المقدس ليقدّم لنا فكرة ما بخصوص من وما هو الله بالنسبة إلى خلائقه ولاسيما شعبه. ذلك أن الكتاب المقدس _كما ســـبق أن أشرنا إشارة عابرة_ ينسب إلى الله بعض أعضاء الجسد من عينين وأذنين، ويدين ورجلين، وما شابه ذلك.والكتاب يضفي على الله مثلما للبشر من مدارك ومشاعر وعواطف وقرارات وأفعال. كما أنه يشير إليه تعالى بألقاب مناصب ووظـــائف كالتي نعهدها بين البشر، فيدعوه ملكاً ومشرعاً وقاضياً، ومحارباً وبطلاً، وكرّامـــاً وراعياً، وزوجاً وأباً. ويستعير الكتاب المقدس كامل العـــالمين العضـــوي وغـــير العضوي ليساعدنا على تمثل حقيقة الله، فيستعير له صفة الأسد والنسر والشمس والنار والينبوع والمجن... الخ. وجميع هذه الأساليب في الكلام هـــي مـــن قبيـــل المحاولات الهادفة إلى مساعدتنا على معرفة الله وإلى إحداث انطباع عميق فينا عن كلية كفاية كينونته. فنحن، الكائنات البشرية، نحتاج إلى العالم الخارجي كله لأجل وجودنا الروحي والمادي، لأننا في أنفسنا ضعفاء لا نلوي على شيء. غير أن كل ما نحتاج إليه بحسب النفس والجسد، لأجل الزمن والأبدية، هو في متناولنا بوفرة وبلا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

استثناء، إذ هو موجود في الله على نحو أصلي وكامل ولا نهائي. فهو الخير الأسمى والنبع الفيّاض لكل خير.

إن أول شيء يتوخى الكتاب المقدس أن يعطينا إياه، باستعماله لجميع هذه الأوصاف والأسماء العائدة للكائن الإلهي، هو شعور أصيل لا يستأصل بحقيقة كون يهوه –الإله الذي أعلن نفسه لإسرائيل ومن بعد في المسيح– هو نفسه الإله الحي الحقيقي. أما أصنام الوثنيين، وأصنام الفلاسفة (من الذين ينادون بوحدة الوجود أو تعدد الآلهة أو التأليه الطبيعي أو الإلحاد)، فهي صنائع أيدي البشر، لا تستطيع أن تتكلم أو ترى، ولا تسمع أو تشم أو تتحرك. غير إله إسرائيل هو في السماء، ويصنع كل ما يشاء. وهو الإله الواحد (تثنية 6: 4)، والإله الحقيقي (يوحنا 17: 3)، والإله الحي دائماً أبداً.[1] وبينما الناس يريدون أن يجعلوا الله إلهاً ميتاً كي يعاملوه كما يحلو لهم، فإن رسالة الكتاب المقدس هي هذه: أنتم على خطأ. فالله موجود. وهو الإله الحقيقي، الحي الآن وإلى الأبد. وما أرهب الوقوع في يدي الله الحي (عبرانيين 10: 31).

والله الحي بحد ذاته، وهو الحياة الخالصة ونبع كل حياة (مزمور 36: 9، إرميا 2: 13)، هو أيضاً روح (يوحنا 4: 24) بلا جسد، وإن كانت تنسب إليه

---

(5) تث 5: 26، يو 3: 10، دا 6: 27، أع 14: 15، 2 كو 6: 16، 1 تي 3: 15، 6: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أعضاء الجسد من أنواع شتى (تثنية 4: 12، 16). ومن هنا لا يمكن أن تصنع له صورة أو شبه أو مثال (تثنية 4: 15 – 19). والله لا يرى.[1] ومن حيث كونه روحاً فإن له وعياً ذاتياً كاملاً، إذ إنه يعرف نفسه كل المعرفة (متى 11: 27، 1 كورنثوس 2: 10)، كما أن لديه أيضاً _في نفسه ومن خلال نفسه_ معرفة بكل ما سيكون أو يحصل في الزمان، مهما كان خفياً أو يسيراً.[2] ومن حيث كونه روحاً أيضاً، فإن لديه مشيئة بواسطتها يفعل كل ما يسره (المشيئة أو المشورة الخفية)،[3] ويقرر كيف يجب أن يكون معيار سلوكنا (المشيئة المعلنة أو الوصية).[4] وأخيراً، فإن لدى الله، من حيث كونه روحاً، قدرة بواسطتها ينفذ كل ما خطّطه، وذلك رغم أية معارضة كائنة ما كانت، وبسبب هذه القدرة لا يستحيل عليه شيء.[5]

غير أن هذه المعرفة أو الوعي، وهاتين المشيئة والقدرة، ليست اعتباطية، بل إنها في جميع أجزائها محددة خلقياً. هذا الواقع. معبّر عنه بالحكمة التي ينسبها الكتاب المقدس إلى الله.[6] وبواسطتها يرتب ويوجه جميع الأشياء إلى الغرض الذي

---

(6) خر 33: 20، يو 1: 18، 6: 46، 1 تي 6: 16.

(7) إش 46: 10، إر 11: 20، مت 10: 30، عب 4: 14.

(8) مز 115: 3، أم 21: 1، دا 4: 35.

(9) تث 29: 29، متى 7: 21، 12: 50.

(10) تك 18: 14، إر 22: 37، زك 8: 6، مت 19: 26، 1 تي 6: 15.

(11) أم 8: 22–31، أي 28: 20–28، رو 16: 27، 1 تي 1: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وضعه لها عند الخلق وعند التجديد.[1] وهذه الحقيقة الأدبية تجد لها تعبيراً أوفى في صلاح الله ونعمته من جهة، وفي قداسته وعدله من الجهة الأخرى. فهو ليس فقط الكلي الحكمة والقدير على كل شيء، بل هو أيضاً الكلي الصلاح والصالح الوحيد (متى 5: 45)، وهو الكامل ومصدر كل ما هو صالح في خلائقه (المزمور 145: 9). وصلاح الله هذا يشمل كل العالم (المزمور 145، متى 5: 45)، لكنه يتنوع بحسب الأغراض التي يوجه نحوها فيتخذ أشكالاً شتى، إن صح التعبير. فهو يدعى أناة أو إمهالاً حين يظهر للمذنب (رومية 3: 25)، ونعمة حين يبدي نحو الذين يقبلون غفران الخطايا (أفسس 2: 8). ومحبة حين تتجه عواطف الله نحو خلائقه بدافع النعمة (يوحنا 3: 16، 1 يوحنا 4: 8). ويدعى الصلاح الإلهي رحمة أو إحساناً حين يبدى نحو الذين يتمتعون برضى الله،[2] ومسرّة عندما يقع التشديد على حقيقة كون الصلاح وجميع فوائده هبة مجانية.[3]

****

إن قداسة الله وعدله يسيران جنباً إلى جنب مع صلاح الله هذا ونعمته. فالله يدعى القدوس، ليس فقط لأنه متعال على كل مخلوق باعتباره مخلوقاً، بل على

---

(12) مز 104: 24، أف 3: 10، رو 11: 33.

(13) تك 39: 21، عد 14: 19، إش 54: 10، أف 2: 7.

(14) مت 11: 26، لو 2: 14، لو 12: 32، 2 تس 1: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخصوص لأنه منزه عن كل ما هو خاطئ ودنس في العالم. ولذلك يطلب من شعبه، الذين اختارهم خاصة له بمحض النعمة، أن يكونوا قديسين،[1] وهو تعالى يقدّس ذاته في ذلك الشعب من خلال المسيح (أفسس 5: 26، 27)، مثلما قدّس المسيح ذاته لأجلهم ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق (يوحنا 17: 19). ثم إن بر الله وعدله مرتبطان بقداسته ارتباطاً وثيقاً. فإنه من حيث كونه القدوس لا يمكن أن يقيم شركة مع الخطية، إذ أنه يكره الخطية (مزمور 45: 7، أيوب 34: 10)، ويغضب عليها (رومية 1: 18)، ويغار على مجده (خروج 20: 5)، ولذلك لا يعتبر المذنب بريئاً بحال من الأحوال (خروج 25: 5 و 7). كذلك أيضاً تقتضي طبيعته القدسية أن يحافظ على بره جارياً مجراه خارج ذاته في عالم خلائقه، وأن يجازي كل واحد حسب أعماله دون محاباة (رومية 2: 2–11، 2 كورنثوس 5: 10).

يوجد اليوم قوم يحاولون أن يقنعوا أنفسهم والآخرين أن الله لا يأبه بأفكار البشر الخاطئة وأعمالهم الأثيمة. غير أن الله الحي الحقيقي الذي تعلنه لنا الكلمة المقدسة يرى رأياً مغايراً لذلك. فغضبه مضطرم بصورة شديدة على الخطايا المضمرة والمرتبكة، وهو يريد أن يعاقب الناس عليها زمنياً وأبدياً بدينونة عادلة (تثنية 27:26؛ غلاطية 3:10).

---

(15) خر 19: 5 و 6، لا 11: 44 و 45، 1 بط 2: 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على أنه تعالى لا يقتصر على معاقبة الفجار بمقتضى عدله. فإن الكتاب المقدس ينطوي على تعليم رائع مفاده أن الله يمنح القديسين الخلاص وفقاً للعدل نفسه. صحيح أن أولئك القديسين هم خطاة أيضاً في أنفسهم وليسوا أفضل من سواهم. ولكن بينما الأشرار يكتمون خطاياهم أو يموهونها، يعترف القديسون بها ويقرونها.هذا هو الفرق بين هؤلاء وأولئك فمع أنهم مذنبون ودنسون، نجدهم واقفين مع الله ضد العالم من جهة خطاياهم. ولذلك يستطيعون أن يلجأوا إلى وعد عهد النعمة، وإلى حق كلمته تعالى، معتصمين بالبر الذي أنجزه الله نفسه بالمسيح.

فبالنظر إلى ذلك البر، نستطيع أن نتجاسر–بكل احترام– فنقول إن الله يلزم نفسه بأن يغفر خطايا شعبه أن يهبهم الحية الأبدية.[1] وإذا كان الله كثيراً ما يجعل شعبه ينتظرونه، ويمتحن إيمانهم فترة طويلة، فلا بدّ أن يعقب ذلك فداؤهم الكامل، وهكذا تتبرهن فيهم استقامة الله وأمانته على نحو أمجد.[2] ولسوف يكمل الرب كل ما يعني شعبه، لأن رحمته تدوم إلى الأبد (المزمور **138**: **8**). فالرب رحيم ورؤوف، بطئ الغضب وكثير الإحسان والوفاء.[3]

---

(16) مز **4:2**، 7: **10**، **31**: 2، **34**: 22، **35**: **24**، **51**: **16**، **103**: **17**، **1** يو **1**: **9**.

(17) تك **24**: 27، **32**: **10**، يش **21**: **45**، **2** صم 7: **28**، مز **57**: **3**، **105**: **8**.

(18) خر **34**: **6**، مز **86**: **15**، **103**: **8**، **145**: **8**.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومن الناس من يثقون بالمركبات، ومنهم من يتكلون على الخيل، أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر.[1] فإن الله هذا هو إلهنا إلى الدهر والأبد، هو يهدينا حتى إلى الموت (المزمور 48: 14). إنه إله مبارك ومجيد (1 تيموثاوس 6: 15، أفسس 1: 17). وطوبى للأمة التي الرب إلهها (المزمور 33: 12).

(19) مز 20: 7، إر 9: 23، 1كو 1: 31، 2كو 10: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني

الثالوث الأقدس

يعلن الكائن الأزلي ذاته في كينونته الثالوثية على نحو أكثر غنى وحيوية مما يعلن في صفاته. ففي هذا الثالوث الأقدس تظهر حقيقة كل صفة من صفات الكينونة الإلهية، وتكتسب كل صفة إلهية مضمونها الأكمل ومعناها الأوفى. فعندما نتأمل في هذا الثالوث، نعرف حقاً من وما هو الله بالنسبة إلى البشر الهالكين. فذاك لا نعرفه إلا إذا عرفناه تعالى واعترفنا به بوصفه إله العهد المثلث الأقانيم، الآب والابن والروح القدس.

وفيما ننعم النظر في هذا الجزء من إقرار إيماننا، تدعونا الضرورة على نحو خاص لأن نجعل اقترابنا وموقفنا منه يتميزان بمسحة من الاحترام المقدس والهيبة. فقد كانت ساعة رهيبة لا تنسى في حياة موسى، لما ظهر له الرب في البرية في لهيب نار منبعث من العليقة. وحينما نظر موسى فرأى العليقة تتوقد بالنار لكنها لم تكن تحترق، وقد رآها من بعد، فأراد أن يقترب إلى الموضع على عجل، أوقفه الرب وقال له: لا تقترب إلى ههنا اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. وإذ سمع موسى ذلك استولى عليه الخوف الشديد وغطى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله (خروج 3: 1_ 6).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مثل هذا التهيب المقدس يليق بنا ونحن نشهد إعلان الله عن ذاته في كلمته المقدسة بوصفه إلهاً مثلث الأقانيم. فعلينا دائماً أن نتذكر، ونحن نـــدرس هـــذه الحقيقة، أننا لسنا أمام عقيدة نظرية تتعلق بالله، ولا مفهوم مجرد أو فرضية علمية حول طبيعة اللاهوت. ولسنا أمام استنتاج بشري استخلصناه، أو توصـــل إليـــه سوانا، عن طريق الوقائع والمعطيات، ثم نحاول الآن أن نحلله وان نفصله منطقياً. بل إننا، في بحث الثالوث، نتعامل بالأحرى مع الله بذاته، مع الإله الواحد والحقيقـــي الذي أعلن ذاته هكذا في كلمته. فكما قال لموسى: أنا إله ابـــراهيم واســـحاق ويعقوب (خروج 3: 6)، هكذا يعلن لنا ذاته أيضاً في كلمته مظهراً نفســـه لنـــا باعتباره الآب والابن والروح القدس.

هكذا ما برحت الكنيسة المسيحية تعترف بإعلان الله لذاته إلهـــاً مثلـــث الأقانيم، وهكذا قبلت هذه الحقيقة. نجد ذلك في البنود الإثني عشر من قـــانون الإيمان الرسولي. فالمسيحي لا يعبر في ذلك القانون عمّا يظنه في الله. ولا هو يدلي بعقيدة تختص بالله، قائلاً إن لله كذا وكذا من الصفات وإنه موجود على هذا النحو أو ذاك. إلا أنه بالأحرى يعترف قائلاً: أومن بالله الآب، وبيسوع المســـيح ابنـــه الوحيد، وبالروح القدس، أومن بالإله المثلث الأقانيم. وباعتراف المسيحي بهذا إنما يعبر عن حقيقة كون الله هو الإله الحي والحقيقي، وكونه الله من حيث هو الآب والابن والروح القدس، الله الذي يضع ثقته فيه وقد أخضع له نفسه بجملتها والذي عليه يتكل مستريحاً بكل قلبه. فالله هو إله حياته وإله خلاصه. والله، بوصفه الآب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والابن والروح القدس، قد خلقه وافتداه وقدّسه ومجّده. فالمسيحي مدين له تعالى بكل شيء، وفرحه وعزاؤه كامنان في إيمانه بذلك الإله والثقة به وتوقّع كل شيء من لدنه.

وما يمضي المسيح فيعترف به بخصوص هذا الإله ليس خلاصة أجملها ببضعة ألفاظ مجرّدة، بل إن ذلك بالأحرى موصوف كسلسلة من الأفعال فعلها الله في الماضي ويفعلها في الحاضر وسيفعلها في المستقبل. فقوام اعتراف المسيحي هو أعمال الله أو معجزاته. وما يعترف به المسيحي في قانون الإيمان هو تاريخ طويل وعريض ورفيع. إنه تاريخ يشمل العالم كله بطوله وعرضه، ببداءاته واستمراره ونهايته، بمصدره وتناميه ومصيره، من نقطة الخلق حتى تكميل الدهور. فما إقرار الإيمان من قبل الكنيسة إلا إعلان لأعمال الله العظيمة.

وأعمال الله تلك عديدة وتتميز بتنوع كبير. لكنها أيضاً تؤلف وحده متضامة. فأحدها مرتبط بالآخر، وبعضها ممهد لبعض، ويتبنى بعضها البعض الآخر. وفي هذه الأعمال ترتيب ونظام نموذجي وتطور، وهي ذات حركة تصاعدية. والسلسلة تنطلق من الخلق وتمر بالفداء لتصل إلى التقديس والتمجيد. وبينما تعود نهاية السلسلة إلى بدئها، فهذه النهاية في الوقت عينه هي الذروة المرتفعة عالياً فوق نقطة الانطلاق. فأعمال الله تكوّن دائرة تصعد إلى عل بصورة لولبية، وهي تمثل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

انسجاماً بين الخطوط الأفقية والعمودية، كما أنها تتحرك صعوداً وإلى الأمـــام في الوقت عينه.

والله هو المهيمن على جميع هذه الأعمال وهو بانيها، كما انه مصـــدرها وغايتها النهائية. فمنه وبه وله كل الأشياء. إنه صانعها ومستردها ومتممها. ثم إن الوحدة والتنوع في أعمال الله ينطلقان من ويعودان إلى الوحدة والتنوع المتواجدين في الكينونة الإلهية. فالكائن الإلهي كائن واحد وحيد وبسيط. وهذا الكـــائن، في الوقت عينه، ثلاثي في شخصه، وفي إعلانه، وفي تأثيره. إن عمل الله بكامله كل لا يتجزأ، إلا أنه يشتمل على أغنى تنوع وتغيّر. واعتراف الكنيسة بإيمانهـــا يشـــمل تاريخ العالم بكامله. ففي إقرار الإيمان هذا تندرج لحظـــات الخلـــق والســـقوط، والمصالحة والغفران، والتجديد والإصلاح الشامل (الاسترداد). إنه اعتراف ينطلق من الله المثلث الأقانيم ويقتاد كل شيء رجوعاً إليه.

من هنا كان بند الثالوث الأقدس لبَّ اعترافنا وقلب عقيدتنا، وموضوع التسبيح والعزاء عند جميع المؤمنين الحقيقيين بالمسيح.

وقد كان هذا الاعتراف موضع نزاع دائم في الحرب الروحية على مدى العصور. فالاعتراف بالثالوث الأقدس هو اللؤلؤة الثمينة التي استؤمنت الكنيسة المسيحية على الحفاظ عليها والدفاع عنها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وما دام هذا الاعتراف بالثالوث الإلهي يحتل مركزاً أساسياً كهذا في الإيمان المسيحي، فمن المهم أن نعرف الأساس الذي عليه يقوم والمصدر الذي منه جاء إلى الكنيسة. فغير قليل في أيامنا من يذهبون أن هذا المعتقد هو حصيلة الجدل البشري والتعلم الأكاديمي، وعلى ذلك يعتبرونه غير ذي قيمة نسبة إلى الحياة الدينية. والإنجيل – بحسب قولهم – كما أعلنه المسيح، لا أثر فيه لعقيدة الثالوث الإلهي، إذ ليس فيه ما يشير إلى اللفظة بحد ذاتها ولا إلى الحقيقة التي تستعمل اللفظة للتعبير عنها. ويذهب هؤلاء إلى أنه عندما وصل إنجيل المسيح إلى أيدي هواة الفلسفة اليونانية فحوّروه، عندئذ فقط تشربت الكنيسة المسيحية الفكرة القائلة بأن المسيح ذو طبيعة إلهية ثم أضافت الروح القدس أيضاً إلى ذات الكائن الإلهي. وهكذا كان أن اعتراف الكنيسة بثلاثة أقانيم في الإله الواحد.

غير أن الكنيسة المسيحية بالذات طالما كان لها فكرة مغايرة لهذا تماماً، فهي لم تر في عقيدة الثالوث ابتكاراً ابتدعه علماء اللاهوت الماكرون، ولا حصيلة لدمج الإنجيل بالفلسفة اليونانية، بل بالأحرى إقراراً بحقيقة معبر عنها فعلاً في كلمة الله، وبعبارة موجزة: عقيدة استخلصها الإيمان المسيحي من الإعلان الإلهي. ورداً على السؤال "ما دام الكائن الإلهي واحداً فقط، فلماذا تتكلم عن الآب والابن والروح القدس؟". تقدّم خلاصة العقيدة المعروفة بخلاصة هايدلبرج جواباً موجزاً وحاسماً: لأن الله أعلن نفسه هكذا في كلمته (السؤال **25**). ذلك أن إعلان الله هو الأساس الراسخ الذي عليه أيضاً يقوم إقرار الكنيسة بهذه الحقيقة. فالإعلان الإلهي هو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المصدر الذي منه استمد وعليه بني هذا المعتقد الذي تعتنقه الكنيسة المسيحية الواحدة المقدسة الجامعة. إذ هكذا أعلن الله ذاته، وهو أعلن ذاته على هذا النحو –أي بوصفه إلهاً مثلث الأقانيم– لأنه تعالى كائن على هذا النحو، وهو كائن على هذا النحو لأنه هكذا أعلن ذاته.

فالثالوث المعلن في كلمة الله يشير إلى الثالوث الكائن في الذات الإلهية.

وهذا الإعلان لم يتم دفعة واحدة. فهو لم يقدّم ولم يكمل في لحظة واحدة من الزمان. بل إن لهذا الإعلان بالأحرى تاريخاً طويلاً على مدى قرون. فقد ابتدأ عند الخلق، واستمر بعد السقوط في المواعيد وأعمال النعمة التي أغدقت على شعب الله وبلغ ذروته في شخص المسيح وعمله، وفي انسكاب الروح القدس وتأسيس الكنيسة. ويبقى هذا الإعلان صامداً على مر العصور في وجه كل معارضة، وذلك في شهادة الكلمة المقدسة التي لا تنقض وفي إقرار الكنيسة بالإيمان، وهو الإقرار الثابت كالصخر. ولأن الإعلان كان له هذا التاريخ الطويل، فقد شهد الاعتراف بكيان الله الثلاثي تدرجاً وتطوراً أيضاً. حاشا لله أن يطرأ عليه أي تغيّر، إذ هو هو دائماً أبداً. إلا أنه، في تدرج الإعلان، يجعل ذاته دائماً أكثر وضوحاً وأكثر مجداً أمام الناس والملائكة. وإذ يستمر إعلانه عن ذاته، تنمو معرفتنا به.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لما بدأ الله يعلن ذاته، في أيام العهد القديم، فإن ما يبرز في الطليعة بكل توكيد هو وحدانية الله ووحدته.

فبسبب خطية الإنسان، ضاعت معرفة الله، أو كما يقول بولس بصورة عميقة جداً، انحجز الحق بالإثم. حتى إن ما يمكن أن يعرف عن الله من خلال ما صنعه صار باطلاً بفعل تصورات البشر وخيّمت عليه الظلمة بفعل غباوة قلوبهم. وإذا البشرية في كل جهة قد تردت في مهاوي الوثنية وعبادة الأصنام (رومية 1: 18 – 23).

لذلك كان من الضروري أن يستهل الإعلان بتأكيد وحدانية الله. وكأنما هي صرخة في آذان البشرية: إن الآلهة التي تسجدون لها ليست هي الله الحقيقي. فلا يوجد إلا إله حقيقي واحد، هو الله الذي في البدء خلق السماوات والأرض (تكوين 1: 1، 2: 1)، الله الذي عرف نفسه لإبراهيم بأنه الله القدير (تكوين 17: 1، خروج 6: 3)، الله الذي ظهر لموسى بوصفه يهوه، متحدثاً عن نفسه بأنه "أهيه الذي أهيه"، أي "أكون الذي أكون" (خر 3: 14)، الله الذي بدافع من إنعامه الكلي اختار شعبه ودعاهم وقبلهم في عهده (خر 19: 4ومايلي). إذاً كان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مضمون الإعلان أول كل شيء، أن يهوه وحده هو أيلوهيم، أي الرب وحده هو الله، ولا إله آخر سواه.[1]

وقد كان إعلان وحدانية الله ضرورياً أيضاً لشعبه ضرورة ماسة. فقد كان بنو إسرائيل محاطين من كل جهة بالوثنيين، وقد حاول هؤلاء الوثنيون كل حين إغواء بني إسرائيل للارتداد عن الرب وخيانته. بالإضافة إلى أنه إلى زمن السبي كان شعب إسرائيل يحسون في أنفسهم ميلاً نحو عبادة الأصنام والتماثيل، حتى أنهم كانوا يتردون في مهاوي ممارسة تلك العبادة رغم نهيي الناموس عنها وتحذيرات الأنبياء منها. لذلك نجد أن الله بالذات قد شدد على حقيقة كونه الإله نفسه الذي أعلن ذاته لإبراهيم واسحق ويعقوب بوصفه الله القدير (خروج 3: 6، 15)، وإن كان آنذاك قد ظهر لموسى بوصفه الرب المزمع أن يعتق شعبه على يد موسى. ولما أعطى تعالى ناموسه لإسرائيل، كتب في أعلاه كفاتحة له أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر. وفي الوصية الأولى، والثانية، نهى نهياً باتاً عن عبادة الأصنام والتماثيل (خروج 20: 2– 5). ولأن الرب إلهنا إله واحد، ينبغي لإسرائيل أن يحبه بكل قلبه وكل نفسه وكل قدرته (تثنية 6: 4، 5). فالرب وحده هو إله إسرائيل ولذلك يجب أن يتعبدوا له وحده.

---

(1) تث 4: 35، 39، يش 22: 22، 2 صم 7:22، 22: 32، 1 مل 18: 39، إش 45: 5، 18، 21، وغيرها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولكن على الرغم من حقيقة التشديد بهذه الصورة القوية على وحدانية الله بحيث يمكن اعتبارها– إذا جاز القول– البند الأول من شريعة إسرائيل الأساسية، نجد أن التمايزات، ضمن تلك الوحدة المتعلقة باللاهوت تلوح للعيان أيضاً إذ يتدرج الإعلان نحو كمال الكشف عن الكينونة الإلهية. حتى أن الاسم الذي يستخدم للدلالة على الله في الأصل العبري له، في حد ذاته، معنى ومغزى في هذا المجال. ذلك أن هذا الاسم، أي أيلوهيم، يذكر بصيغة الجمع، وبالتالي فهو يشير فعلاً، بكونه جمعاً توكيداً، إلى ملئ الحياة والقدرة الكائنين في الله، وإن كان لا يشير إلى وجود الأقانيم الثلاثة في كينونة الله على حد ما كان يعتقد على العموم في ما مضى. ومما يتعلق بهذه الحقيقة، ولا شك، أن الله يتكلم عن نفسه أحياناً بصيغة الجمع، وبهذا يشير إلى وجود تمايزات داخل ذاته تحمل طابعاً شخصياً (تكوين 1: 26، 27، 3: 22، إشعياء 6: 8).

ثم إن ما يعلم به العهد القديم من أن الله يخلق كل شيء إلى الوجود– سواء في الخلق أو في العناية– بكلمته وبروحه، لهو وتعليم ذو دلالة أهم. فحاشا له أن يكون أشبه بالكائن البشري حتى يصنع شيئاً ما من مواد في متناول يده، باذلاً جهداً كثيراً وملاقياً عناءً كبيراً. بل إنه بالأحرى يدعو كل شيء من العدم إلى الوجود بمجرد فعل الكلام.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذه الحقيقة نتعلمها بأرفع طريقة ممكنة من أول إصحاح في سفر التكوين، كما أنها معبر عنها في مواضع أخرى على نحو ولا أمجد نثراً وشعراً: لأنه قال فكان، هو أمر فصار (مزمور 33: 9). وهو يرسل كلمته فيذيب الجمد والبر (مز 147: 18). صوت الرب على المياه، يزلزل البرية، ويجعل الجبال تمرح مثل عجل، ويكشف الوعور (مز 29: 3 – 10).

ففي هذا الاستعراض الرفيع لأعمال الله حقيقتان: أولاهما هي أن الله هو القدير الذي ما إن ينطق بكلمة حتى تبرز كل الأشياء إلى الوجود، والذي كلمته هي القانون وصوته هو القوة (مز 33: 9، 29: 4)، والثانية هي أنه يعمل أعماله عن قصد، وليس بلا روية ولا تدبير، وينفذ أعماله كلها بأسمى حكمة. والكلمة التي ينطق بها الله هي قوة، إلا أنها أيضاً وسيلة التعبير عن الفكر. فهو صانع الأرض بقوته، مؤسس المسكونة بحكمته، وباسط السماوات بفهمه (إرميا 10: 12، 51: 15). وهو قد صنع أعماله كلها بحكمة، والأرض ملآنة من غناه (مزمور 104: 24). وحكمة الله لم تأته من خارج ذاته، بل كانت لديه منذ البدء. إذ كانت لديه باعتبارها أول طريقة، قبل أعماله منذ القدم. فعندما ثبت السماوات، ورسم دائرة على وجه الغمر، وأثبت السحب من فوق، وشدد ينابيع الغمر، عندئذ كانت الحكمة حاضرة لديه من قبل، كائنة عنده، لذته كل يوم، فرحة دائماً قدامه (أمثال 8: 22 – 31). فقد ابتهج الله بالحكمة التي بها خلق العالم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإلى جانب كلمة الله وحكمته هذه، يظهر روح الله باعتباره وسيط الخلق. فكما أن الله هو الحكمة ويمتلك الحكمة في آن معاً، بحيث يستطيع أن يشارك فيها ويعرضها في أعماله، فكذلك تماماً هو روح في كينونته (تثنية 4: 12، 15). ويمتلك روحاً هو ذلك الروح الذي به يستطيع أن يحل في العالم ويكون حاضراً فيه كل حين وفي كل مكان (مزمور 139: 7). والرب، دون أن يكون أحد له مشيراً، أوجد بروحه كل شيء (إشعياء 40: 13وما يلي). في البدء كان ذلك الروح يرف على وجه المياه (تكوين 1: 2)، وهو يظل فعالاً في كل ما خلق. وبذلك الروح يجعل الله السماوات مسفرة (أيوب 26: 13)، ويجدد وجه الأرض (مزمور 104: 3)، ويحيي الإنسان (أيوب 33: 4)، ويبقي نسمة الحياة في أنفه (أيوب 27: 3)، ويعطيه عقلاً وحكمة (أيوب 32: 8)، وكذلك أيضاً يجعل الزهر يذبل والعشب ييبس (إشعياء 40: 7). وبعبارة وجيزة: بكلمة الرب صنعت السماوات، وبنسمة فمه كل جنودها (مزمور 33: 6).

****

وهذا التنوع في ذات الله يبرز بأكثر جلاء في أعمال التجديد، حيث ليس أيلوهيم بل يهوه، أي الرب إله العهد، هو من يعلن نفسه ويظهر ذاته في عجائب الفداء والخلاص. بهذه الصفة يفتدي شعبه ويقودهم، ليس فقط بكلمته التي يتكلم بها أو يبلغها إليهم، بل أيضاً بواسطة ملاك العهد (ملاك الرب)، وقد سبق أن ظهر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا الملاك في تاريخ الآباء: لهاجر (تكوين 16: 6 وما يلي)، ولإبراهيم (تكوين 18 ومايلي). وليعقوب (تكوين 28: 13 وما يلي). هذا الملاك أظهر نعمته وقدرته خصوصاً في إعتاق بني اسرائيل من العبودية.[2] وملاك الرب هذا ليس شأنه شأن الملائكة المخلوقين من حيث الأهمية بل إنه بالأحرى ظهور علني خاص يتجلى فيه الله ذاته. فهو– من ناحية– متميز بوضوح عن الله الذي يتكلم عنه باعتباره ملاكه، لكنه مع ذلك– من الناحية الأخرى– واحد مع الله نفسه من حيث الاسم والقدرة، وفي الفداء والبركة، ومن جهة قبول العبادة والإكرام. وهو يدعى الله في (تكوين 16: 13)، وإله بيت إيل في (تكوين 31: 13)، ويتبادل الأدوار مع الله أو الرب (تكوين 28: 30، 32؛ خروج 3: 4)؛ وله اسم الله في (خروج 23: 21). وهو يخلص من كل شر (تكوين 48: 16)، وينقذ بني اسرائيل من أيدي أعدائهم (خروج 3: 8)، ويشق المياه ويجعل البحر يابسة (خروج 14: 21)، ويحفظ شعب الله في الطريق ويأتي بهم إلى كنعان سالمين وينصرهم على أعدائهم (خروج 3: 8؛ 23: 30)، ومن الواجب أن يطاع طاعة مطلقة كما لو كان هو الله بذاته (خروج 23: 21)، وهو حالٌّ دائماً حول خائفي الربّ (مزمور 34: 7؛ 35: 5).

وكما أن يهوه، في عمله التجديدي، يجري أفعاله الفدائية، بواسطة ملاك العهد، فكذلك تماماً يستخدم روحه ليعطي شعبه جميع أنواع الطاقات والمواهب. ونجد في العهد القديم أن روح الرب هو مصدر كل حياة وكل خير وكل مقدرة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فهو يمنح القضاة شجاعة وقوة – من عثنيئيل (قضاة 3: 10)، إلى جدعون (قض 6: 34)، إلى يفتاح (قض 11: 29)، إلى شمشون (قض 14: 6، 15: 14). وهو يهب بصيرة فنية لصناع حلل الكهنة والخيمة والهيكل،[3] ويعطي الحكمة والفهم للقضاة الذين شاركوا موسى في الإطلاع بتحمل مسؤولية الشعب (عدد 11: 17، 25). والروح أيضاً يعطي الأنبياء روح النبوة، وجميع أولاد الله التجديد والتقديس والإرشاد (مزمور 51: 12، 13؛ 143: 10).

وبالاختصار، فإن الكلمة (الموعد أو العهد) التي أعطاها الرب لإسرائيل عند الخروج من مصر قد تواجدت على مر العصور، ولم تزل ثابتة بعد السبي في أيام زربّابل، بحيث لم يكن ما يدعو الشعب إلى الخوف (حجّي 2: 4، 5). ولما اقتاد الرب اسرائيل خارج مصر صار هو مخلص اسرائيل. وقد تم التعبير عن هذا الترتيب من الله نحو شعبه في حقيقة كونه قد تضايق في كل ضيقهم (اعتبر معاناة شعبه معاناة له خاصة به) ولذلك أرسل ملاكه لينجيهم. بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم خاصة له طوال تلك الأيام القديمة. وقد أرسل إليهم روحه القدوس لكي يهديهم في سُبُل الرب (إشعياء 63: 9– 12). وفي أيام عهد الله القديم، وضع الرب على شعب اسرائيل، بوساطة رئيس الكهنة، بركته المثلثة: بركة الحراسة، وبركة الرحمة، وبركة السلام (عدد 6: 24– 26).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إذاً على هذا النحو التدريجي الواضح، يتم التعبير عن التمايز الثلاثي في الذات الإلهية كما سبق أن ظهر في تاريخ اقتياد الله لنبي إسرائيل. على أن العهد القديم يتضمن أيضاً وعوداً بأن المستقبل سيشهد إعلاناً أسمى وأغنى. لكن بني إسرائيل، رغم كل شيء رفضوا كلمة الرب وأحزنوا روحه القدوس (إشعياء 63: 10، مزمور 106). وهكذا تبيّن أن إعلان الله نفسه في ملاك العهد وفي روح الرب، كان غير واف: فإذا كان الله يريد أن يؤيد عهده ويتم وعده، فإن إعلاناً آخر وأسمى لا بد أن يعطي.

ومثل هذا الإعلان نادى الأنبياء بمقدمه،وعرفوا وقالوا. إن الرب سيقيم من وسط إسرائيل نبياً مثل موسى ويضع كلامه في فم ذلك النبي (تثنية 18: 18). هذا الشخص سيكون كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق (مزمور 110: 4)، وملكاً من بيت داود (2 صموئيل 7: 12– 16)، وقضيباً من جذع يسَّى (إشعياء 11: 1)، وملكاً يقضي طالباً الحق ومبادراً بالعدل (إش 16: 5). ولسوف يأتي كائناً بشرياً، فيكون إنساناً ابن امرأة (إش 7: 14)، كما سيكون بلا صورة ولا جمال (إش 53: 2 وما يلي)، إلا أنه في الوقت عينه سيكون هو عمانوئيل (إش 7: 14) والرب برّنا (إرميا 23: 6)، وملاك العهد (ملاخي 3: 1)، والرب نفسه ظاهراً لشعبه (هوشع 1: 7، ملاخي 3: 1). ولسوف يدعي اسمه عجيباً مشيراً، الله القدير، الآب الأبدي، رئيس السلام (إش 9: 6).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقال الأنبياء إنه سيكون في أعقاب ظهور عبد الرب هذا حضور أغنى للروح القدس. فهذا الروح سيحل على المسيا، بوصفه روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب (إش 11: 2، 42: 1، 61: 1). وكذلك سيسكب الروح على كل بشر، على البنين والبنات، والشيوخ والشباب، والعبيد والإماء.[5] كما أنه يعطي قلباً جديداً وروحاً جديداً حتى يسلك شعب الرب في فرائضه ويحفظوا أحكامه ويعملوا بها.[6]

وهكذا يشير العهد القديم بالذات إلى أن الإعلان الكامل لله سيكون قوامه ثالوثية الكينونة الإلهية.

****

هذا الوعد أو هذه النبوة يفي بها تماماً تحقيق العهد الجديد. وفي هذا المجال أيضاً نجد أن وحدانية الله أو وحدته هي نقطة الانطلاق في كل إعلان إلهي.[1] ولكن الآن في العهد الجديد ينبعث من هذه الوحدانية نور عارم يوضح بجلاء التنوع في كينونة الله. ويحدث هذا: أولاً في وقائع الفداء العظيمة المتمثلة في التجسد والكفارة وحلول الروح القدس، ومن ثم في تعليم المسيح ورسله. فإن عمل الخلاص كل متكامل، وهو عمل إلهي من أوله إلى آخره. ولكن في هذا العمل ثلاث محطات

---

(7) يوحنا 17: 3، 1 كو 8: 4، 1 تي 2: 5.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

سامية، هي الاختيار والغفران والتجديد، وهذه الثلاثة تشير إلى مصدر ثلاثي في كينونة الله، أي إلى الآب والابن والروح القدس.

حتى الحبل بالمسيح يرينا فعالية الله المثلثة. فبينما الآب أعطي الابن العالم (يوحنا 3: 16)، والابن نفسه نزل من السماء (يوحنا 6: 38)، حبل بذلك الابن في مريم بالروح القدس (متى 1: 20، لوقا 1: 35). وعند معمودية يسوع المسيح مسح بالروح القدس وأُعلن جهراً أنه ابن الآب الحبيب، الابن الذي به سر الآب كل سرور (متى 13: 16، 17). والأعمال التي عملها المسيح سبق أن رآه الآب إياها (يوحنا 5: 19، 8: 38)، وقد تمت على يده بقوة الروح القدس (متى 12: 28). وفي موته قدّم نفسه لله بالروح الأزلي (عبرانيين 9: 14). والقيامة هي إقامة من قبل الآب (أعمال 2: 24)، كما أنها في الوقت نفسه عمل يسوع الخاص الذي به تبرهن بقوة أنه ابن الآب بحسب روح القداسة (رومية 1: 3). وبعد قيامته، وفي يوم الأربعين، صعد في الروح الذي أحياه إلى أعلى السماء، وهناك أخضع لنفسه الملائكة والسلاطين والقوّات.

هذا، ويتفق تعليم المسيح والرسل كلياً مع الدرس الذي يستفاد من هذه الأحداث بذاتها.

فقد جاء المسيح إلى الأرض لكي يعلن الآب ويظهر اسمه بين الناس (يوحنا 1: 18، 17: 6). واسم الآب استعمله الوثنيون أيضاً بالإشارة إلى الله الخالق

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكل شيء. ويؤيد الكتاب المقدس معنى اللفظة هذا في مواضع شتى.[8] كما أن العهد القديم يستعمل تسمية الآب عدة مرات للدلالة على علاقة الله الثيوقراطية (نسبة إلى ملك الله بمقتضى الشريعة الإلهية على نحو يجمع الدين والدولة) بإسرائيل، لأنه بقدرته المذهلة أوجد هذه العلاقة وحافظ عليها (تثنية 32: 6، إشعياء 63: 16). غير أن العهد الجديد يلقي ضوءاً جديداً بصورة مجيدة على اسم الآب هذا في دلالته على الله. وطالما بيّن المسيح فروقاً جوهرية بين العلاقة التي له هو مع الآب وتلك التي للآخرين، كاليهود والتلاميذ مثلاً. فعندما يعلّم تلاميذه مثلاً "الصلاة الربانية" تلبية لطلبهم، يقول: "متى صليتم (أنتم) فقولوا.." وهو يقصد هذا التعبير بعينه. وحين يعلن لمريم المجدلية، بعد قيامته، صعوده الوشيك، يقول: "أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم، (يوحنا 20، 17). وبعبارة أخرى، فإن الله هو أبوه على نحو خاص (يوحنا 5: 18). فالآب يعرف الابن ويحبه بطريقة خاصة وإلى أقصى حد بحيث إن الابن وحده، في المقابل، يستطيع أن يعرف الآب ويحبه هكذا.[9] وعليه، يدعى الله بين الرسل دائماً بوصفه أباً ربّنا يسوع المسيح (أف 1: 3). هذه العلاقة بين الآب والابن لم تستحدث عبر الزمن بل هي كائنة منذ الأزل (يوحنا 1: 1، 14، 17: 24). إذاً الله هو الآب في المقام الأول لأنه أبو الابن بطريقة فريدة للغاية.

وبمعنى اكتسابي يدعى الله أيضاً أبا الخلائق كلها لأنه خالقها ومدبرها (1 كورنثوس 8: 6 ومواضع أخرى). وهو يدعى أبا اسرائيل لأن اسرائيل صنيعة يده

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بفضل الاختيار والدعوة (تثنية 32: 6، إشعياء 64: 8)، كما أنه أبو الكنيسة وجميع المؤمنين لأن محبة الآب للابن تنسحب عليهم شرعاً (يوحنا 16: 27، 17: 24) إذ قبلوا كأولاد عنده بعدما ولدوا منه بالروح القدس (يوحنا 1: 12، رو 8: 15).

ولذلك فالآب هو دائماً الآب، الأقنوم الأول في اللاهوت الذي منه. في مشورة الله وفي جميع أعمال الخلق والعناية والفداء التقديس، تصدر المبادرة. فهو أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته (يوحنا 5: 26)، وهو مرسل الروح القدس (يوحنا 15: 29). هو صاحب الاختيار والمسرة (متى 11: 26، أف 1: 4، 9ن 11). هو مصدر الخلق والعناية والفداء والتجديد (مزمور 33: 6، يوحنا 3: 16). وإليه يعزي– بمعنى خاص– الملك والقوة والمجد (متى 6: 13). وهو يحمل اسم الله بصورة خاصة تمييزاً له عن الرب يسوع المسيح والروح القدس. وبالحقيقة إن المسيح نفسه، باعتباره الوسيط، لا يدعو الله أباه وحسب بل إلهه أيضاً (متى 27: 46، يوحنا 20: 17)، والمسيح نفسه يدعى مسيح الله.[1]

ومن حيث إن الله هو الآب، يستدل على أن هناك أيضاً الابن الذي قبل الحياة منه والذي يشاركه في محبته. ونجد في العهد القديم الاسم "ابن الله" مستعملاً

---

(22) لو 9: 20، ا كو 3: 23، رؤ 12: 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للإشارة إلى الملائكة،[1] وإلى شعب إسرائيل،[2] وأيضاً بصورة خاصة إلى الملك الثيوقراطي على ذلك الشعب.[3] إلا أن هذا الاسم يضفي عليه في العهد الجديد معنى أكثر عمقاً. فإن المسيح هو ابن الله بمعنى خاص وفريد جداً: فهو أرفع كثيراً جداً من الملائكة والأنبياء (متى 13: 32، 21: 27، 22: 2)، وهو نفسه يقول إنه لا أحد يستطيع أن يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يستطيع أن يعرف الآب إلا الابن (متى 11: 27). وتمييزاً له عن الملائكة والبشر، هو ابن الآب الوحيد (رو 8: 32)، الابن الحبيب الذي به سر الآب كل سرور (مت 3: 17)، ابن الله الوحيد (يوحنا 1: 18) الذي أعطاه الآب أن تكون له حياة في ذاته (يوحنا 5: 26).

هذه العلاقة الخاصة جداً والفريدة بين الآب والابن لم تنشأ عن طريق الحمل المعجزي بواسطة الروح القدس، ولا نجمت عن المسح عند المعمودية أو عن القيامة والصعود– وإن كان كثيرون قد رأوا ذلك– بل هي علاقة كائنة منذ الأزل. فالابن الذي اتخذ في المسيح طبيعة بشرية كان في البدء مع الله، بوصفه الكلمة (يوحنا 1: 1)، وعندئذ كانت له صورة الله (فيلبي 2: 6)، وكان غنياً

---

(29) أي 38: 7.

(30) تث 1: 31، 8: 5، 14: 1، 32: 6، 18، هو 11: 1.

(31) 2 صم 7: 11– 14، مز 2: 7.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يجلله المجد (يوحنا 17: 5، 24)، وكما كان شعاع مجد الله ورسم جوهره (عبرانيين 1: 3)، ولذلك كان ممكناً بالتحديد في ملء الزمان أن يرسل ويبذل ويدخل إلى العالم.[1] ومن هنا أيضاً يعزى إليه الخلق (يوحنا 1: 3، كولوسي 1: 16) والعناية (عبرانيين 1: 3) وإنجاز الخلاص بالكامل (1 كورنثوس 1: 30).

وهو ليس كالخلائق مصنوعاً أو مخلوقاً، بل إنه بالأحرى بكر كل خليقة، أي أنه الابن الذي له رتبة البكر وحقوقه على جميع الخلائق (كولوسي 1: 15). وهكذا هو أيضاً بكر القائمين من بين الأموات، والبكر بين إخوة كثيرين، وبالتالي فهو المتقدم بين الجميع وفي كل شيء (رومية 8: 29، كولوسي 1: 18). ومع أنه في ملء الزمان، اتخذ صورة عبد، فقد كان رغم ذلك في صورة الله. لقد كان في كل شيء مثل الآب تماماً (فيلبي 2: 6)، وفي الحياة (يوحنا 5: 26)، والمعرفة (متى 11: 27)، والقوة (يوحنا 1: 3، 5: 21، 26) والإكرام (يو 5: 23). وهو نفسه الله الذي ينبغي له الحمد إلى الأبد دون سواه.[2] وكما أن كل شيء هو من الآب، فكذلك أيضاً كل شيء هو بالابن (1 كورنثوس 8: 6).

****

(32) يو 3: 16، غل 4: 4، عب 1: 6.

(33) يو 1: 1، 20: 8، رو 9: 5، عب 1: 8 و 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم إن الآب والابن متحدان ومندمجان في الروح القدس، وبواسطة الروح يحلان في جميع الخلائق. صحيح أن الله بحسب طبيعته هو روح (يوحنا 4: 24) وهو أيضاً قدوس (إشعياء 6: 3)، غير أن الروح القدس متميز تماماً عن الله الآب بوصفه روحاً. فعلى سبيل المقارنة، كما أن الإنسان روح في طبيعته غير المنظورة وهو أيضاً فيه روح بها يعي ذاته ويدرك نفسه، فكذلك الله هو روح في طبيعته وله أيضاً روح، روح يفحص أعماق كيانه (1 كورنثوس 2: 11). لذا يدعى هذا الروح روح الله أو الروح القدس (مزمور 51: 12، إشعياء 63: 10– 11). وهذا يتم بالمباينة مع روح أي ملاك أو مخلوق بشري أو أي مخلوق آخر. ولكن مع أن الروح متميز عن الآب والابن، فهو متحد بهما كليهما في أوثق العلاقات. من هنا يدعى نسمة القدير (أيوب 33: 4)، ونسمة فمه (مزمور 33: 6)، ويرسل من عند الآب والابن (يوحنا 14: 26، 15: 26) منطلقاً من عندهما، لا من عند الآب وحده (يوحنا 15ك 26) بل من عند الابن أيضاً، لأنه يُدعى أيضاً روح المسيح كما يدعى روح الآب (رومية 8: 9).

ومع أن الروح القدس على هذا النحو يعطي، أو يرسل أو يسكب، من قبل الآب والابن، فهو غالباً ما يظهر في صورة قوة خاصة، أو موهبة تؤهل الناس لدعوتهم أو وظيفتهم. ولذا يتكلم سفر الأعمال مثلاً في مواضع شتى منه عن الروح القدس كأنه قوة، وذلك في ما يتعلق بموهبة النبوة خصوصاً (8: 15، 10: 44، 11: 15، 15: 8، 19: 2). ولكن لا مسوغ لأن نستدل من هذا الواقع،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مثلما يفعل كثيرون، أن الروح القدس لا يعدو كونه سوى موهبة من الله أو قوة إلهية وحسب. ففي مواضع أخرى يظهر على وجه التحديد بوصفه شخصاً (أقنوماً) له أسماء شخصية وخصائص شخصية ويقوم بأعمال شخصية. وهكذا ففي (يوحنا 15: 26؛ 16: 13، 14) يستعمل المسيح ضمير الغائب العاقل (في الأصل اليوناني) حيث يقول: ذاك يشهد لي ويمجدني. وفي الموضع نفسه يسميه المسيح المعزي، وهذا الاسم هو في الأصل الاسم نفسه الذي يطلق على المسيح في (1 يوحنا 2: 1) (شفيع).

وفضلاً عن هذه الأسماء الشخصية، تنسب إلى الروح القدس خصائص شخصية من كل نوع، منها مثلاً: الشخصية المتفردة (أعمال 13: 2)، ووعي الذات (أع 15: 28)، وحرية الإرادة (1 كورنثوس 12: 11). ثم إنه يسند إليه أكثر من نوع من النشاطات الشخصية، كالفحص (1 كورنثوس 2: 11)، والاستماع (يوحنا 16: 13)، والكلام (رؤيا 2: 17)، والتعليم (يوحنا 14: 26)، والصلاة (رومية 8: 27)، وما شابه ذلك. وهذا كله يبرز للعيان، على أسمى وأوضح ما يكون، في حقيقة كون الروح يوضع على المستوى نفسه مع الآب والابن (متى 28: 19، 2 كورنثوس 13: 14).

هذه النقطة الأخيرة نقطة شديدة الأهمية، وهي تدل على حقيقة كون الروح القدس ليس مجرد شخص وحسب بل أيضاً الله بالذات. وتتوافر في الكتاب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المقدس جميع المعطيات الضرورية للإقرار بهذه الحقيقة. فإنما علينا أن نلاحظ أنه على الرغم من التمايز المشار إليه أعلاه، بين الله وروحه، فالاثنان غالباً ما يتبادلان، حسب الكلمة المقدسة، بحيث إنه إذا قال الله أو روحه شيئاً، أو فعلاه، فالمقصود واحد. ففي (أعمال 5: 3، 4) يدعى الكذب على الروح القدس كذباً على الله. وفي (1 كورنثوس 3: 16) يدعى المؤمنون هيكل الله لأن روح الله ساكن فيهم. أيضاً علينا أن نضيف إلى هذه الحقائق الواقعة أن صفات إلهية شتى تنسب إلى الروح القدس تماماً كما تنسب إلى الآب والابن، ومنها: الأزلية (عبرانيين 9: 12)، الحضور في كل مكان (مزمور 139: 7)، العلم بكل شيء (1 كورنثوس 2: 11)، كلية القدرة (1 كو 12: 4 – 6). كما تنسب إلى الروح أيضاً أعمال إلهية شتى، منها: الخلق (مزمور 33: 6)، العناية (مز 104: 30)، الفداء (يوحنا 3: 3). وبالتالي، فالروح يشارك الآب والابن في المجد الواحد عينه. فهو يحتل مكانته إلى جنب الآب والابن من جهة علّة الخلاص (2 كورنثوس 13: 14، رؤيا 1: 4). وباسمه أيضاً اعتمدنا (متى 28: 19)، ونبارك (2 كو 13: 14). أضف إلى هذا أن التجديف على الروح القدس هو خطيئة لا تغتفر (متى 12: 31 _ 32). وبعبارة أخرى، فكما أن جميع الأشياء هي من الآب وبالابن، فكذلك تتواجد كلها وتستقر في الروح القدس.

وعناصر عقيدة الثالوث هذه كلها، المنتشرة في مواضع شتى من الكتاب المقدس كله، قد كثفت جميعاً– إن جاز القول– في أمر المسيح بالمعمودية وفي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البركة الرسولية. فبعد القيامة وقبل الصعود طلب المسيح إلى رسله أن يذهبوا إلى جميع الأمم ويتلمذوا الناس له ويعمدوهم باسم الإله الواحد، الذي له هنا ثلاث مسميات ظاهرة. فالآب والابن والروح، في وحدتهم وفي تمايزهم، هم ملء إعلان الله الكامل. كذلك أيضاً بحسب الرسل، يتضمن خير الإنسان الكلي وخلاصه الشامل في محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس.[1] فالمسرة والعلم السابق والقوة والمحبة والملك والقدرة، هي للآب. والوساطة والمصالحة والنعمة والفداء، هي للابن. والتجديد والولادة الجديدة والتقديس والفداء، هي للروح القدس. أما علاقة المسيح بالآب، فتوازيها تماماً علاقة الروح القدس بالمسيح. فكما أن الابن لا يتكلم بشيء ولا يعمل شيئاً من ذاته، بل يتلقى كل شيء من الآب (يوحنا 5: 26، 16: 15)، فكذلك يأخذ الروح القدس كل شيء من المسيح (يو 16: 13، 14). وكما يشهد الابن للآب ويمجده (يوحنا 1: 18، 17: 4، 6)، فكذلك يشهد الروح القدس للابن ويمجده (يوحنا 15: 26، 16: 14). وكما أنه لا يأتي أحد إلى الآب إلا بالابن (يو 14: 6)، فكذلك لا يستطيع أحد أن يقول إن يسوع رب إلا بالروح القدس (1 كورنثوس 12: 3). وبالروح لنا شركة مع الآب ومع الابن. وفي الروح القدس يسكن الله نفسه بالمسيح في قلوبنا. وما دام كل شيء هكذا، فالروح القدس، مع الآب والابن، هو الإله الواحد الحقيقي المستحق أن يمدح ويحمد إلى الأبد على كونه هكذا.

---

(34) 2 كو 13: 14، 1 بط 1: 2، 1 يو 5: 4 –6، رؤ 1: 4 –6.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

لهذه العقيدة المختصة بالروح القدس قالت الكنيسة المسيحية نعم وآمين، وذلك في اعترافها بالثالوث الأقدس. ولم تبلغ الكنيسة هذا الاعتراف المجيد والثمين إلا بعد جهاد مرير وطويل مع الأرواح. وها قد نطوت قرون على حسم هذه المسألة بعدما شهد أولاد الله أعمق المعاناة في حياتهم الروحية، إذ انصبت جهود جبارة على سبر أغوار هذه التعاليم من تعاليم كلمة الله المقدسة لصياغته في إقرار الإيمان الكنسي بكل نقاوته، جهود بذلها آباء الكنيسة ومعلموها ذوو الفكر الثاقب والموهبة الفذة. وما من شك في أن الكنيسة ما كانت لتحرز النجاح في هذا الجهد المعتبر من قبل إرساء الأسس، لو لم يقدها الروح القدس إلى الحق، ولو لم تقبل أولئك الذين التزموا سواء السبيل من الموهوبين مواهب غير عادية وذوي التقوى والحكمة، أمثال ترتليان وإيريناياس وأثناسيوس والكبدوكي الثلاثة وأغسطينوس وهيلاريوس وكثيرين سواهم.

وفي معركة الأرواح تلك لم يكن على شفا الإفساد إلا جوهر المسيحية الخاص. فمن جهتين تعرضت الكنيسة لخطر السماح لنفسها بالسقوط عن الأساس الراسخ الذي بنيت عليه، مما يؤول إلى غلبة العالم عليها.

فمن جهة، كان هنالك خطر الآريوسية، وهي منسوبة إلى الشيخ الاسكندراني آريوس الذي توفى في سنة **336**. وقد ارتأى آريوس أن الآب وحده

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هو الإله الأزلي الحقيقي، مادام هو المصدر غير المنبثق بكل معنى الكلمة. أما بخصوص الابن، أي الكلمة الذي صار في المسيح جسداً، فقد علّم آريوس بأنه لا يمكن أن يكون هو الله لأنه منبثق، ولذلك زعم أن المسيح مخلوق. وبينما ذهب إلى أنه صنع قبل سائر الخلائق، ارتأى أنه مع ذلك مخلوق، لأنه تكوّن بمشيئة الله شأنه شأن تلك الخلائق. وعلى هذا النحو نفسه ارتأى آريوس أن الروح القدس مخلوق، أو أنه صفة من صفات الله أو سجية من سجاياه.

ومن جهة ثانية، كانت جماعة السابليوسية نشيطة، وهي منسوبة إلى شخص اسمه سابليوس عاش في روما في أوائل القرن الثالث. وقد ارتأى سابليوس أن الآب والابن والروح القدس ليسوا إلا ثلاثة أسماء لمسمى واحد هو الله الذي أعلن ذاته هكذا على التوالي في أشكال وتجليات متنوعة مع تدرج الإعلان الإلهي. وحسب زعمه أن الله، في شكل الآب، كان فعالاً كخالق ومعط للناموس. ومن ثم قام بعمل الفادي في شكل الابن. وهو الآن، في شكل الروح القدس، يقوم بعمل مجدد الكنيسة.

وفيما تحاول الآريوسية توكيد وحدانية الله لإقصاء الابن والروح القدس إلى خارج كيان اللاهوت وإنزالهما إلى مستوى المخلوقات، تسعى السابليوسية إلى بلوغ الهدف نفسه عن طريق سلب أقانيم اللاهوت الثلاثة استقلالها. وهي تفعل ذلك بزعمها أن الأقانيم ما هي إلا استحالات ثلاث للكائن الإلهي الواحد في ثلاثة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أنماط من الإعلان متعاقبة. وفي الحركة الأولى تعبير مميز عن الفكر اليهودي التأليهي العقلاني، فيما تعبر الثانية عن تعدد الآلهة والتصوف عند الوثنيين. فما إن عكفت الكنيسة على النظر ملياً في الحق الذي نص عليه فيما بعد الاعتراف بالثالوث الإلهي حتى قامت هاتان الحركتان إلى اليمين وإلى اليسار، ومازالتا تواكبان إقرار الكنيسة حتى اليوم. فهكذا في كل حين ومرة بعد مرة ينبغي أن تكون الكنيسة كلها، وأعضاؤها فردياً، في تيقظ دائم للاحتراس من عدم إنصاف وحدانية الكائن الإلهي من جهة، وحقيقة الأقانيم الثلاثة في ذلك الكائن من الجهة الأخرى. فلا يجوز أن يضحى بالوحدانية في سبيل التنوع، ولا بالتنوع في سبيل الوحدانية. ذلك أن دعوة جميع المؤمنين هي إلى المحافظة على كلتا الحقيقتين في ارتباطهما الذي لا تنفصم عراه وعلاقتهما الوثيقة إحداهما بالأخرى، لا نظرياً فقط بل أيضاً في الحياة العملية.

وفي سبيل الوفاء لهذا المطلب، لجأت الكنيسة المسيحية وعلم اللاهوت المسيحي، في الفترة المبكرة، إلى استخدام عدة كلمات وتعابير لا توجد حرفياً في الكلمة المقدسة. فقد شرعت الكنيسة تتحدث عن جوهر الله وعن وجود ثلاثة أقانيم في جوهر الكينونة هذا. كما تحدثت عن الثالوث والثالوثية (التنبيه على وجود الأقانيم الثلاثة)، أو عن الخصائص الجوهرية والخصائص الأقنومية، وعن ولادة الابن قبل كل الدهور، وعن انبثاق الروح القدس من الآب ومن الابن، إلى ما هنالك.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وليس من سبب البتة يدعو الكنيسة وعلم اللاهوت المسيحي إلى الكف عن استخدام مثل هذه الألفاظ والتعابير. فإن الكلمة المقدسة لم تعط للكنيسة من عند الله كي تتلى دون تفكير بل بالأحرى لكي تفهم حق الفهم بكل ملئها وغناها، ولكي تعبر الكنيسة عن حقائقها بلغتها الخاصة لعلها تذيع بهذه الطريقة أعمال الله المقتدرة. ثم إن مثل هذه الألفاظ والتعابير ضرورية في سبيل الحفاظ على الحق الكتابي المقدس في وجه مناوئيه، وصونه من سوء الفهم والضلال. وقد علمنا التاريخ على مدى القرون أن الاستعجال في رفض هذه الألفاظ والتعابير أو عدم استحسانها، يفضي إلى صنوف شتى من الانحراف عن الاعتراف الصحيح. وفي الوقت نفسه ينبغي لنا حين نستعمل هذه الألفاظ أن نذكر دائماً أنها ذات أصل بشري، وبالتالي فهي محدودة وناقصة وغير معصومة. حقيقة اعترف بها آباء الكنيسة دائماً. فقد اعتقدوا مثلاً أن اللفظة (أقنوم) التي استخدمت للدلالة على أنواع الكينونة الثلاثة في اللاهوت لم تنصف تماماً الحق المتعلق بهذه المسألة، إلا أنها أدت عملها المساعد على توكيد الحق ودحض الضلال. هذه الكلمة اخترت لا لأنها دقيقة من جميع النواحي، بل لأنه لم يتم الاهتداء إلى كلمة سواها أفضل منها. وفي هذه المسألة أيضاً، تقصر هذه الكلمة عن الفكرة، كما تقصر الفكرة عن الحقيقة. ومع أننا لا نستطيع تسجيد الحقيقة إلا عن هذه الطريقة غير الوافية، فينبغي لنا ألا ننسى البتة أن ما يهم هو الحقيقة ذاتها وليس الكلمة المعبرة عنها. ولا شك أن تعابير أخرى وأفضل سوف توضع على ألسنتنا في تدبير المجد العتيد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

إذاً فالحقيقة التي يتناولها الاعتراف بالثالوث الأقدس هي في حد ذاتها بالغة الأهمية، سواء بالنسبة إلى العقل أو بالنسبة إلى القلب.

ذلك لأن الكنيسة، باعترافها هذا، تحافظ– في المقام الأول– على حقيقة كل من الوحدانية والتنوع في كينونة الله. فالكائن الإلهي واحد، إذ لا يوجد إلا كائن واحد هو الله ويمكن أن يسمى "الله". ففي الخلق والفداء، والطبيعة والنعمة، والكنيسة والعالم، والدولة والمجتمع، وفي كل مكان وزمان، نحن معنيون بإله واحد حي حقيقي لا يتغير. حتى إن وحدة كل من العالم والبشرية والحق والفضيلة والعدل والجمال تتعلق جميعها بوحدانية الله. وحالما تنكر وحدانية الله هذه أو يضعف التشديد عليها، يفتح الباب أمام الإيمان بتعدد الآلهة.

على أن وحدانية الله هذه أو وحدته، بحسب كلمة الله المقدسة واعتراف الكنيسة، ليست وحدانية بلا مضمون، ولا توحداً خاوياً، بل هي كمال حياة وقوة. وهذه الوحدانية تنطوي على تمايز أو تنوع أو اختلاف. هذا التنوع معبر عنه بالأقانيم الثلاثة، أو صور الكينونة الإلهية الثلاث. وهذه الأقانيم الثلاثة ليست مجرد صور ثلاث لإعلان الله عن نفسه بل هي صور كينونة. فكل من الآب والابن والروح يشترك في ذات الطبيعة الإلهية الواحدة والخصائص الإلهية عينها. ذلك أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الثلاثة كائن واحد. غير أن لكل اسمه الخاص، له الأبوة، والابن وحده له البنوة، والروح وحده له صفة الانبثاق من كليهما.

ودور كل من الأقانيم الثلاثة في جميع الأعمال الإلهية يتوافق مع خاصية وجوده في الكائن الإلهي. فالآب هو الذي منه كل الأشياء، والابن هو الذي به كل الأشياء، والروح هو الذي فيه كل الأشياء. وجميع الأشياء في الخلق، وفي الفداء أو التجديد، تأتي من الآب بالابن بواسطة الروح، كما أنها تعود إلى الآب في الروح وبالابن. فبالتخصيص إذاً نحن مدينون للآب من أجل محبته المختارة، وللابن من أجل نعمته الفادية، وللروح أجل قوته المجددة المحيية.

وفي المقام الثاني، تقف الكنيسة في الحفاظ على هذا الاعتراف موقفاً صلباً في وجه بدع التأليه الطبيعي ووحدة الوجود وتعدد الآلهة والتهويدية والوثنية. ففي القلب البشري دائماً هذا الميل المزدوج: الميل إلى التفكير في الله كما لو كان بعيداً ونائياً جداً واعتبار الذات والعالم مستقلين عنه، والميل إلى إحدار الله إلى قلب العالم واعتباره هو والعالم شيئاً واحداً ومن ثم إلى تأليه الذات والعالم. وحينما تستظهر النزعة الأولى فينا نصل إلى حد الظن بأننا نستطيع التصرف بمعزل عن الله في الطبيعة، وفي دعوتنا ومهنتنا، وفي علمنا وفنّنا، وأيضاً في عمل الفداء. وإذا استظهرت فينا النزعة الثانية، نستبدل بمجد الله صورة مخلوق ما، ونؤله العالم، أو الشمس والقمر والنجوم، أو الفن أو العلم أو الدولة، ونعبد في المخلوق عظمتنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الذاتية في صورة نتوهمها لنا في العادة. وهكذا يكون الله في الحالة الأولى بعيداً جداً وحسب، كما يكون في الثانية قريباً جداً وحسب.ويكون في الأولى خارج العالم وفوقه ولا علاقة له به، كما يكون في الثانية داخل العالم بل مشاكلاً له.

غير أن الكنيسة تعترف بكلا الأمرين: أن الله فوق العالم ومتميز عنه في الجوهر، ومع ذلك فهو حاضر فيه بكل كيانه وليس منفصلاً عنه عند أية نقطة في الزمان أو المكان. فهو بعيد عنه جداً وقريب منه في آن واحد. إنه متعال جداً على جميع الخلائق وفي الوقت نفسه متنازل إليهم جميعاً إلى أقصى حد. هو خالقنا الذي أتى بنا إلى الوجود بمشيئته تعالى كخلائق متميزين عنه نوعاً. وهو فادينا الذي يخلصنا، لا بأعمالنا بل بغنى نعمته. وهو مقدسنا الذي يسكن فينا، هيكلاً له. وبوصفه الله المثلث الأقانيم، فهو إله واحد، وهو فوقنا ومعنا وفينا.

أخيراً، وفي المقام الثالث، نجد أن اعتراف الكنيسة هذا بالغ الأهمية أيضاً لخير الحياة الروحية. فعلى نحو لا مسوغ له يؤكد أحياناً أن عقيدة التثليث ليست إلا معتقداً نظرياً مجرداً بصورة فلسفية وان لا قيمة له بالنسبة إلى الدين والحياة. غير أن إقرار الإيمان المعتمد عند الكنيسة المصلحة ينظر إلى هذا الأمر نظرة مغايرة كلياً. ففي البند الحادي عشر من ذلك الإقرار تصرح الكنيسة أن الله واحد في الجوهر وثلاثة في الأقانيم. وهذا نعرفه من شهادة الكتاب المقدس، ومن أعمال الأقانيم الثلاثة ولاسيما ما نشعر به في داخلنا. صحيح أننا لا نؤسس إيماننا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالثالوث على شعورنا واختبارنا، ولكن عندما نؤمن به نرى أن لهذه العقيدة علاقة وثيقة بالاختبار الروحي الذي يختبره أولاد الله جميعاً.

ذلك أن المؤمنين يعرفون أعمال الآب خالق كل شيء، والذي أعطاهم حياة ونفساً وكل شيء. وهم يتعلمون أن يعرفوه باعتباره معطي الشريعة الذي أعطى الإنسان وصاياه المقدسة كي يسير بموجبها. ويتعلمون أن يعرفوه باعتباره القاضي الذي يثير غضبه الرهيب جميع فجور الناس وإثمهم، والذي لا يمكن بحال من الأحوال أن يبرئ المذنب. وأخيراً يتعلمون أن يعرفوه باعتباره الآب الذي هو إلههم وأبوهم بفضل المسيح وإكراماً له، والذي يتكلمون عليه بحيث لا يشكون في أنه سيلبي لهم كل حاجات الجسد والنفس، وأنه سيحول إلى الخير كل سوء يحل بهم في وادي الدموع هذا. وإنهم لعالمون بأنه يقدر على فعل ذلك كله باعتباره الله القدير، وأنه يريد أن يفعله بوصفه الآب المحب. لهذا السبب يعترفون قائلين: أومن بالله الآب القدير خالق السماء والأرض.

وهكذا أيضاً يتعلمون أن يعرفوا أعمال الابن في نفوسهم، ذاك الوحيد عن الآب والذي حبل به في مريم بالروح القدس. ويتعلمون أن يعرفوه باعتباره نبيّهم العلى ومعلمهم الأسمى، ذاك الذي كشف لهم على نحو كامل مشورة الله الخفية ومشيئته الصالحة فيما يتعلق بأمر فدائهم. كما يتعلمون أن يعرفوه بوصفه رئيس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كهنتهم الوحيد الذي افتداهم بذبيحة جسده الواحدة، والذي ما زال يشفع فيهم دائماً عند الآب.

كذلك يتعلمون أن يعرفوه بوصفه ملكهم الأبدي الذي يملك عليهم بكلمته وروحه والذي يحميهم ويحفظهم في فدائه الكامل لهم. لهذا السبب يعترفون قائلين: أومن بيسوع المسيح ربنا، ابن الله الوحيد.

وكذلك أيضاً يتعلمون أن يميزوا في أنفسهم أعمال الروح القدس، ذاك الذي يجددهم ويقودهم إلى كل الحق. ويتعلمون أن يعرفوه بوصفه محرك إيمانهم، ذاك الذي بواسطة ذلك الإيمان يجعلهم يشتركون في المسيح وفي جميع البركات المرتبطة به. كما يتعلمون أن يعرفوه باعتباره المعزي، الذي يصلي فيهم بأنات لا ينطق بها والذي يشهد مع أرواحهم (أو لها) بأنهم أولاد الله. كذلك يتعلمون أن يعرفوه باعتباره عربون ميراثهم الأبدي. ذاك الذي يحفظهم إلى يوم الفداء الحاسم. لهذا السبب يعترفون قائلين: أؤمن بالروح القدس.

إذاً فالاعتراف بالثالوث القدس هو خلاصة الديانة المسيحية، وبمعزل عن هذه العقيدة لا يمكن إثبات الحقائق المختصة بالخلق وبالفداء وبالتقديس إثباتاً قاطعاً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومن شأن كل انحراف عن هذا الاعتراف أن يفضي إلى الضلال في عناوين العقيدة الأخرى، كما أن التمثل المغلوط فيه لحقائق الإيمان المسيحي يمكن أن يعزي أساساً إلى سوء فهم لعقيدة التثليث. فنحن لا نستطيع حقاً أن نذيع أعمـــال الله المقتدرة إلا متى ميزناها واعترفنا بها باعتبارها المأثرة الواحدة الرائعة التي أنجزهـــا الآب والابن والروح القدس.

أجل، إن خلاص البشر الكامل كامن في محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثالث

الخلق والعناية

إن المغزى العملي الذي تنطوي عليه عقيدة التثليث بالنسبة إلى حياة المسيحي لهو دليل كاف على أن الروح القدس لا يريد إعطاءنا مفهوماً تجريدياً عن اللاهوت، بل يريد بالأحرى أن يجعل لكل منا علاقة شخصية بالإله الحي الحقيقي. فالكلمة المقدسة تقوّض نظرياتنا ومفاهيمنا وتعود بنا إلى الله نفسه. لذا لا يجادل الكتاب المقدس بخصوص الله، بل يقدمه إلينا ويظهره لنا في جميع أعمال يديه. فكأن الكتاب يقول: ارفع عينيك وانظر من صنع هذه الأشياء كلها. فمنذ البداءة وما لا يرى من أمور الله، أي قدرته السرمدية ولاهوته، ظاهر للعيان، إذ تدركه العقول من خلال المصنوعات، أي الأشياء التي خلقها تعالى. ونحن لا نتعلم أن نعرف الله ونمجده بمعزل عن أعماله، بل بالأحرى من خلال أعماله في الطبيعة وفي النعمة.

ولهذا السبب تدلنا الكلمة المقدسة دائماً على أعمال الله المقتدرة. والكتاب المقدس، وصف لهذه الأعمال وأنشودة حمد تشيد بها. فلأنه يريد تعريفنا بالإله الحي الحقيقي، يكاد يتحدث في كل صفحة من صفحاته عن أعمال قدرته العظيمة. وباعتباره الله الحي، فهو في الوقت نفسه الله الفعال. فهو لا يمكن إلا أن يعمل، وهو يعمل دائماً (يوحنا 5: 17). فالواقع أن كل حياة، ولاسيما حياة الله

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

السرمدية المباركة كلياً، هي قوة وطاقة ونشاط. ومثلما يكون الصانع كذلك يكون عمله أيضاً. فلأن الله هو صانع كل الأشياء أو خالقها، فأعماله عظيمة وعجيبة (مزمور 92: 5، 139: 14). وكلها أمانة وحق (مز 33: 4، 111: 7)، وهي بارة ورحيمة (مز 145: 17، دانيال 9: 14). ومن المؤكد أن هذه الأعمال تشتمل على خلق كل الأشياء والحفاظ عليها، وعلى السماوات والأرض، والبشر وجماهير الأمم، والعجائب المصنوعة في اسرائيل ولأجلها، والأعمال التي ينجزها على يد فتاه[1] وجميع هذه الأعمال تسبح الله (مزمور 145: 10). إنه هو الصخر الكامل صنيعه (تثنية 32: 4).

ثم أن جميع أعمال الله تلك لا تبرز إلى الوجود بلا مبالاة ولا بإكراه، بل عمداً واختياراً. وكثيراً ما يتضح لنا حتى من حقيقة كونه، هو الذي يصنع ويدعم ويدير كل شيء بكلمته. فبالكلمة، أي بالأمر، يستدعي الأشياء من العدم إلى الوجود (مزمور 33: 9). وبغير الكلمة الذي كان في البدء عند الله، وكان هو الله، لم يكون أي شيء من كل ما تكون (يوحنا 1: 3). وفي (أيوب 28: 20 وما يلي)، و أمثال (8: 22 وما يلي)، يقدم الحق بصورة تبين كأن الله، عند خلق العالم، استشار الحكمة أولاً متأملاً فيها ومنعماً النظر، وصانعاً كل شيء بها (مز 104: 24، إرميا 10: 12). كذلك أيضاً يعبر الكتاب المقدس عن هذا الأمر

---

(35) تك 2: 2، 3، خر 34: 10، أي 34: 19، إش 19: 25، يو 9: 4 وغيرها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بطريقة مختلفة، فيقول إن الله يوجد كل شيء بحسب مشيئته أو مشورته. بعبارة أخرى، إن جميع أعمال الله، سواء تلك المتعلقة بالخلق أو تلك المختصة بالفداء، ليست مجرد حصيلة فكره بل أيضاً حصيلة مشيئته. وإذا تكلمنا بصورة بشرية، فإننا نستطيع أن نقول إن كل عمل من أعمال الله سبقه قصد الفكر وقرار الإرادة. والكلمة المستخدمة في بعض آيات الكتاب هي مشورة (أو رأي أو مؤامرة).[1] وفي بعضها قضاء أو مقرر (بمعنى "مرسوم")،[2] وفي بعضها قصد،[3] وفي بعضها تعيين.[4] وفي بعضها مسرّة الله (أو رضوانه أو قبوله، الخ.....).[5] ويتكلم الرسول بولس عن مسرة الله ورأي مشيئته (أفسس 1: 5، 11).

وعن مشورة الله تلك (أو رأيه) يبين الكتاب المقدس أيضاً أنها عظيمة وعجيبة (إشعياء 28: 29، إرميا 32: 19)، ومستقلة (متى 11: 26)، وغير متغيرة (عبرانيين 6: 17)، وغير منقوضة (إشعياء 46: 10)، وأن الله يهيمن على كل شيء، بما في ذلك أيضاً التعدي والإثم الذي ارتكب في تسليم المسيح إلى الصليب والموت (أعمال 2: 23، 4، 28). وحقيقة كون الأشياء والأحداث، بما

---

(36) مز 33: 11، أم 19: 21، إش 46: 10، أع 2: 23.

(37) تك 41: 32، مز 2: 7، إش 10: 23، 14: 27.

(38) إر 51: 12، رو 8: 28، 9: 11، أف 1: 11، 3: 11، 2 تي 1: 9.

(39) أع 10: 42، 13: 48، 17: 31، رو 8: 29، 30، أف 1: 5، 11.

(40) إش 49: 8، 53: 10، 60: 10 ، 61: 2، مت 11: 26، أف 1: 5، 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فيها أفكار الناس الخاطئة وأعمالهم الشريرة، معروفة منذ الأزل وثابتة في مشورة الله تلك، هذه الحقيقة لا تنزع عن الأشياء والأحداث صفتها الخاصة، بل بالأحرى تثبتها عليها وتوكدها، كل بحسب نوعه وطبيعته وفي سياقه وظروفه. وضمن مشورة الله تلك، الخطية والقصاص، ولكن أيضاً الحرية والمسؤولية، والشعور بالواجب والضمير، والشريعة والعدالة. وكل ما يحدث أمامنا هو في سياق تلك المشورة الإلهية. فالأحوال فيها محددة تماماً كالعواقب، والوسائل كالغايات، والطرق كالنتائج، والصلوات كاستجابات الصلاة، والإيمان كالتبرير والتقديس والتمجيد. وبمقتضى بنود تلك المشورة بذل الله ابنه الوحيد لكي تكون الحياة الأبدية لكل من يؤمن به.

وهكذا يصير لنا في الاعتراف بمشورة الله الكلية الحكمة دائماً مصدر تعزية وافرة. إذا ما فهمنا هذه المشورة على هذا النحو، بحسبما تعنيه الكلمة المقدسة وبموجب الروح القدس. بذلك يتأكد لنا أن ما يتحكم في البشر والعالم ليس مجرد صدفة عمياء، ولا مصيراً مظلماً، ولا مشيئة غير عاقلة أو خبيثة، ولا أية قوة طبيعية قاهرة لا ترد، بل بالأحرى أن زمام السيطرة على كل شيء هو في يد إله وأب رحيم. وبالتأكيد فإن الإيمان لازم لفهم هذا، غذ غالباً ما نخفق في إدراكه ويسير الناس في سبلهم على غير هدى. لكنما الإيمان هو ما يبقينا ثابتين في كفاح الحياة، وبفضله نتقدم إلى المستقبل برجاء وثقة، إذ إن مشورة الله الحكيمة تقوم وتبقى فعالة إلى الأبد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقد كان خلق العالم نقطة البدء في تنفيذ مشورة الرب هذه. وكما أن معرفة مشورة الله لا تأتينا إلا من خلال الكتاب المقدس وحده، فهذا الكتاب وحده يبين لنا أيضاً أصل كل شيء، إذ يطلعنا على قدرة الله الكلية الخلاقة. والمسألة المتعلقة بأصل كل شيء، الإنسان والحيوان والنبات، والعالم كله، هي مسألة قديمة، إلا أنها تبقى دائماً هامة. فالعلم لا يستطيع أن يعطينا جواباً عنها، إذ إن العلم في حد ذاته مخلوق، ونتاج زمن، وهو يتخذ مكانته على أساس الأشياء كما هي مصنوعة، مفترضاً وجود الأمور التي يبحثها. فبطبيعة الحال إذاً، لا يستطيع العلم أن يرجع إلى الزمن الذي فيه كانت الأشياء غير موجودة. إنه لا يقوى على اختراق اللحظة التي فيها جعلت الموجودات حقيقة واقعة.

وعليه، فإن الاختبار، أو البحث التجريبي، لا يستطيع أن يفيدنا شيئاً في ما يتعلق بأصل الأشياء. ولكن تفكير الفلسفة أيضاً كان على مدى العصور منصباً على السعي عبثاً، إلى تفسير لنشوء العالم. ولما كان الفكر يعيي الفلاسفة فغالباً ما نجدهم قد استراحوا بعد طول عناء على الزعم بأن العالم ليس له أصل وانه موجود أزلاً وسيظل موجوداً. استنتاج توصل إليه فلاسفة مختلفون بطرائق شتى. قليلون منهم نسبياً ذهبوا إلى أن هذا العالم كما نعرفه هو أزلي أو أنه سيبقى على حاله أبداً. وقليلون اعتقدوا هذا فعلاً، إلا أن تفسيراتهم تواجه صعوبات عديدة جداً، بحيث إنها مرفوضة اليوم على العموم. وبدلاً من هذا، حصلت فكرة النشوء أو التطور دعماً واسعاً. وبموجب هذا الفكرة، لا شيء كائن بل كل شيء صائر. فما ينم عنه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الكون كله إذاً هو مشهد شيء ما لم تكن له بداية ولن تكون له نهاية، وبالتالي فهو عملية مستمرة دائماً.

ولا شك أن التطور شيء عجيب، ولكنه يجب أن يفترض دائماً وجود شيء يتطور حاملاً في ذاته جرثومة التطور. وبطبيعة الحال، ليس التطور قوة خلاقة، ولا يمكن أن يكون قوة بهذه الصفة تسبب وجود الأشياء وتوجدها، بل إنه– على أفضل ما يكون– تعبير عن العملية التي تمر بها الأشياء بعد أن توجد مرة. وعليه، فإن نظرية التطور تفتقر إلى إمكان تفسير أصل الموجودات. فهي تنطلق بصمت من الفكرة القائلة بأن الموجودات موجودة أزلاً في حالتها غير المكتملة التطور. وهكذا تبدأ نظرية التطور بافتراض لا يمكن البرهنة عليه، وبالتالي فهي تحتاج إلى إيمان تؤسس عليه. وفي هذا تتساوى نظرية التطور مع اعتقاد خلق كل شيء بيد الله.

على أن الانطلاق من هذا الافتراض لا يزكي نظرية التطور. وفي وسع النظرية أن تؤكد أن الأشياء تواجدت دائماً في حالة عدم اكتمال، إلا أنها مع ذلك يجب أن توفر لذاتها رواية ما عن الحالة الأصلية التي عليها وجدت الأشياء والتي منها كون العالم الحاضر نفسه. وهناك حلان لهذه المسألة، يتوقفان مع ما يفضله المرء من نمطي تفكير اثنين. فنحن نلاحظ في العالم عموماً نوعين من الظواهر أو الاستعلانات، وغالباً ما ندعوهما الروح والمادة، أو النفس والجسد، أو الأمور غير المنظورة والأمور المنظورة، أو الظواهر الفائقة للطبيعة والظواهر الطبيعية. غير أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مثل هذه الثنائية لا تكفي. فاليوم يريد الناس أن يكونوا واحديين، ويحاولون أن يجعلوا كل شيء منطلقاً من مبدأ واحد. وعليه، فإن منظّري التطور يستطيعون أن يسيروا في واحد من اتجاهين عند النظر في حالة الأشياء الأصلية.

ففي المقام الأول، يستطيعون أن يقولوا إن المادة كانت أصلية أو أزلية، ودائماً ما تكون الطاقة كامنة فيها كمحرك. ذلك هو اتجاه المادية، وهو يرى أن المادة أزلية باعتبارها العنصر الأصلي المتغير المكون للعالم، ويسعى الآن إلى تفسير الطاقة بلغة المادة، والنفس بلغة الجسد، وما هو فائق للطبيعة بلغة الطبيعة.

ولكن في وسع المرء أيضاً، وفي المقام الثاني، أن يقف الموقف المعاكس، فيقول إن الطاقة كانت الشيء الأولي، وإنها كانت وما تزال أساس جميع الأشياء الموجودة، وإن المادة هي تعبير أو مظهر لهذه الطاقة، وإن الجسد لا يخلق الروح بل الروح يخلق الجسد. هذا هو اتجاه وحدة الوجود (وتعدد الآلهة). فعند من يعتقدون ذلك تكون الطاقة هي المبدأ الأساسي الأزلي لكل شيء، وهم يحاولون أن يؤكدوا صدور العالم الحاضر عن الطاقة الأولية. ويضفي من يعتقدون بوحدة الوجود على هذه الطاقة الأصلية، التي يظنون أنها منتشرة في جميع أنحاء العالم، الوجود على هذه، يضيفون جميع أصناف الأسماء الجميلة والمتألقة، سواء سمّوها الروح أو العقل أو النفس أو غير ذلك. غير أن أتباع وحدة الوجود يستخدمون هذه الأسماء وهم يعنون بها غير ما تدل عليه عادة. فهم لا يفكرون في إله شخصي ذي عقل وحكمة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وفهم إرادة، بل بالأحرى في قوة غير واعية ولا عاقلة ولا مريدة، قوة تتحول إلى وعي وعقل وإرادة في الإنسان إبان اجتيازها مراحل عملية التطور. فليست الطاقة الأزلية في حد ذاتها هي الروح، بل إنها تدعى الروح لأنها يمكن أن تصير روحاً في أثناء تطورها.

وفي كلتا هاتين الفكرتين المحتملتين، أي المختصين بالمادية ووحدة الوجود، يفترض وجود مبدأ عند بدء تطور العالم، مبدأ تعتبره إحدى الفكـــرتين مـــادة في الأساس فيما تعتبره الأخرى روحاً في الأساس، ولكن لا يمكن تكوين فكرة واضحة بشأنه. وهو شيء إلى السلبية أقرب منه إلى المادية، إذ إنه في الواقع لـــيس شـــيئاً محدداً، بل إن فيه وحسب إمكان الصيرورة إلى أي شيء. فهو كمونيـــة مطلقـــة (احتمالية لا محدودة) على صورة تجريد تأليهي للفكر. وهو في أساسه تصور شيء يضع فيه الإنسان العلمي – بمعزل عن الله الواحد الحقيقي – ثقته لتفسير العـــالم، لكنه لا يستحق مثل هذه الثقة أكثر مما تستحقها آلهة الأمم.

على أن الكتاب المقدس يقف موقفاً مغايراً لهذا كلّه. فما يفيدنا به عـــن أصل الأشياء لا يُقدَّم لنا كنتيجةٍ للبحث العلمي ولا على شاكلة تفسيرٍ فلســـفي لنشوء العالم، بل هو معروضٌ أمامنا بصورةٍ تهدف إلى الوصول بنا، بواسطته، إلى حيث نتعرّف على الإله الواحد الحق ونضع فيه وحده كامل ثقتنا. إنه تفســـير لا يصدر عن البشر بل عن الله. وهو يرى أن الله – لا العالم – هو الأزلي. فمن قبل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن تولد الجبال أو تُبدَأ الأرض والمسكونة، منذ الأزل وإلى الأبد هو الله (مزمور 90: 2). إنه يهوه، الذي كان ويكون وسيكون، والذي يقصر عنه كلُّ كلام لكونه ملءَ الكينونة العديمة التغُّير. هو الكائن، أما العالم، على نقيضه، فهو متحول ودائم التحول والتغير. والشيء الذي يحرص الكتاب المقدس عليه كل الحرص هو ضرورةُ عدم الخلط بين الله وخليقته. فكما تستأصل كلمة الله المقدسة كل عدم إيمان، فهي تستأصل أيضاً كل إيمان زائف وخُرافة. فإنَّ الله والعالم متميِّزان أحدهما عن الآخر جوهرياً. وأصل التمايز أن الله خالق والعالم مخلوق.

ولما كان العالم كلُّه مخلوقاً، فإن مصدره هو الله. فليس ثمة ما يُمكن أن يسمى مادة أزلية أو روحاً أزلياً متواجداً إلى جنب الله. فهو تعالى دعا إلى الوجود السماءَ والأرض وكلَّ شيء. تلك هي قوة الكلمة "خلق" في الكتاب المقدس. ففيما يستعمل الكتاب هذه الكلمة، بمعنى عام جداً، للدلالة على أعمال الإصلاح أو التسوية (مزمور 104: 30، إشعياء 45: 7)، فهو يستعملها بالمعنى الحصري ليدلَّ بها على أن الله أوجد كلَّ شيء من لا شيء. وبالحقيقة فإن التعبير الذي يُفيد أن الله قد صنع كل شيء من لا شيء هو تعبير لا يوجد بحرفيته في الكتاب المقدس. (أول ظهورٍ لمثل هذا التعبير نجده في سفر المكابيين الثاني 7: 28). ثم إن التعبير "من لا شيء" قد يُفضي إلى سوء فهم. فما هو لا شيء إنما هو أمرٌ غير موجود، ولذلك لا يُمكن أن يكون المبدأ أو المصدر الذي منه تبرز الأشياء. ومهما يكن، فلا شيء يمكن أن يخرج من لا شيء. فإن الكتاب، على نقيض هذا، يقول إن العالم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

دعي إلى الوجود بإرادة الله (رؤيا 4: 11) وإن الأشياء المنظورة لم تتكون مما هو ظاهر (عبرانيين 11: 3). ومع ذلك، فإن التعبير "من لا شيء" يُمكن أن يؤخذ بمعنىً ويؤدي خدمةً عظمى في مواجهة البِدَع بمختلف أنواعها. ذلك أن في هذا التعبير إنكاراً لما يذهب إليه قومٌ من أن العالم قد صُنع من خامة أو مادةٍ ما تواجدت مع الله منذ الأزل. وبحسب الكلمة المقدسة إن الله ليس فقط مكوِّن العالم بل هو خالقه أيضاً. فإذا تكلَّمنا بمنطق البشر، نقول إن الله كان موجوداً وحده أولاً، بعد ذلك أُبرِز العالم كلُّه إلى الوجود، بمشورة الله ومشيئته. فبالنسبة إلى العالم، فإن اللاوجود المُطلقُ سبق الوجودَ، وإلى هذا الحد يمكننا أن نقول بحقٍّ إن الله صنع العالم من لا شيء.

هذا هو، بكل يقين، تعليمُ الكلمة المقدسة الصريح: إن الله موجودٌ منذ الأزل (مزمور 90: 2) ولكن العالم له بداءة (تكوين 1: 1). ومراراً عديدة نقرأ عن الله أنه فعل أمراً أو آخر– كالاختيار مثلاً أو المحبة – قبل تأسيس العالم (يوحنا 17: 24، أفسس 1: 4). إنه تعالى كليُّ القدرة بحيث يكفي أن يفوه بكلمة فتتكَون الأشياء (مز 33: 9) وأن يدعو الأشياء غير الموجودة حتى تصير موجودة (رومية 4: 17). وهو يُعطي العالم وجوده وديمومته بإرادته تعالى فقط. هو صنع كل شيء، السماوات والأرض وكل ما فيها (خروج 20: 11، نحميا 9: 6). ومنه وبه وله كلُّ الأشياء (رومية 11: 36). ومن هنا هو أيضاً مالكُ السماوات والأرض الكليُّ القدرة (تكوين 14: 19، 22)، والذي يفعل كل ما يسره، وليس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لقدرته حدٌّ معين، وعليه – بمعنى مطلق – اعتمادُ الخلائق كلها (مزمور 115: 3، دانيال 4: 35). فالكتاب المقدس بريء من أي زعم بوجود مادة أزلية غير مكوَّنة إلى جانب الله. والله تعالى هو العلة المطلقة والوحيدة لكلِّ ما هو كائن ولكلِّ ما يحدث. فالأشياء التي تُرى لم تتكون من أمور ظاهرة، بل إن العالم بكامله قد أُتقِن بكلمة الله (عبرانيين 11: 3).

****

وإذا كان الله، الكائنُ الأزلي المبارك كُليَّاً، قد خلق العالم بإرادته، فمن الطبيعي أن يبرز السؤال: لأي سبب ولأية غاية فعل الله ذلك؟ وفي سبيل الاهتداء إلى جوابٍ لهذا السؤال. طالما حاول العلم والفلسفة دائماً أن يجعلا العالم ضرورةً واجبة، وبذلك يستخلصون وجوده من كينونة الله. وهنا أيضاً يبرز احتمالان. فبعضهم عرضوا المسألة كما لو أن الله كان ممتلئاً وغنياً جداً بحيث لم يستطع ضبط الوضع، وأنه كان يفتقر إلى السيطرة على كيانه الخاص، وبالتالي فاض العالم عنه كما يفيض الجدول من منبعه أو كما يفيض الماء إلى خارج وعاءٍ فائض. وآخرون وقفوا الموقف المعاكس تماماً إذ رأوا أن الله كان في ذاته ضعيفاً وفارغاً تستبد به إرادة جائعة جامحة، وأنه، تبعاً لذلك، أوجد العالم لكي يملأ ذاته ويوفِّر ما يلبي حاجته. وبحسب كلتا وجهتي النظر هاتين، كان العالم ضرورةً بالنسبة إلى الله، سواء كان لإراحته من فيضه أو لتلبية حاجته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وكلا هذين الفرضين لا تقرهما الكلمة المقدسة. فالكتاب المقدس يقف موقفاً مختلفاً على خطٍّ مستقيم. إذ أن مركز الجاذبية في كلا الموقفين يتحول من الله إلى العالم حيث يصير الله موجوداً لأجل العالم. فالله هو الكائن الأدنى هنا، والعالم هو الأعلى لأنه يفتدي الله وينقذه من تعاسته لسبب الفيض أو عدم الاكتفاء. ومع أنه مازال لهذه الفكرة مؤيدوها بين المفكرين المشهورين في أيامنا، فهي رغم ذلك تعتبر فكرة تجديفية. ذلك أن الكتاب المقدس، وهو كلمة الله التي تقف إلى جانبه تعالى من بدايتها إلى نهايتها، تُعلن جهراً، بقوةٍ وصراحة. أن الله ليس موجوداً لأجل العالم بل أن العالم كله بجميع خلائقه موجودٌ لأجل الله، لأجل اسمه ولأجل مجده.

يقيناً، إن الله هو في ذاته الكلي الكفاية، والكلي الهناءة. فهو لا يحتاج إلى العالم ولا إلى أي مخلوق، بأية طريقة كانت، كي يكتمل. أفي وسع إنسانٍ ما أن ينفع الله؟ وهل من مسرة للقدير إذا تبررت، أو من فائدة إذا قوّمت طرقك؟ (أيوب 22: 2 و 3). فليس في بر الإنسان نفعٌ لله، ولا في إثم الإنسان إفقارٌ له تعالى. وهو لا يُخدَم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء، إذ هو يُعطي الجميع حياةً ونفسَاً وكل شيء (أعمال 17: 25). من هنا تشدد الكلمة المقدسة بكل قوة على حقيقة كون الله قد أوجد كل شيء بفعل إرادته. فلم يكن في كينونة الله أية قوة قاهرة أو ضرورة واجبة دفعته إلى إيجاد العالم. فإنما الخلْق بمجمله فعلُ إرادة حرة من قبل الله. ولا يُمكن تفسير الخلق باعتباره الحصيلة الحتمية لبر الله، مع أن برَّ الله أيضاً ظاهرٌ فيه، إذ كيف يُعقَّل أن يكون الله مَديناً بأي شيء؟ كما لا يُمكن أيضاً أن تكون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخليقة حصيلةً تلقائية لصلاح الله أو محبته، مع إن كِلا هذين أيضاً ظاهرٌ في العالم، إذ إن حياة المحبة في الله المثلث الأقانيم لم تكن بحاجةٍ إلى أي غرضٍ خارجَ ذات الله تتجه إليه المحبة. فبالحقيقة إن علة الخلق الواحدة الوحيدة هي قدرة الله الحرة ومسرته الأزلية الصالحة وسيادته المطلقة (رؤ 4: 11).

لسنا نعني بهذا طبعاً أن خلق العالم كان عملاً غير عقلاني أو أمراً تم فعله كيفما اتفق. ففي هذا المر، كما في كثيرٍ سواه، ينبغي لنا أن نستريح في رحاب سيادة الله المطلقة ومسرته الصالحة كَحسمٍ لكل تناقض، وبهذا نحن معتصمون بثقةٍ وادعة وطاعةٍ طفولية. إلا أن الله، مع ذلك، كانت لديه أسبابه الحكيمةُ والمقدسة الداعيةُ إلى فِعل الخلق.

هذه الحقيقة تبرهنها لنا الكلمة المقدسة، في المقام الأول، بعرضها للخلق بوصفه عملاً قام به الله المثلث الأقانيم. فعند خَلْق الله للإنسان، يُجري أولاً مشاورة ذاتية فيقول: نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا(تكوين 1: 26). وهكذا أعمال الله كلُّها تستقرُّ على قصدٍ إلهي فقبل الخلق شاور الحكمة(أيوب 28: 20 وما يلي؛أمثال 8:22 وما يلي). وفي الوقت المناسب خلق كل شيء بالكلمة الذي كان مع الله منذ الأزل والذي كان هو الله(يوحنا 1: 1–3)،[1] وقد خلق الأشياء كلَّها بالروح الذي يفحص أعماق الله ويُحيي خلائقه،

---

(41) راجع أيضاً أف 3: 9؛ كو 1: 16؛ عب 1: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وينشر السماوات.[1] لذا يهتف ناظم المزمور: ما أعظم أعمالك يا رب! كلَّها بحكمة صنعت: ملآنةٌ الأرض من غناك (مز 104: 24). أضف إلى هذا أن الكلمة المقدسة تعلِّمنا أن الله قد خلق كل شيء وأنه يعتني بخليقته كلِّها ويدبر أمورها لأجل مجده تعالى. فالغرض الذي لأجله تم الخلق لا يمكن في الخليقة ذاتها، ما دام إرساء الغرض يسبق اتخاذ الوسائل. لذا يعلِّم الكتاب المقدس عموماً أنه مثلما كلُّ شيء هو من الله فكلُّ شيء أيضاً هو به وله (رومية 11: 36). وتُفيض الكلمة الإلهية في هذه الناحية خصوصاً حين تُفيدنا أن السماوات تحدِّث بمجد الله (مزمور 19: 1)، وأن الله تمجَّد بسبب فرعون (خروج 14: 7) وفي الرجل المولود أعمى (يوحنا 9: 3)، وأنه يهب جميع بركات نعمته لأجل اسمه (إشعياء 43: 25، أفسس 1: 6)، وأن المسيح قد جاء ليمجِّد الآب (يوحنا 17: 4)، وأنه ذات يومٍ ستنحني كل ركبة ويعترف كل لسان بمجد الله (فيلبي 2: 10). فمسرة الله الصالحة هي أن يُظهر في خلائقه سجايا كينونته الثالوثية الفاضلة، وبذلك يُعدُّ تمجيداً وإكراماً لذاته في تلك الخلائق، وفي سبيل هذا التمجيد أيضاً، لا يحتاج الله إلى العالم؛ إذ ليس المخلوق هو من يُمجدِّ الله على نحو مستقلٍّ وذاتي الكفاءة، بل بالأحرى إن الله نفسه هو مَن يمجد اسمه ويبتهج بذاته بواسطة المخلوق أو دونه. ولذلك لا يَنشد الله المخلوق البتة كي يجد فيه شيئاً هو تعالى بحاجةٍ إليه. كلا، فإن العالم كلَّه بطوله وعرضه ليس بالنسبة إلى الله إلا عبارة عن مرآة يرى فيها عرضاً

---

(42) أي 26: 13؛ 33: 4؛ 1 كو 2: 10.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لسجاياه الفائقة. فهو يبقى دائماً مستقراً في ذاته بوصفه الخير الأسمى، ويبقى إلى الأبد مباركاً بصفة المُبارَكيَّة الخاصة الكائنة فيه.

****

لا يقتصر الكتاب المقدس على إفادتنا أن الله خلق العالم من العدم، بل يفيدنا أيضاً بعض الشيء عن الطريقة التي بها تمَّ الخلق.

يبدأ ذلك بإطلاعنا على أنه في البدء خلق الله السماوات والأرض (تكوين 1: 1). وهذا البدء يشير إلى النقطة التي فيها ابتدأ وجود الأشياء التي صُنعت. أما الله نفسه فلا بداءة له ولا يمكن أن تكون له بداءة، ولا للكلمة الذي كان مع الله وكان هو الله، لأنه هو أيضاً كائن منذ الأزل. إنما يدلُّنا هذا البدء على اللحظة التي فيها برزت الأشياء المخلوقة إلى الوجود. حتى الزمان والمكان أيضاً كان لهما بدؤهما حينذاك. صحيح أنهما ليسا مخلوقَين مستقلَّين دعاهما الله إلى الوجود بفعل خلْقٍ مخصوص منه تعالى. فلا نقرأ شيئاً من هذا القبيل في خبر الخلْق. إلا أن الزمان والمكان شكلان من الوجود لا غنى عنهما للأشياء المخلوقة. إنما الله وحده سرمدي وكلي الحضور. أما الخلائق، لأنها مخلوقة، فخاضعة للزمان والمكان، وإن كان على تفاوت. فالزمان يُمكِّن الشيء من أن يستمر موجوداً في لحظات متعاقبة، كما يُمكِّن الشيء الواحد من أن يكون بعد الآخر. أما المكان فيمكن الشيء من أن ينتشر في جميع الأنحاء، كما يمكن الشيء الواحد من أن يوجد تالياً للآخر. إذاً ابتدأ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وجود الزمان والمكان في الوقت عينه الذي فيه ابتدأ وجود الخلائق، وكإطارين للوجود لا بدَّ منهما. وهما لم يوجدا مقدَّماً كشكلين فارغين في انتظار أن تملأهما المخلوقات، لأنه حيث لا يوجد شيء لا يكون أيضاً زمان ولا مكان. إنهما لم يُصنعا مستقلين، جنباً إلى جنب مع الخلائق، كمتممين لها – إذا جاز التعبير – زِيْدا عليها من الخارج. بل بالأحرى خُلِقا ضمن الخليقة ومعها كإطارين يجب بالضرورة أن توجد فيهما المخلوقات لكونها محدودةً ومتناهية. وقد كان أغسطينوس على حقٍّ لما قال إن الله لم يصنع العالم في الزمان، كما لو كان قد خُلق داخِلَ شكلٍ أو ظرف سابق الوجود، بل إنه تعالى صنع العالم مع الزمان والزمان مع العالم.

ثم إن الآية الأولى من سفر التكوين تفيدنا بأن الله في البدء خلق السماوات والأرض. وتقصد كلمة الله هنا بـ "السماوات والأرض" ما تقصده في سائر المواضع الأخرى (تكوين 2: 1، 4؛ خروج 20: 11، الخ..)، وبالتحديد: العالم كله، أو الكون بكامله، وقد قُسم منذ البدء – بمشيئة الله – إلى قسمين. هذان القسمان هما: الأرض بكل ما عليها وما فيها؛ والسماوات، وهي تشمل كل ما هو خارج الأرض وفوقها. بهذا المعنى المستخدم في الكتاب المقدس، ينتمي إلى السماوات الجلَدُ والهواء والسحاب (تكوين 1: 8، 20)، والكواكب التي تؤلف جند السماء (تثنية 4: 19؛ مزمور 8: 3)، وأيضاً السماء الثالثة، أو سماء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

السماوات التي هي مقام سكنى الله وملائكته.[1] وإذ تقول الآية الأولى من التكوين إن الله خلق السماوات والأرض في البدء، فعلينا – من جهة – ألا نفهم هذا القول وكأنه مجرد عنوان أو خلاصة لما يتبع، كما أن علينا أيضاً من جهة أخـــرى – ألا نفهمه وكأنه يعني أن عمل الله الموصوف في (تكوين 1: 1) استدعى إلى الوجود السماوات والأرض دُفعةً واحدة في حالتهن الكاملة.

أما التفسير الأول فتدحضه حقيقة ابتداء الآية الثانية بحرف العطف "و" : "وكانت الأرض خربة وخالية". وهذا يُفيد أن حقيقة ثانية أُضـــيفت في سلســـلة متعاقبة إلى الحقيقة المنصوص عليها في الآية الأولى. وأما التفسير الثاني فلا يمكـــن قبوله لأن السماء من حيث هي جلَد لا تبرز إلى الوجود قبل (تكوين 1: 8)، ولأن السماوات والأرض لم يُذكَر أنها "أكملت" قبل (تكوين 2: 1).

وفيما لا نستطيع أن نجزم في ما نقوله حول هذه النقطة بيقينية مطلقة، لنا أن نعتبره مرجحاً أن سماء السماوات، مقام سكنى الله، برزت إلى الوجود بعمل الله الخَلْقي الأول المشار إليه في تكوين 1: 1، وأن الملائكة أيضاً خُلقوا عندئذٍ. ففي (أيوب 38: 4 _ 7) يجيب الربُّ أيوبَ من العاصفة قائلاً إنه لم يكن أحدٌ مـــنَ البشر حاضراً حين أسس تعالى الأرض ووضع حجر زاويتها بل إنه هو أنجز هـــذا العمل مصحوباً بترنُّم كواكب الصبح معاً وهُتاف جميع بني الله فرحاً. وبنـــو الله

---

(43) 1 مل 8: 27؛ مز 2: 4؛ 115: 16؛ مت 6: 9 وغيرها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هؤلاء هم الملائكة. فالملائكة إذاً كانوا حاضرين عند إكمال الأرض وخلْق الإنسان.

وفيما سوى ذلك، قليل جداً ما يقال لنا عن خلْق سماء السماوات وملائكتها. فبعد أن يذكر سفر التكوين خبر ذلك بإيجاز في الآية الأولى منه، ينتقل في الآية الثانية إلى تفصيل الخبر في إكمال الأرض. وهذا الإكمال أو التسوية كان ضرورياً، لأنه وإن كانت الأرض قد سبق أن صُنعت، فقد ظلت رغم ذلك موجودةً فترةً في حالة خرابٍ وخَواء تغشّيها الظلمة، إننا لا نقرأ هنا أن الأرض صارت خربة، أي عديمة الشكل، وقد اعتقد بعضُهم ذلك، وإذ وقفوا هذا الموقف فكروا في حدوث دينونة في أعقاب سقوط الملائكة إلى الأرض المخلوقة كاملةً. غير أن (تكوين 1: 1) لا يعرفنا إلا أن الأرض كانت عديمة الشكل، أي أنها وُجِدت في حالة انعدام الشكل أو الصورة، لا فصل فيها بين نورٍ وظلمة، ولا بين مياهٍ ومياه أو يابسةٍ وبحار. وما وضع حداً لانعدام شكل الأرض ذاك إنما كان أعمال الله الموصوفة في (تكوين 1: 3 – 10). وهكذا أيضاً يُفاد أن الأرض الأصلية كانت خالية؛ إذ كان يعوزها أن تزدان بالنبات والشجر وتعمر بالأحياء. وقد وضعت أعمال الله الموجزة في (تكوين 1: 11). وما يلي، حداً لخلاء الأرض هذا، لأن الله لم يخلق الأرض لتكون خاوية، بل ليسكن فيها البشر (إش 45: 18). فواضحٌ إذاً أن أعمال الله في تسوية الأرض الخربة والخالية وإكمالِها تقسم إلى مجموعتين. أما المجموعة الأولى من الأعمال أو الأفعال فمستهلَّةٌ بخلْق النور، وهنا يبرز الفصل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والتمييز في ما يتعلق بالشكل والهيئة واللون ودرجاته. وأما المجموعة الثانية فمستهلة بتكوين النيران، الشمس والقمر والنجوم، ويستكملها إعمارُ الأرض بالأحياء من طير وسمك وحيوانٍ وإنسان.

وبحسب شهادة الكلمة المقدسة المتكررة،[1] تم عمل الخلْق كلُّه في ستة أيام. إلا أن قدراً كبيراً من الاختلاف في الرأي والاسترسال في الحزر والتخمين قام حول هذه الأيام الستة. فلا أحد غير أغسطينوس رأى أن الله خلق كل شيء كاملاً وتاماً في لحظة واحدة وان الأيام الستة لم تكن ست فترات زمنية متعاقبة، بل هي ست نقاط أفضلية منها يمكن النظر إلى رتبة الخلائق ونظامها. هذا من ناحية؛ ومن الناحية الأخرى يرى كثيرون أن أيام الخلْق يجب أن تُعتبر فترات زمنية أطول كثيراً من وحداتٍ ذات أربع وعشرين ساعة.

يتحدث الكتاب المقدس بالتحديد عن الأيام التي تُحسب بمعيار المساء والصباح، والتي على أساسها تم توزيع أيام الأسبوع في إسرائيل وحُدِّد تقويم أعيادها. بيد أن الكتاب ذاته يتضمن معطياتٍ تُلزمنا أن نعتبر أيام التكوين مختلفةً عن وحداتنا العادية الحاصلة من دوران الأرض.

---

(44) تك 1: 2؛ خر 20: 11؛ 31: 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فأولاً: لا نستطيع أن نتيقن من أن ما نقرأه في (تكوين 1: 1– 2) يسبق اليوم الأول أو أنه متضمن فيه. ومما يؤيد الفرض الأول أن اليوم الأول، بحسب الآية الخامسة، يبدأ بخلق النور، وانه بعد المساء والليل ينتهي في الصباح التالي. ولكن حتى لو حسب المرء الأحداث المذكورة في (تكوين 1: 1 و 2) متضمنة في اليوم الأول، فإن ما يحصل عليه من هذا الافتراض هو يوم غير اعتيادي، كان قوامه الظلام حيناً. أما مدة الظلام الذي سبق خلق النور فلا يُشار إليها في أي موضع.

وثانياً، يُرجح أن الأيام الثلاثة الأولى (تكوين 1: 3– 13) كانت بالضرورة غير شبيهة بأيامنا. فإن أيامنا ذات الأربع والعشرين ساعة تنتج عن دوران الأرض حول محورها وما يصاحب هذا الدوران من اختلاف نسبة التعرض للشمس. ولكن هذه الأيام الثلاثة الأولى لا يمكن أن تكون قد سارت بالطريقة نفسها. صحيح أن التمييز بينها قد تم بظهور النور واختفائه؛ غير أن سفر التكوين ذاته يفيدنا بأن الشمس والقمر والنجوم إنما تكونت في اليوم الرابع.

وثالثاً، من الممكن يقيناً أن السلسلة الثانية من الأيام الثلاثة حصلت بالطريقة المعتادة. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه قد حدث في الكون تغييرات متعددة من جراء سقوط الملائكة والإنسان ومن جراء الطوفان أيضاً، وإذا لاحظنا – فضلاً عن هذا – أن فترة التحول، في كل دائرة، تختلف اختلافاً بيّناً عن فترة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

النمو الطبيعي، فحينئذ يبدو محتملاً أن تكون السلسلة الثانية من الأيام الثلاثة قد اختلفت أيضاً عن أيامنا المعتادة من عدة نواحٍ.

وأخيراً، يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار أن كل ما حدث في اليوم السادس، بحسب (تكوين 1 و 2)، لا يكاد يمكن أن يُحصَر ضمن يوم ذي أربع وعشـــرين ساعة كأيامنا. فكلمة الله تفيدنا بأنه في ذلك اليوم خلقت الحيوانات (تك 1: 24 و 25)، وخُلق آدم (تك 1: 26؛ 2: 27)، وغُرِست الجنة (تك 2: 8 – 14)، وتم إصدار الوصية الاختبارية (تك 2: 16 و 17)، والإتيان بالحيوانات إلى آدم وتسميته إياها (تك 2: 18 – 20)، وسباتُ آدم وخلقُ حواء (تك 2: 21 – 23).

ومهما كان الأمر، تبقى الأيام الستة هي أسبوع الخلْق الذي خلاله صُنعت السماوات والأرض وكلُّ جُندِهن. وهذه الأيام تدلُّ على الترتيب الزمني الذي به ظهرت الخلائق إلى الوجود بعضُها في أعقاب بعض، ولكن هذه الأيام تتضمن في الوقت عينه إلماعاً إلى علاقة التراتب التي تقوم فيها الخلائق بعضها تجاه بعض. ولا قِبَل لأي بحث علمي بأن يدحض هذه العلاقة. فمن حيث المرتبة والدرجة ما هو بلا شك أدنى مما له شكل، وما هو غير عضوي أدنى مما هو عضوي، والنبات أدنى من الحيوان، والحيوان أدنى من الإنسان. والإنسان كاف ويبقى تاجَ الخليقة: فصُـــنع الأرض وإعدادها يؤول إليه وينصب عليه. من هنا أيضاً لا يُطلعنا الكتاب المقدس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا على القليل فيما يختص بخلق السماوات والملائكة، حاصراً الكـــلام في الأرض أساساً. فبالنسبة إلى علم الفلك، قد تُعَدُّ الأرض صغيرة وعديمة الشأن. ومن حيث كتلتها ووزنها، قد تفوقُها آلاف الكواكب والشموس والنجوم. ولكنها نسبةً إلى الدين والخلاق تبقى مركز الكون. فالأرض وحدها دون غيرها قد اختيرت لتكون مسكناً للإنسان؛ اختيرت لتكون ميدان جهاد فيه يجب أن تدور المعركة العظيمة ضد كل قوة شريرة؛ كما اختيرت لتؤدي دور المسرح الذي عليه يُقام ملكـــوت السماوات.

إن كل ما قد خُلق يُصنَّف في الكتاب المقدس تحت عنوان هو "السماوات والأرض وكل جندها" (تكوين 2: 1) أو تحت اسمٍ واحدٍ هو العـــالم أو الأرض، سواءٌ كان المقصود كرة الأرض الطبيعية (1 صموئيل 2: 8، أمثال 8: 31)، أو الأرض باعتبارها مسكناً للإنسان حيث تكون مأهولة، وتدعى مسكونة (متى 24: 14، لوقا 2: 1). وأحياناً تشير الكلمات المستعملة أصلاً إلى العالم مـــن حيـــث طبيعته المؤقتة المتغيرة الزائلة،[1] وعندئذٍ أيضاً تنحو تلك الكلمات منحى التشديد على العالم بوصفه توحيداً وإجمالاً للخلائق كلِّها منظوراً إليها بمجموعها (يوحنا 1: 10، أعمال 17: 24). ولهذين المعنيين الأخيرين على الخصوص مضمونٌ غـــني

(45) مز 49: 1 "الدنيا"؛ لو 1: 70؛ أف 1: 21.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بعبارةٍ أخرى، يستطيع الإنسان دائماً – إذا جاز التعبير – أن ينظر إلى العالم من وجهتي نظر: من حيث عرضه، ومن حيث طوله.

فمن الجهة الأولى يتبين أن العالم وحدةٌ متكاملة وكلٌّ متماسك إلا أنه رغم وحدته ينم عن تمايز غني لا يعتريه لبسٌ ولا غموض. حتى إن العالم، منذ البداية التي فيها خُلِق وكُوِّن، كان يشتمل على السماء والأرض، والأمور المنظورة وغير المنظورة، والملائكة والبشر، والنباتات والحيوانات، والمخلوقات الحية وغير الحية، ذات الروح وعديمة الروح. ثم إن جميع هذه الخلائق أيضاً متمايزة إلى ما لا نهاية. فبين الملائكة عروش وقوات، وسلاطين ورئاسات وبين البشر رجال ونساء، وآباء وأبناء، وحكام ومحكومون، وشعوب وأمم، وألسنة ولغات. كذلك أيضاً نجد أن النبات والحيوان، والمعادن بمعنى من المعاني، مقسمة بالطريقة عينها إلى فئاتٍ ومجموعات، وعشائر وفصائل، وأنواع وأصناف. وجميع هذه الخلائق، ضمن حدود معينة، لها طبيعتها الخاصة التي تحتفظ بها والتي أعطاها إياها الله عند الخلق (تكوين 1: 11، 21 وما يلي)، ولذلك فهي خاضعة لنواميسها الخاصة. وهي موجودة مخلوقاً بعد الآخر، ليس فقط بمعنى كونها خُلقت واحداً بعد الآخر، وهي الآن تستمر موجودةً في رتبتها العُليا أو الدُنيا، بل هي أيضاً موجودةٌ تالياً بعضُها لبعض، وبذلك تبقى هي إياها حتى يومنا الحاضر. ذلك أن الخليقة ليست بطبيعتها واحدة الشكل بل متنوعة الأشكال، وهي بمجملها وبأجزائها معاً تنطوي على أغنى التنوعات وأجملها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وفي الوقت ذاته يستمرُّ العالم – من الجهة الثانية – ممتداً في عمق الزمن. وحقيقة كون كل ما عمله الله حسناً جداً (تكوين 1: 31) لا تعني أن كل شيء بلغ في الحال مبلغ التمام. فكما أن الإنسان، وإن كان مخلوقاً على صورة الله، تلقى مع ذلك دعوة وقصداً عليه أن يلبيهما بالأعمال، فكذلك العالم لما خُلِق وُضِع في بدايته لا في نهايته. وقد كان أمامه تاريخٌ طويل يُحسَب بالقرون، وفيه يستطيع بصورة تتزايد غنىً ووضوحاً أن يُعلِن صفات الله السنيَّة. وعليه، فإن الخلْق والتطور لا يلغي أحدهما الآخر. بل بالأحرى فإن الخلق هو نقطة الإنطلاق لكل تطور. فلأن الله قد خلق عالماً لا ينفد غِنى تمايُزِه وتنوعه، حيث لكل نوعٍ من الخلائق طبيعتُه الخاصة به، وفي تلك الطبيعة حصل كلٌّ على فكره ومَزيَّته وناموسه، فلذلك – ولذلك فقط – صار التطور ممكناً. ولكل تطورٍ كهذا نقطة انطلاقة، وفي الوقت نفسه اتجاهُه ومقصده، في هذا الخلْق، حتى لو كانت الخطية قد أدخلت الاضطراب والفوضى على هذا التطور أو النمو، فإن الله رغم ذلك يتم مشورته فيعتني بالعالم ويوجهه إلى غايته.

وحينما يتكلم الكتاب المقدس عن العالم على هذا النحو، ينطلق ضمناً من افتراض وجود عالمٍ واحد فقط. ففي مطارحات الفلاسفة غالباً ما تُقدَّم هذه المسألة بصورة مغايرة جداً. إذ إن كثيرين منهم، قديماً وحديثاً، رأوا أن عوالم شتى تتواجد أحدهما مع الآخر جنباً إلى جنب وأن كواكب أخرى غير الأرض كانت آهلةً بمخلوقاتٍ حية وعاقلة، ولم يقتصروا على هذا بل تعدوه إلى الاعتقاد بأن عوالم شتى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تلا أحدها الآخر في الزمان. ولذلك ذهبوا إلى أن العالم الحالي لم يكن العالم الوحيد، بل سبقته عوالم لا حصر لها وستعقبه عوالم أخرى بعد. حتى إن بعضهم زادوا على ذلك الفكرة القائلة بأن كل ما هو موجود الآن كانت له كينونتُه الكاملة في عالمٍ أسبق ولسوف ينعم أيضاً بهذا الوجود المثالي في عالمٍ آتٍ وبالاختصار، فكلٌّ ما هو كائن إنما هو موجود في عملية مستمرة؛ وكلُّ شيءٍ خاضعٌ للناموس الأزلي الذي يحدد الظهور والخفاء، والقيام والسقوط.

غير أن كلمة الله المقدسة تضرب صفحاً عن كل هذه التخيلات. إذ تقول لنا إنه في البدء خلق الله السماوات والأرض، أي هذا العالم؛ وإن هذا العالم يجري عبر تاريخ مداه قرون؛ وبعد هذه العملية التاريخية سيحلُّ السبت الأبـــدي، أي الراحة التي بقيت لشعب الله. ولا أثر في الكلمة المقدسة لمأهولية كواكب أُخرى، وأن هنالك ملائكة فضلاً عن البشر، وأن ثمة سماءً فضلاً عن الأرض. أما في مـــا سوى ذلك، فهي تلتزم الموقف الذي يؤكد أن الإنسان وحده هو الذي خُلِق على صورة الله، وأن ابن الله لم يتخذ طبيعة الملائكة بل طبيعة البشـــر، وان ملكـــوت السماوات آخذ في الانتشار وهو متحقق على هذه الأرض.

وهكذا أيضاً تفيدنا الكلمة الإلهية أن العالم محدود. وأول ما تشتمل عليه هذه الفكرة أن العالم كانت له بداءة وأنه خُلِق مع الزمان. أما مسألة طول قِـــدَم العالم فلا تضيف على هذا شيئاً ولا تنقص منه شيئاً. حتى لو كان العالم موجوداً قبل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

آلاف السنين أو ملايينها من وجوده الصحيح، لما جعله ذلك أزلياً بالمعنى الـــذي نقول فيه إن الله أزلي. فعندئذٍ أيضاً يكون العالم وقتياً ومحدوداً ومتواجداً مع الزمن. ومن الأهمية بمكانٍ أن نلاحظ هذا، لأن الكتاب المقدس الذي يعلمنـــا أن للعـــالم بداءةً، يعلمنا أيضاً مع ذلك أنْ ليس له نهاية. طبعاً، ستكون له نهايـــة بصـــورته الحالية، لأن هيئة هذا العالم تزول، ولكن هذا لا ينطبق على مادته وجوهره. ولكن مع أن العالم والناس والملائكة يظلون موجودين إلى الأبد في المستقبل، فهم يبقون مخلوقاتٍ ولا يشتركون البتة في صفة الأبدية التي لله. فالعالم يوجـــد في الزمـــان ويستمرُّ موجوداً فيه، وإن كان سيُطبَّق عليه في تدبيرٍ آخر معيارُ قياسٍ مختلف كلياً عما هو مستعمَل الآن على هذه الأرض. ثم إن العالم محدودٌ في المكان مثلما هـــو محدود في الزمان. صحيحٌ أن العِلم الحديث وسع مدى رؤيتنا إلى أبعد الحدود؛ وأن العالم قد أصبح من حيث المكان أوسع جداً مما كان في أيام أجدادنا. وأنه يعترينـــا الدوار عند سماعنا بعدد النجوم الهائل وضخامتها، حيث كلٌّ واحدٍ منها عالمٌ قائمٌ بذاته والمسافة التي تفصلها عن عالمنا تفوق الإدراك. إلا أننا رغم ذلـــك كلـــه لا نستطيع أن نعتبر العالم سرمدياً بالمعنى الذي نقول فيه إن الله سرمدي. ومعلومٌ أن الفرق بين الأزلي والأبدي إنما هو فرق في النوع لا في الدرجة. فليس في وسعنا أن نفكر في زمانٍ ومكانٍ خارج هذا العالم. ولا قِبَل لنا بأن نتصور أننا عند حدٍّ مـــا سنلمس حدود الكون ونتمكن عند ذلك الحد من التحديق إلى خلاءٍ خاوٍ. فالزمان والمكان ينتشران بانتشار العالم، ويبلغ مداهما مدي العالم، وما داما موجودَين فإن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأشياء المخلوقة تملأهما. غير أن هذه كلها – أي الزمان والمكان والعالم – محدودة. وذلك لأن مجموع الأجزاء المتناهية، مهما كانت هذه الجزاء عظيمة المقدار على نحوٍ لا يكاد يُحصر، لا يبلغ بتةً اللانهاية. فالله وحده سرمديٌ وكليُّ الحضور ولا متناهٍ.

أخيراً، تعلمنا كلمة الله أن العالم صالح، وأننا بحاجة إلى مقدارٍ من الشجاعة كبير لنقول هذا في أيامنا الحاضرة. بالحقيقة إن لهجة القرن الثامن عشر كانت كثيرة التفاؤل؛ ففي ذلك العصر نظر الناس إلى كل شيءٍ من الجهة المشرقة، وقد عُلِّموا أن الله خلق أفضل عالمٍ ممكن. إلا أن للقرن التاسع عشر، ولقرننا العشرين هذا، نظرةً مختلفةً جداً إلى الحياة والعالم والمجتمع. فهوذا الشعراء والفلاسفة والفنانون في زمننا يعلموننا أن كل ما في العالم شقاء بشقاء، وأن العالم نفسه هو على أردئ ما يُمكن أن يكون، وأنه لو كان أسوأ بدرجة واحدة مما هو عليه لما كان يُعقَل أن يوجد. وبحسب تفكير الكثيرين أن كل ما هو موجود لا يستحقُّ إلا السحق والمحق. ومع أن قوماً لا يزالون راغبين في التمتع من العالم بالقدرْ الذي يسعه أن يقدمه من اللذة (لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت)، فإن آخرين يستسلمون لليأس والإعياء من جهة العالم، أو يرجون في أحلام يقظتهم مستقبلاً أفضل، أو مدينة اشتراكية فاضلة، أو حالة هناءةٍ في ما وراء القبر، أو نِرفانا، أو على الأقل شيئاً ما لا يوفره الحاضر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

غير أن الكلمة المقدسة تقف موقفاً مغايراً في النظر إلى هذا الأمر، فهي تقول لنا أولاً إن العالم كان صالحاً، بل حسناً جداً، في الصورة التي خرج عليها من بين يدي الله (تكوين 1: 31). وثانياً تضيف كلمة الله إلى هذا أنه بسبب الخطية التي دخلت المشهد قد صارت الأرض ملعونة، والإنسان عرضة للفساد والموت، والخليقة خاضعة للبُطل. فليس في مكان آخر سوى الكتاب المقدس نتعلم على نحوٍ مؤثرٍ وواضح عن هشاشة الحياة وزوالها، وانعدام شأن جميع الموجودات وضآلتها، وعمق الألم والمعاناة ومداهما الشديد. غير أن الكتاب لا يقف عند هذا الحد. فالكتاب المقدس، ثالثاً، يمضي ليؤكد أن مسرة الله الصالحة آخِذةٌ في التحقق، رغم كل شيء، في هذا العالم الساقط والآثم والباطل. إذ يعلمنا أنه بسبب الغاية التي يجري توجيه هذا العالم إليها يُمكن أن يُدعى العالم الحاضر صالحاً بعد؛ كما يعلِّمنا أن العالم، على الرغم من الخطية، كان وسيصير ويبقى واسطةً بها يتمجد الله. وأخيراً، يتوج الكتاب المقدس تعليمه هذا عن العالم إذ يورد الوعد المجيد بأن هذا العالم، بكل ما فيه من ألم وظُلم، يصير صالحاً لنا من جديد عندما نُخضِع إرادتنا لمجد ذاك الإله ونحيا في العالم لمجده تعالى. فإن كلَّ الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله (رومية 8: 28). وهؤلاء يتعلمون أن يفتخروا حتى في الضيقات (رو 5: 3). وإيمانهم هو الغلبة التي بها يغلبون العالم (1 يوحنا 5: 4).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذه الاعتبارات كلُّها تأخذنا على نحوٍ طبيعي ومباشر من الخلق إلى العناية. فمنذ اللحظة التي فيها دُعي العالم بمجمله، وبكل مخلوقاته، إلى الوجود بفعل الخلق الإلهي، وُضِعت الخلائق كلُّها – رغم كل شيء – في ظل عناية الله وتحت سيطرتها. ولا يوجد هنا أي انتقال تدريجي ولا أيُّ انقطاع أو ثغرة. فكما أن الخلائق، لأنها مخلوقة، لا تستطيع أن تتواجد من تلقاء ذاتها، فكذلك تماماً لا تستطيع لحظةً واحدة أن تقوم بذاتها. فالخلق والعناية يسيران يداً بيد ويتمِّم أحدهما الآخر.

لذا تنشأ بين الخلق والعناية علاقة وثيقة وارتباط متين. ومن الأهمية القصوى بمكان أو نؤكد، في وجه أي تهديدٍ من آراء التأليه الطبيعي، هذا الارتباط الذي لا تنفصم عراه بينهما – ونعني هنا بالتأليه تلك النزعة الفكرية التي تقبل القول بخلْقٍ أصلي لكنها تعتقد فيما عدا هذا أن الله نفض يده من العالم وتركه يمضي في سبله. وفي مثل هذه الحال لا يؤدي مفهوم الخلق إلا عملَ إعطاءِ العالم وجودَه المستقل، وعلى هذا النحو فهو فكرة يمكن أن يقبلها حتى كانط وداروين. إنما تذهب هذه الفكرة إلى أن خلق الله للعالم أسبغ عليه الاستقلال الكلي وجهزه بقدرٍ كافٍ من القُدرات والطاقات بحيث يتسنى له، في ذاته وبذاته، أن يكون حسناً إلى التمام ويتأتى له أيضاً أن يُنقذ ذاته في جميع الأحوال. وبحسب التشبيه المعهود، اعتُبر العالم كأنه ساعة، ما إن تُملأ حتى تمضي تدقُّ من تلقاء ذاتها دون أن يعتني بها أحد. وقد أفضت هذه الفكرة، بطبيعة الحال، إلى الفكرة الأخرى القائلة بأن العالم لا يحتاج إلى أي إعلان بل يستطيع أن يعثر على الحق الضروري بقوته الخاصة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وانطلاقاً من موارده الكامنة فيه. وهكذا جلبت فكرة التأليه الطبيعي في أعقابها العقلانية – أي تلك الحركة التي تذهب إلى أن العقل يستطيع بلوغ الحق كلَّه في موارده الذاتية وبواسطتها. وكذلك أيضاً عملت فكرة التأليه الطبيعي على قيام البيلاجيوسية – أي ذلك التعليم القائل بأن إرادة الإنسان الحرة تستطيع إحراز الخلاص له. وذلك لأن التأليه الطبيعي يؤمن بأن إرادة الإنسان، شأنها شأن عقله تماماً، قد خُلقت لتكون مستقلة وجُهِّزت من القُدرات والطاقات الدائمة بما يجعل عمل أي وسيط للخلاص أمراً غير ضروري.

فضروريٌّ إذاً، بالنظر إلى هذا البديل القائم في التأليه الطبيعي، أن نتمسك بالعلاقة بين الخلْق والعناية، الأمر الذي يؤكده الكتاب المقدس. فالكتاب يدعو عمل العناية الإلهي نشاط إحياء وحفظ (أيوب **33**: **4**؛ نحميا **9**: **6**) وتجديد (مز **104**: **30**) وأمر وإرادة (رؤيا **4**: **11**) وعمل (يوحنا **5**: **17**) وحَمْلٍ لكل الأشياء بكلمة قدرته (عبرانيين **1**: **3**) واعتناء (**1** بطرس **5**: **7**) بل خلقٍ أيضاً (مزمور **104**: **30**؛ إشعياء **45**: **7**). وما تتضمنه هذه التعبيرات هو أن الله بعد خلقه للعالم لم يتركه وشأنه، ناظراً إليه من بعيد. فالله الحي لا يُعقل أن يُزاح جانباً بعد خروج الخليقة من بين يده. فالكلمة "عناية" تعني أن الله يوفر للعالم كل ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يحتاج إليه.[1] وليس هذا عملاً يقوم به عقل الله وحسب، بل هو فعل إرادةٍ منه وتنفيذ لمشورته. إنه عملٌ به يصون وجود العالم لحظةً فلحظةً.

وعليه، فإن الصيانة، التي تُعتبر عادةً أول نشاطٍ في العناية، ليست مناظرة سلبية. وليس بيت القصيد أنه يدع العالم يوجَد بل أنه يجعله يوجَد. هذه هي الصيانة بالمعنى الصحيح للكلمة. وما أحسن ما تفعله خُلاصة العقيدة المعروفة بخلاصة هايدلْبرج إذ تصف هذه العناية بأنها قدرة الله القادرة على كل شيء والموجودة في كل مكان والتي بها، كما بيده، ما زال يحمل السماء والأرض والخلائق كلها. فالقوة الإلهية الكليةُ القدرة إنما تنطلق من الله لتُبقي العالم موجوداً بالتمام مثلما أوجدته في البدء. وبغير الحصول على هذه القوة لا يمكن لأي مخلوقٍ أن يوجد للحظةٍ واحدة. فما إن يسحب الله يده ويحجب قوته حتى يغور المخلوق مرة أخرى في العدم. إذ لا شيء يبلغ الكينونة ويبقى فيها ما لم يُرسل الله باستمرار كلمته وروحه (مز **104**: **30**، **107**: **25**)، وما لم يتكلم الله بذلك ويأمر به ويريده.

وقوة الله هذه لا تأتي من بعيد بل من قريب، لكونها قوة كلية الحضور. فالله حاضرٌ بكل سجاياه الفائقة وبكامل كينونته في العالم كله وفي كلٍّ خلائقه. إذ به نحيا ونتحرك ونوجد (أعمال **17**: **28**)، وهو ليس ببعيد عن كل واحد منا (أع

(**46**) تك **22**: **8**؛ **1** صم **16**: **1**؛ حز **20**: **6**؛ عب **11**: **40**.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

17: 27). إنه قريب إلينا وليس متنائياً عنا. ولا أحد يستطيع أن يختبئ في أماكن مستترة كي لا يراه الرب. فهو يملأ السماوات والأرض (إرميا 23: 23 و 24). ومن يستطيع أن يهرب من روحه تعالى أو من يفر من حضرته؟ فهو في السماء، وفي أقاصي البحر وفي أعماق الظلمة (مز 139: 7 وما يلي). وقدرته على العناية والصيانة تمتد إلى جميع خلائقه: إلى زنابق الحقل (متى 6: 28)، وطيور السماء (مت 6: 26)، بل إلى شعر الرأس (مت 10: 30). فكل مخلوق يوجد وفقاً لطبيعته – كما يوجَد وما دام يوجَد – بقدرة الله. وكما أن ذلك منه، فهو أيضاً به (رومية 11: 36). والابن الذي به عمل الله العالمين يستمرُّ منذئذٍ حاملاً كل الأشياء بكلمة قدرته (عبرانيين 1: 2 و 3). فكل شيء يقوم فيه هو الكائن قبلَ كل شيء (كو 1: 17)، وهي مخلوقةٌ ومتجددة بروحه (مزمور 104: 30).

****

وبسببٍ من هذه العلاقة الوثيقة بين الخلق والعناية، تُدعى الأخيرة أحياناً خلقاً دائماً أو تدريجياً. هذه التسمية يمكن أن تؤخذ بمعنىً جيد، ولكن ينبغي مع ذلك أن يُجلى عنها أيُّ سوء فهم قد يعتريها. ذلك أن الجدية التي بها نُصِر على تعزيز العلاقة بين الخلق والعناية ينبغي أن تولي أيضاً لتعزيز التمييز بينهما. فإذا كان تجاهُل الأمر الأول يورطنا في التأليه الطبيعي (اعتقاد وجود الله دون الإفادة من الإعلان الإلهي)، فإن تجاهل الثاني – أي التمييز بينهما – من شأنه أن يورطنا في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وحدة الوجود. وبهذه الأخيرة نعني ذلك المذهب الذي بموجبه يُزال الفارق النوعي بين الله والعالم ويُعتبر الاثنان واحداً، أ، في أفضل الحالات وجهين للكائن الواحد نفسه. إذ ذاك يُعتبر أن الله هو جوهر العالم، والعالم تجلٍّ لله. فإذا العلاقة بينهما كالعلاقة بين البحر وأمواجه، أو الحقيقة وأشكالها، أو الجانب المرئي من الكون الواحد والجانب غير المرئي منه.

إن كلمة الله المقدسة تتحامي هذه الضلالة بكل حرص تحاميها لضلالة التأليه الطبيعي. وذلك واضح من حقيقة كون الله يُقدم ليس فقط مُبدئاً عمل الخلق بل منجزاً له ومستريحاً منه (تكوين 2: 2؛ خروج 20: 11؛ 31: 17). فعند الخلق أُنجز شيءٌ وكُمِّل. وصحيحٌ أن استراحة الله – كما سبقت الإشارة – ليست انقطاعاً عن كل عمل، لأن العناية أيضاً عمل (يوحنا 5: 17)، ولكنها انقطاعٌ عن العمل المحدَّد الذي تم عند الخلْق. فإذا فكرنا في الخلق والعناية باعتبارهما الواحد إلى جنب الآخر من حيث العلاقة بالعمل والاستراحة، فعندئذٍ لا يوجد مجالٌ للشك في أنهما متميزان أحدهما عن الآخر، مهما كان الارتباط بينهما وثيقاً. فالخلق يتضمن إيجاد شيء من العدم، والعناية هي جعْل ذلك الشيء يقوم في وجوده المُعطي له. لذا لا يجعل الخلقُ العالَمَ مستقلاً، لأن وجود مخلوق مستقل هو أمرٌ متناقضٌ حتى لفظياً، بل يُضفي على العالم جوهراً يجب أن يُميَّز عن جوهر الله. فليس فقط في الاسم والصورة ينبغي التمييز بين الله والعالم، بل أيضاً في الجوهر أو الكينونة. وهما يختلفان اختلاف الزمن عن الأبد، والمتناهي عن اللامتناهي، والخالق عن المخلوق.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإنه لأمرٌ مهمٌّ جداً في حد ذاته أن نؤكد هذا الفرق في الجوهر بين الله والعالم. فكلُّ من يُنكر هذا الفرق أو يقلل من شأنه يزيف الدين ويهبط بالله إلى مستوى المخلوق، ويصير من حيث المبدأ مُذنباً بالذنب الذي ينسبه بولس إلى الوثنيين حيث يقول إنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه ولا شكروه (رومية 1: 21). غير أن هنالك بعد اعتباراً آخر يجعل التمسك بهذا التمييز ضرورياً.

فلو كان الله والعالم شيئاً واحداً، ولو كان لا يُميَّز عن البشرية بطريقة جوهرية، لكان كلُّ فكرٍ وكلُّ فعل من البشر ينبغي أن يُنسب مباشرةً إلى مسؤولية الله عنه. حتى إن الخطية أيضاً تكون من مسؤوليته، وبالاختصار، لا يعود ثمة ما يسمى خطية. فالآن صحيحٌ، من جهة، أن كلمة الله المقدسة تنص بكل قوة على أن الإنسان بأفكاره وأفعاله، وأيضاً بخطاياه، خاضع لحكم الله. فما كان الإنسان يوماً مستقلاً عن الله. والرب ينظر من السماء ويرى جميع بني البشر (مزمور 33: 13)، وهو المصوِّر قلوب البشر جميعاً والمنتبه إلى كل أعمالهم (مز 33: 15). وهو يحدد أماكن سكنهم (تثنية 32: 8، أعمال 17: 26)، ويَزِن جميع سُبل الناس (أمثال 5: 21، إرميا 10: 23). هو يفعل ما يشاء في جند السماء وبين ساكني الأرض (دانيال 4: 35)، ونحن بين يديه كطين الخزاف وكالمنشار بيد مستعمله.[1] وإذ يصير الإنسان خاطئاً، فهو لا يتخلص بذلك من الله كلياً؛ بل كل ما في الأمر

---

(47) إش 29: 16؛ 45: 9؛ إر 18: 4؛ رو 9: 20 – 21.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن اعتماده على الله يتخذ إذ ذاك صفةً خاصةً أخرى، إذ يفقد هذا الاعتماد طبيعته العاقلة والأدبية ويغدو خضوعَ المخلوق للخالق فحسب. فالإنسان الذي يصير عبداً للخطية ينحطُّ بنفسه ويصير مجرد آلة في يده تعالى. ولذلك كان ممكناً أن تقول كلمة الله إن الله يُقسِّي قلب الإنسان،[1] ويضع روح كذبٍ في أفواه الأنبياء، (1 ملوك 22: 23)، وبواسطة الشيطان يدفع داود إلى إحصاء الشعب (2 صموئيل 24: 1؛ 1 أخبار الأيام 21: 1)، ويقول لشمعي بن جيرا أن يسب داود (2 صم 16: 10)، ويُسلم الناس إلى نجاسة خطاياهم (رو 1: 24)، ويرسل إلى الناس عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب (2 تسالونيكي 2: 11)، ويضع المسيح لسقوط كثيرين (لوقا 2: 34).

إلا أن الكتاب المقدس أيضاً، بصرف النظر عن حقيقة كون العناية الإلهية مشرفةً حتى على الخطية، يؤكد من جهة أخرى بكل تشديد وثبات أن سبب الخطية ليس في الله بل في البشر، وبالتالي يجب أن تُقيد لا في حساب الله بل في حساب الإنسان. فالرب بارٌ وقدوس ولا جورَ فيه البتة (تثنية 32: 4، أيوب 34: 10). وهو نورٌ ولا ظلمةَ فيه البتة (1 يوحنا 1: 5)، ولا يجرب أحداً (يعقوب 1: 13)، وهو النبع الفياض لكل ما هو صالح ونقي (مزمور 36: 10، يعقوب 1: 17). إنه ينهي عن الخطية في ناموسه (خروج 20) وفي ضمير كل إنسان (رومية

---

(48) خر 4: 21 وما يلي؛ تث 2: 30؛ يش 11: 20؛ رو 9: 18.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

2: 14 و 15)، ولا يُسَرُّ بالإثم (مزمور 5: 5)، بل يبغضه ويعلن عليه غضبه الشديد (رومية 1: 18)، ويتهدده بالعقاب الزمني والدينونة الأبدية (رو 2: 8).

هذان المبدآن الظاهران في الكتاب المقدس، واللذان بموجبهما تقع الخطية من الأول إلى الآخر تحت سيطرة الله ومع ذلك تُقيَّد في حساب الإنسان، لا يمكن التوفيق بينهما إلا إذا كان الله والعالم غير مستقلٍّ أحدهما عن الآخر من جهة، ومتميزاً أحدهما عن الآخر جوهرياً من جهة ثانية. ويتولى علم اللاهوت ذلك الأمر عينَه عندما تتحدث بخصوص العناية عن التعاون كما تتحدث عن الصيانة. ويقصد علم اللاهوت بلفظة التعاون أن ينصف حقيقة كون الله هو العلة الأولى لكل ما يحدث، ولكن للخلائق أيضاً – تحت هيمنته ومن خلاله – دورهم باعتبارهم عللاً ثانوية تتعاون مع العلة الأولى. ولنا أن نتكلم عن مثل هذه العِلَل الثانوية فيما خص حتى المخلوقات العديمة الحياة. فمع أنه صحيح أن الله يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (متى 5: 45)، فإنه يستخدم فعلاً الشمس والسحاب في هذه الأحوال. غير أن التمييز المشار إليه هنا هو ذو قوة أكبر جداً بالنسبة إلى المخلوقات العاقلة. فهؤلاء نالوا من يد الله عقلاً وإرادة، وعليهم أن يستخدموهما لإرشاد نفوسهم والسيطرة عليها. حقاً إن كل موهبة وكل قدرة عند هذه المخلوقات العاقلة، فضلاً عن كل حياةٍ ووجود، إنما هي كلُّها مستمدة من لدن الله، وأن الموهبة والقوة تبقيان خاضعتين لعناية الله، بغض النظر عن كيفية استخدامهما. إلا أنه من الواجب مع ذلك أن يتم التمييز بين العلة الأولى والعلل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الثانوية، أي بين الله والبشر. فكما أن الله، فيما خصَّ فعل الخير هو الذي بحسب مسرته الصالحة يعمل فينا كي نريد نحن ونعمل، غير أن الإنسان نفسه أيضاً يُريد ويعمل، فكذلك هي الحال أيضاً – بل إلى درجةٍ أكبر – فيما خص فعل الشر. ذلك أن الله يمنح الحياة والطاقة هنا أيضاً، إلا أن الإنسان رغم ذلك، ولا أحد سواه، هو مَن يفعل الخطأ ويُذنب به. وبينما لا نستطيع أن نحل بيُسرٍ الألغاز التي تثيرها لنا مسألة عناية الله في الحياة، فإنه في الاعتراف بأن الله والعالم لا يمكن فصلهما كلياً البتة ولكن يجب التمييز بينهما في الوقت نفسه، وما يرشدنا إلى الاتجاه الذي يجب أن نسير فيه سعياً وراء الحل، وما يحمينا من الانحراف يمنة أو يسرةً في سعينا.

****

إذا فهمنا التعليم المختص بالخلق والعناية مثل هذا الفهم، نجده مفعماً بالتعزية والتشجيع. ففي الحياة كثيرٌ مما هو ثقيل الوطأة ويسلبنا القوة للحياة والتصرف. وهنالك المعوقات والمحبطات التي نصادفها على درب الحياة. وهناك أيضاً الكوارث الرهيبة التي تُزهق من جرائها مئات الأرواح وألوفها في معاناةٍ لا توصف. ثم أن الحياة في مجراها الطبيعي أيضاً قد تُثير في بعض الأحيان شكوكاً في الذهن من جهة عناية الله. أفليس الإلفاز نصيب البشر أجمعين؟ فها دودة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

اللااستقرار والخوف تنخر كل وجود أو ليس صحيحاً أن لله مخاصمةً من خلائقه وأننا نهلك في غضبه ونرتاع بسخطه؟ لا، ليس غير المؤمنين والعابثون وحدهم، بل أولاد الله أيضاً – وهؤلاء على أعمق ما يكون – هم الذين تستبد بهم قبضة الحقيقة بجديتها الرهيبة. حتى إنه في بعض الأحيان يشق السؤال التالي طريقه عنوةً من القلب إلى الشفتين: أيُعقل أن الله خلق الإنسان على الأرض للاشيء؟

غير أن المسيحي المكتئب ما يلبث أن يرفع رأسه عالياً موقناً بحكمة الله في خلقه وعنايته. فليس أحد الأبالسة، بل الله القدير، أبا ربنا يسوع المسيح، هو مَن خلق العالم. والعالم بمجمله وأجزائه هو من صُنع يديه فقط ليس غير. وبعدما خلقه لم يتخل عنه، بل هو يعتني به بقوته القادرة على كل شيء والكلية الحضور. فهو يهيمن على كل شيء ويتحكم في كل الأشياء بطريقةٍ تجعلها تتعاون وتنصبُّ على تحقيق القصد الذي رسمه تعالى.

كذلك تتضمن عناية الله، فضلاً عن الصيانة والتعاون، ناحيةً ثالثة أيضاً هي الحكم. فهو ملك الملوك ورب الأرباب (1 تيموثاوس 6: 15، رؤيا 19: 6)، ومُلكه يدوم إلى الأبد (1 تي 1: 17). فلا الصدفة ولا الضرورة ولا الاعتباط وال القوة الغاشمة، ولا الهوى الجامح ولا القدر القاسي، هو ما يسيطر على العالم وتاريخه ويتحكم في الحياة وفي مصائر البشر. إذ وراء جميع العِلل الثانوية، تكمن وتعمل مشيئةٌ مقتدرة تعود لإلهٍ قدير وأبٍ أمين.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وإنه لأمرٌ ذاتيٌّ الوضوح أن أحداً لا يستطيع حقاً أن يؤمن بهذا في قلبـــه ويعترف به بفمه غير الإنسان الذي يعرف أنه ولدٌ من أولاد الله. ذلك أن الإيمان بالعناية يرتبط ارتباطاً أوثق بالإيمان بالفداء.

وبالحقيقة أن عناية الله تنتمي إلى تلك الحقائق التي يمكن التحقق منها، إلى حد ما، من الإعلان العام في الطبيعة والتاريخ. وغالباً ما عبّر عنها بعض الوثنيين ووصفوها على نحوٍ جميل. فقد قال أحدهم إن الآلهة تسمع وترى كل شيء وإنها كلية الحضور وتعتني بكل الأشياء. وقال واحدٌ آخر منهم إن نظام الكون وترتيبه يتولى أمرهما الله إكراماً لذاته. ولكن أحداً منهم لم يعرف اعتراف المسيحي المؤمن بأن هذا الإله الذي يتولى أمر كل شيء ويهيمن عليه هو إلهه وأبوه لأجل خاطر ابنه يسوع المسيح. وبالتالي، تزعزع الإيمان بعناية الله، في العالم الوثني، بفعل الشـــك، وغالباً ما ثبت أنه غير كافٍ ولا وافٍ في مواجهة صروف الحياة. وقد كان القرن الثامن عشر قرن إفراط في التفاؤل، حيث ساد الاعتقاد أن الله خلق أفضل العوالم. ولكن لما دمر زلزالٌ رهيب معظم مدينة لشبونة سنة **1755**، أخذ كثيرون يجدفون على عناية الله وينكرون وجودها. غير أن المسيحي الذي اختبر محبة الله في غفران خطاياه وفداء نفسه، له من الثقة ما يجعله يفتخر مع الرسول بولس بأنه لا شدة ولا ضيق ولا اضطهاد ولا جوع، ولا عري ولا خطر ولا سيف، تفصله عن تلك المحبة (رومية **8**: **35**). فإن كان الله معنا، فمن علينا؟ (رو **8**: **31**). فمع أنه لا يُزهر التين، ولا يكون حمْل في الكروم، يكذب عمل الزيتونة، والحقول لا تصنع طعاناً،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ينقطع الغنم من الحظيرة، ولا بقر من المذاود، فإني أبتهج بـــالرب وافـــرح بإلـــه خلاصي (حبقوق 3: 17، 18).

بمثل هذا الفرح القلبي يدعو المسيحي حتى الأرض إلى حمد الله: الرب قد ملك، فلتبتهج الأرض ولتفرح الجُزُر الكثيرة (مزمور 97: 1).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الرابع

أصل الإنسان وجوهره وغايته

إن خبر خلق السماوات والأرض، في الفصل الأول من سفر التكـــوين، ينصب على خلق الإنسان. فخلق سائر الخلائق، من سماوات وأرض، وشمس وقمر ونجوم، ونبات وحيوان، يُروي خبره بكلمات قليلة، ولا يؤتى أبداً على ذكر خلق الملائكة. ولكن حين يصل الكتاب إلى خلق الإنسان يتناوله بالتفصيل، فلا يقتصر فقط على ذكر حقيقة الخلق بل يتعدى ذلك إلى وصـــف كيفيتـــه، ثم يعـــود إلى الموضوع في الفصل الثاني فيعالجه بإفاضة.

وإيلاء هذا الاهتمام الخاص لأصل الإنسان هو الدليل على كون الإنسان هو الغاية والغرض والرأس والتاج في عمل الخلق كُله. ثم إن لدينا تفاصيل حسية شتى من شأنها أيضاً أن تلقي الضوء على مرتبة الإنسان العليا وقيمته بين الخلائق كلِّها.

فأمامنا، في المقام الأول، مشورة الله الخاصة التي تسبق خلق الإنسان. فعند دعوة باقي الخلائق إلى الوجود، نقرأ فقط أن الله تكلم وبكلمته برزت الأشياء إلى الوجود. ولكن عندما يوشك الله أن يخلق الإنسان يشاور نفسه أولاً ويدعو ذاته لأن يعمل الإنسان على صورته ومثاله. وفي هذا ما يؤول إلى التوكيد أن خلـــق

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان على وجه الخصوص يقوم على أساس القصد الإلهي، علـــى حكمـــة الله وصلاحه وقدرته على كل شيء. طبعاً لم يبرز شيءٌ إلى الوجود بالصدفة. ولكـــن مشورة الله وتصميمه ظاهران بصورة جلية جداً في خلق الإنسان أكثر ممـــا همـــا ظاهران في خلق سائر المخلوقات.

أضف إلى هذا أن التشديد الخاص – في مشورة الله هذه بالذات – ينصب على حقيقة كون الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله. ولذلك فهو يـــدخل في علاقة بالله مختلفة كلياً عن حال سائر المخلوقات. فلا يُقال عن أية خلائق أخرى، حتى ولا الملائكة، إنها قد خُلقت على صورة الله أو إنها تعرض هذه الصورة. قـــد يكون فيها إلماعات ودلائل على واحدةٍ أو أكثر من صفات الله، ولكن عن الإنسان وحده يقال بتوكيد إنه مخلوق على صورة الله وكشبهه.

ثم إن الكتاب المقدس يشدد أيضاً على حقيقة أن الله خلق على مثالـــه لا إنساناً واحداً بل الإنسان عموماً. ففي ختام الآية **27** من تكـــوين**1**، يُشـــار إلى الإنسان بصفته ذكراً وأنثى. فليس الرجل وحده، ولا المرأة بالتحديد، بل الاثنان معاً في علاقتهما المتبادلة، هما حاملا صورة الله. وبحسب البركة المنطوق بها عليهما في الآية **28**، نجد أنهما حاملان لهذه الصورة هكذا ليس في أنفسهما ولا لأنفسهما وحدهما. فهما هكذا أيضاً في نسلهما ومع نسلهما. إذ إن الجنس البشري، بكليته كما بكل جزءٍ منه، مخلوقٌ عضوياً على صورة الله وكشبهه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أخيراً، يذكر الكتاب المقدس صراحةً أن خلق الإنسان على صـــورة الله يجب أن يتم التعبير عنه على وجه الخصوص في تسلطه على جميع الكائنات الحية وفي إخضاع الأرض كلها لله. فلأن الإنسان هو ذرية الله، لذلك هو ملك الأرض. وكون الناس أولاداً لله وورثة للعالم أمران مرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه، وذلك في الخلْق.

****

إن خبر خلق الإنسان المذكور في الفصل الأول من سفر التكوين تناولـــه الفصل الثاني بتوسع وتفصيل (تك **2**: **4** ب – **25**). أحياناً يُسمى هذا الفصل الثاني من سفر التكوين خطأً رواية الخلق الثانية. لكـــن هـــذا خطـــأ لأن خلـــق السماوات والأرض هو أمرٌ مفروغ منه، ومشار إليه في الآيـــة (**4**ب) كتوطئـــة للكلام عن الطريقة التي بها كوَّن الله الإنسان من تراب الأرض. فالتشديد كلُّه في هذا الفصل الثاني يقع على خلق الإنسان وعلى الطريقة التي تم بها ذلك. والفارق الكبير بين الفصلين الأول والثاني من سفر التكوين يتبين في هذه التفاصيل الـــتي يرويها لنا الثاني فيما يتعلق بتكوين الإنسان.

يروي الفصل الأول خبر خلق السماوات والأرض ويجعل منه مدخلاً إلى خلق الإنسان. فالإنسان في هذا الفصل هو آخر مخلوق يُدعى إلى الوجود بقدرة الله الكلية. وهو يقوم في نهاية سلسلة الخلائق سيداً للطبيعة وملكاً للأرض. ولكـــنَّ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الثاني، ابتداءً من الآية (4ب)، يبدأ بالإنسان وينطلق منه كنقطة بداءة، ويضعه كمركزٍ للأشياء كلَّها. ثم يروي ما حدث عند خلق الإنسان، وكيف تم ذلك بالنسبة للرجل ثم المرأة، وأي مكانٍ للسكن عُيِّن له، وأية مُهمة وضعت في عهدته، وأي غايةٍ ومصير كانا له. فالفصل الأول يتكلم عن الإنسان بوصفه غاية الخليقة أو هدفها. أما الثاني فيتناول الإنسان بوصفه بداءة التاريخ، بحيث إن مضمون الفصل الأول يمكن تلخيصه تحت عنوان "الخلق" والثاني تحت عنوان "الجنة".

ثمة ثلاثة بنود يُطلعنا عليها هذا الفصل الثاني فيما يتعلق بأصل الإنسان، وهي عبارة عن توسيع لما يتضمنه الفصل الأول.

ففي المقام الأول، نجد وصفاً مفصلاً جداً للمكان الأول الذي سكن فيه الإنسان. فالفصل الأول إنما يُفيد بعباراتٍ عامة أن الإنسان خُلِق على صورة الله وعُيّن سيداً على الأرض كلها، إلا أنه لا يتضمن أي تلميح إلى أي مكان على وجه الكرة الأرضية رأى فيه الإنسان أول مرة نور الحياة ولا أين عاش أولاً. بيد أن الفصل الثاني يُطلعنا على الأمر كله. فعندما عمل الله السماوات والأرض، واستدعى الشمس والقمر والنجوم، والنبات والطير، وحيوان البر والبحر، لم يكن عندئذٍ قد أفرز مكاناً خاصاً ليكون مسكناً للإنسان. من هنا استراح الله قبل خلْقه الإنسان وأعد له جنة أو فردوساً في أرض عدن شرقي فلسطين. وقد رتب الله الجنة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بطريقة مخصوصة، فأنبت كلَّ نوعٍ من الشجر في تربتها – كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. اثنتان من هذه الأشجار مذكورتان بالاسم: شجرة الحياة المغروسة في وسط الجنة، وكذلك شجرة معرفة الخير والشر. وكانت الجنة مرتبة بحيث إن نهراً كان ينبع من مرتفعات عدن اخترقها وتشعب إلى أربعة رؤوس، هي فيشون وجيحون وحدّاقل والفرات.

وقد بُذل عبر العصور مقدارٌ كبير من الجهد والعناء في سبيل تحديد الموضع الذي كانت فيه جنة عدن. وقُدِّمت تصورات شتى حول ذلك النهر الذي اخترق الجنة آتياً من عدن، والأنهر الأربعة التي تفرعت منه، واسم منطقة عدن، والفردوس الذي غُرِس هناك. إلا أن جميع هذه التصورات لم تتعد حيز الحزر والتخمين، ولم يتأيد أيٌّ منها بالبرهان القاطع. ولكنَّ تفسيرين يبدوان أقرب إلى المعقول: الأول يذهب إلى أن عدن كانت في أنحاء أرمينيا شمالاً، والآخر يرى أنها كانت أبعد إلى الجنوب، وبالتحديد في بابل. ومن الصعب أن تقرر أي الرأيين أصوب. فالتفاصيل الواردة في الكتاب المقدس لم تعد تنفع لتحديد مكان الجنة.ولكن عندما نذكر أن الناس الذين تحدروا من آدم وحواء، مع أنهما طُردا من عدن، لبثوا أولاً في تلك المنطقة عموماً (تكوين **4**: **16**)، وأن فُلك نوحٍ بعد الطوفان استقر على جبل أراراط (تك **8**: **4**)، وأن البشرية الجديدة بعد الطوفان انتشرت من بابل إلى أنحاء الأرض كلِّها (تك **11**: **8** و **9**)، عندئذٍ لا نكاد نشك أن مهد البشرية كان في تلك المنطقة التي تحدها أرمينيا في الشمال وشنعار في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجنوب. وفي الزمن الحديث توصل العلماء إلى تأييد ما يعلِّم به الكتاب المقدس في هذا الموضوع، صحيح أن البحث التاريخي فيما مضى قد قام بكل أصناف التخمينات حول موطن البشرية الأصلي، باحثاً عنه في جميع أنحاء الأرض مكاناً بعد مكان، إلا أنه يعود أدراجه شيئاً فشيئاً. فعلم الأعراق البشرية وتاريخ الحضارة وفقه اللغة المقارن، تشير كلُّها إلى آسيا باعتبارها مقراً لمهد البشرية.

والبند الثاني الذي يلفت انتباهنا في (تكوين 2) هو الوصية الاختبارية التي أعطيت للإنسان. وهذا الإنسان الأول يُدعى في النص الأصلي الإنسان (ها آدم) لأنه كان لوحده فترةً ولم يكن معه أحد غيره مثله. ولا يرد اسم آدم أصلاً دون أداة التعريف قبل (تكوين 4: 25)، حيث يصير الاسم شخصياً أول مرة. وهذا يبين بوضوح أن الإنسان الأول الذي كان فترةً هو الكائن البشري الوحيد، كان بداءة الجنس البشري وأصله ورأسه. وبهذه الصفة تلقى مهمة مزدوجة عليه إنجازها: أولاً، أن يتعهد جنة عدن ويحافظ عليها. وثانياً، أن يأكل بحرية من جميع شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر.

أما الشق الأول من المهمة فيحدد علاقة الإنسان بالأرض؛ وأما الثاني فعلاقتَه بالسماء. فقد كان على آدم أن يُخضع الأرض ويتسلط عليها، على أن يقوم بذلك بمعنى مزدوج: إذ عليه أن يحرثها ويشقها، وبذلك يستخرج منها كل الكنوز التي خزنها فيها الله لمنفعة الإنسان؛ كما عليه أيضاً أن يسهر عليها ويصونها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويحميها من كل شر قد يهددها – وباختصار، عليه أن يحرسها من عبودية الفساد التي تئن تحت نيرها الخليقةُ كلُّها الآن.

ولكن لا يستطيع الإنسان تلبية دعوته المتعلقة بالأرض إلا إذا لم يكسر حلقة الاتصال التي تربطه بالسماء، وإلا إذا ظلَّ مؤمناً بكلام الله وطائعاً لوصيته. فالمهمة المزدوجة هي في جوهرها مهمةٌ واحدةٌ إذاً. إذ على آدم أن يسيطر على الأرض، لا بالكسل والخمول، بل بعمل عقله وقلبه ويده.

إنما لكي يُحكم، عليه أن يخدم: عليه أن يخدم الله الذي هو خالقه والمشترع له. فالعمل والراحة، والحُكم والخدمة، والدعوة الأرضية والسماوية، والمدنية والدين، والحضارة والتديُّن، هذه الثنائيات تسير معاً منذ البداية. فكلُّ ثنائي ينتمي أحده للآخر، وكلاهما يحدِّدان في دعوة واحدة غاية الإنسان العظيمة والمقدسة والمجيدة. وكلُّ تحضير، أي كل عملٍ يتولاه الإنسان كي يُخضع الأرض، سواءٌ أكان الزراعة وتربية المواشي، أم التجارة والصناعة أم العلم وما شابه، إنما هو تلبيةٌ لدعوةٍ إلهية واحدة. ولكن إذا أراد الإنسان أن يكون هكذا ويبقى كذلك، فعليه أن يستمر في الاعتماد على كلمة الله والطاعة لها. إذ ينبغي أن يكون الدين هو المبدأ الذي يُحيي الحياة بكاملها ويقدسها بجعلها خدمةً لله.

بندٌ ثالث يطالعنا به الفصل الثاني من سفر التكوين هو إعطاء المرأة للرجل وتأسيس الزواج. فقد نال آدم الكثير، إذ مع كونه صُور من تراب الأرض، كان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رغم ذلك حاملاً لصورة الله. وقد وُضع في جنةٍ مفعمة بالجمال والبهجة ومجهـــزة كلياً بكل ما هو شهيٌّ للنظر وجيد للأكل. وتلقي آدم المهمة المفرحـــة القاضـــية بالاعتناء بالجنة وإخضاع الأرض. وكان عليه في ذلك أن يسير وفقاً لوصية الله بأن يأكل ما شاء من كل شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر. ولكن مهمـــا كانت الخطورة الممتازة التي نالها ذلك الإنسان الأول بحيث كان طبيعياً أن يشكر الله على كل ما أنعم به عليه، فإنه لم يكن راضياً ولا مكتملاً. وسببُ ذلك مُبين له من قبل الله نفسه. إنه يكمن في الوحدة. فليس جيداً للإنسان أن يكون وحـــده. فليس في تكوينه أن يبقى وحيداً، إذ لم يُخلق هكذا، وطبيعته ميالةٌ إلى الاجتماع – إنه يحتاج إلى رفيق. فيجب أن يُتاح له التعبير عن دخيلة نفسه، والكشـــف عـــن طويته، وإعطاء ذاته للغير. يجب أن يُتاح له سَكب قلبه في صُوَرٍ تعبر عن وجدانه. يجب أن يشارك في وعيه كائناً يقدر أن يفهمه ويشعر معه ويحيا بمعيّته. فمـــاذا في الوحدة غير البؤس والهجران والذبول والاضمحلال؟ ويا لها من وحشةٍ رهيبة أن يكون الإنسان وحده!

والله الذي خلق الإنسان هكذا وبه هذه الحاجة إلى التعبير والتواصـــل، يستطيع وحده تعالى أن يسد هذه الحاجة بما في قدرته من عظمة ونعمة. فوحـــده يستطيع أن يخلق له معيناً نظيره يسير معه جنباً إلى جنب، ويكون مرتبطـــاً بـــه، ويناسبه تماماً كقسيمٍ يكمله. ويفيدنا الكتاب في (تكوين 2: 19 – 21) إن الله صنع كل حيوانات البرية وكل طيور السماء وأحضرها إلى آدم ليرى أنْ ليس بين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كل تلك المخلوقات كائنٌ واحد يستطيع أن يكون رفيقاً له ومعيناً. وليس غرض هذه الآيات أن تُشير إلى التعاقب الزمني الذي فيه خُلق الحيوان والإنسان، بل بالأحرى أن تشير إلى التراتب المادي، أي إلى رتبةِ كلٍّ، إلى الدرجتين المتفاوتتين اللتين يقف عليهما كلُّ واحدٍ من نوعي الخلائق هذين في علاقته بالآخر. هذه العلاقة ذات الاختلاف في الرتبة، مبينة أولاً في حقيقة كون آدم هو الذي سمى الحيوانات.

إذاً، فهم آدم حقيقة المخلوقات كلها ونفذ إلى صلب طبيعتها، بحيث استطاع أن يصنفها ويقسمها ويعين لكلٍّ بين مُجمل الأشياء المكانة التي من حقه. وعليه، فإذا كان لم يجد بين هذه المخلوقات كلِّها مخلوقاً واحداً له علاقةٌ به، فلم يكن هذا نتيجة الجهل ولا الإعتداد الفارغ بالذات أو الكبرياء. بل إن هذا نشأ بالأحرى من حقيقة وجود فرقٍ في النوع بينه وبين سائر المخلوقات الأخرى، فرق لا في الدرجة وحسب بل في الجوهر. حقاً أن بين الحيوان والإنسان كثير من أوجه التشابه: فكلاهما كائن عضوي، ولكليهما حاجاتٌ شتى وشهوة للطعام والشراب، وكلاهما يتناسل؛ ولكليهما الحواس الخمس، من شمٍّ وذوق ولمس ونظر وسمع؛ وكلاهما يشتركان في النشاطات الدنيا المتعلقة بالتمييز والوعي والإدراك. غير أن الإنسان، مع هذا كله، مختلفٌ عن الحيوان. فله عقلٌ وفهم وإرادة، وتالياً لهذه عنده دين وأخلاق ولغة وقانون وعلم وفن. وبينما هو أيضاً كُوِّن من تراب الأرض فعلاً، إلا أنه تلقى نسمة الحياة من العلا. فهو كائن عضوي، لكنه أيضاً كائنٌ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

روحي وعقلاني وأدبي. لهذا السبب لم يجد آدم لنفسه معيناً نظيره. وقد سمى الحيوانات كلها، لكن أحداً منها لم يستحق الاسم الملوكي الرفيع، أي الإنسان.

وعندما لم يجد الإنسان ضالته المنشودة، عندئذٍ أعطى الله الإنسان ما لم يكن الأخير قادراً على توفيره، وذلك بمعزلٍ عن ذكاء الإنسان وإرادته كلياً، ودون أي جهد ساهم الإنسان به. وأحسن الأشياء تأتينا عطايا، فتقع في أحضاننا دون عناءٍ منا ولا ثمن. ونحن لا نكسبها ولا نُحرزها، بل ننالها هباتٍ مجانيةً. وأثمن هدية وأغلاها يُمكن أن ينالها الرجل على الأرض إنما هي المرأة. وقد أُعطى هذه الهدية في سُبات عميق، إذ كان غير واعٍ، ودون أي جهد من إرادته أو أي تعبٍ من يده. صحيح أنه قد سبق هذه العطية البحثُ والتفتيش والفحص والشعور بالحاجة، شأنُها في ذلك شأن الصلاة، حيث يمن الله بعد سؤالنا بالهبة في سلطانه المطلق، وحدَه دون مساعدةٍ منا. وقد كان ذلك كما لو أن الله أهدى بيده المرأة للرجل.

ومن ثم كان أول شعور سيطر على آدم، لما أفاق فرأى المرأة أمامه، هو الدهشة والعرفان بالجميل. فهو لم يشعر أنه غريب عنها، بل عرف فيها حالاً شريكة له في الطبيعة عينها. وقد كانت معرفته لها إدراكاً من قِبله أنه وَجَدَ ما افتقده واحتاج إليه ولكنْ لم يكن قادراً على توفيره شخصياً. وعبر آدم عن دهشته بأول نشيد زفاف تردد صداه في الأرض: "هذه الآن عظمٌ من عظامي، ولحم من لحمي: هذه تدعى امرأةً لأنها من امرئٍ أُخذت!" وهكذا يبقى آدم أصل الجنس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البشري ورأسه. فالمرأة لم تُخلق فقط إلى جانبه بـــل منـــه (1 كورنثـــوس 11: 8).فمثلما أخذت المادة التي صُنع منها جسد آدم من الأرض، كذلك كان جنب آدم أساس الحياة لحواء. ولكن مثلما صار الإنسان الأول المأخوذ من تراب الأرض كائناً حياً بنسمة الحياة التي جاءته من علٍ، كذلك صارت المرأة الأولى المأخوذة من جنب آدم كائناً حياً بقدرة الله الكلية الخلاقة. فهي من آدم، إلا أنها مع ذلك إنسانٌ آخر غير آدم. إنها مرتبطة به، غير أنها مع ذلك مختلفة عنه. فهي تنتمي إلى الجنس نفسه، لكنها مع ذلك تشغل داخل الجنس مكانها الخاص الفريد. وجودها تـــابع لوجوده، ومع ذلك فهي حرة. وهي بعد آدم ومن آدم، إلا أنها تدين بوجودها لله وحده. وهكذا تؤدي المرأة دور المعين للرجل كي يتمكن من القيام بدعوته المختصة بإخضاع الأرض. وهي معين له، لا كسيدة رفيعة ولا كعبدة وضيعة، بل بوصفها كائناً فرداً مستقلاً وحراً تلقت وجودها لا من الإنسان بل من الله، وهي مسؤولة أمام الله، وقد وهِبت للإنسان كعطية مجانية غير مكتسبة.

****

وهكذا يطلعنا الكتاب المقدس على أصل الإنسان، ذكراً وأنثى. وهذا هو فكر الكتاب بخصوص تأسيس الزواج ونشأة الجنس البشري. ولكن تفسيراً آخر مختلفاً جداً يُضفي اليوم على هذه الأمور، وذلك باسم العلـــم وبســـلطة العلـــم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

المزعومة. ولما كان هذا التفسير الجديد يزداد انتشاراً حتى بين العامة، وبما أنه بالغ الأهمية بالنسبة إلى كونه نظرةً في الحياة والعالم، فمن الواجب أن نركز اهتمامنا ناحيته بعض الوقت ونحاول تقويم الأساس الذي بُني عليه.

إذا رفض المرء ما هو واردٌ في الكتاب المقدس عن أصل الجنس البشري، بات من الضروري طبعاً أن يُقدِّم رواية أخرى للموضوع. فالإنسان موجود ولا أحد يستطيع الفرار من طرح السؤال الذي يستفسر عن مصدر الإنسان. وإذا كان الإنسان غير مدين بوجوده لقدرة الله الكلية الخلاقة، يكون مديناً له لشيءٍ آخر. وإذ ذاك لا يبقى من حلٍّ سوى القول بأن الإنسان طور نفسه تدريجاً من الكائنات الدنيا السابقة له حتى أوصل نفسه إلى ما هو عليه الآن من مركزٍ سامٍ في سلَّم الكائنات. وعليه، فالكلمة السحرية التي ينبغي أن تحل المشكلات المتعلقة بأصل المخلوقات وجوهرها حلاً ما، إنما هي التطور. ولما كان التعليم بالخلق مرفوضاً، فعلى القائل بالتطور أن يقبل بطبيعة الحال أن شيئاً ما أو غيره قد تواجد في البدء، ما دام لا شيءٌ يُمكن أن يخرج من اللاشيء. على أن التطوري، نظراً لهذه الحقيقة، ينطلق من الافتراض الكيفي والمستحيل كلياً والقائل بأن المادة والطاقة والحركة موجودةٌ أزلاً. وإلى هذا يُضيف أنه قبل بروز نظامنا الشمسي إلى الوجود كان العالم مؤلفاً فقط من كتلة غازية شواشية. تلك كانت نقطة الانطلاق للتطور الذي نتج منه تدريجياً عالمُنا الحالي وكلُّ خلائقه. فبالتطور تواجد النظام الشمسي والأرضي. وبالتطور تواجدت طبقات الأرض وما فيها من خامات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وبالتطور برز الحيُّ إلى الوجود من عديم الحياة عبر سلسلة من السنين لا متناهية. وبالتطور وُجد النبات والحيوان والإنسان. وبالتطور أيضاً، في دائرة البشر، برز إلى الوجود التمايُز الجنسي والزواج، والعائلة والمجتمع والدولة، واللغة والدين والأخلاق، والقانون والعلم والفن، وسائر قِيَم الحضارة، وذلك وفقاً لنظامٍ تدريجي. ولو استطاع المرء أن ينطلق من هذا الافتراض الواحد القائل بأن المادة والطاقة والحركة موجودةٌ أزلاً، لكان في وسعه، على ما يُفترض، ألا يحتاج فيما بعد إلى التسليم بوجود الله. وعندئذٍ يفسِّر العالم نفسه بنفسه. ومن ثم يُعتقد أن العلم يجعل وجود الله أمراً لا ضرورة له.

وتمضي نظرية التطور لتؤلِّف فكرتها عن أصل الإنسان على الوجه التالي: لما بردت الأرض فصارت ملائمة لولادة المخلوقات الحية، نشأت الحياة في الظروف المتواجدة آنذاك، على الأرجح بطريقةٍ تكونت بها أولاً مركبات زلالية عديمة الحياة، وإذ أثّرت في هذه المركبات عوامل شتى واكتسبت عدة خصائص، تطورت منها– بطريقة التخالط والتمازُج بعضها مع بعض – جرثومةُ الحياة الأولى المعرفة بالبروتوبلازما. ومن ثم ابتدأ التطور المفضي إلى نشوء الأحياء. وهذه العملية قد تكون استغرقت مئات الملايين من السنين.

هذه البروتوبلازما شكلت النواة الزلالية في الخلية التي تُعتبر الآن الوحدة الأساسية في تكوين الأحياء، من نبات وحيوان وإنسان. وهكذا كانت الحيوانات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الوحيدة الخلية (البرزويات) هي أول الكائنات الحية. وهذه البرزويات، تبعاً لكونها جامدة أو متحركة، تطورت مع الزمن إلى نباتاتٍ أو حيوانات. وفي عالم الحيوان تأتي النُقاعيات (الحُيَيْوينات المعروفة باسم **Infusoria**) في أدنى السلَّم، ولكن من هذه النُقاعيات نشأ بالتدريج – عن طريق مراحل شتى توسُّطية وانتقالية – أنواع الحيوان العُليا المعروفة بالفقاريات واللافقاريات والرخويات والشعاعيات. وعلى ذلك تشعبت الحيوانات الفقارية إلى أربع فئات: الأسماك والبرمائيات والطيور والثدييات. وهذه المجموعة بدورها انقسمت إلى ثلاث طوائف: ذوات منقار البطة (البلاتبوس)، الجرابيات (كالكنغر)، المشيميات. وهذه الأخيرة تنقسم أيضاً إلى القوارض وذوات الحافر والحيوانات المفترسة والرئيسيات. أما الرئيسيات فتُصنف أيضاً ما بين نصف قرود وقرود وأشباه الإنسان.

وعند القائلين بالتطور أننا حينما نقارن التركيب العضوي الطبيعي في الإنسان وفي هذه الحيوانات كُلَّها، يتبين لنا أن الإنسان أقربُ في النوع، وبحسب نظامٍ مماثلةٍ متزايد، إلى الفقاريات والحيوانات اللبونة (أو الثدييات)، والمشيميات، وأنه يماثل أكثر الكل أشباه الإنسان التي يمثلها الأورانج والجِبُّون في آسيا، والغوريلا والشمبانزي في أفريقيا. ولذلك يذهب التطوريون إلى أن هذه الطبقة الأخيرة يجب أن تُعتبر أدنى أقرباء الإنسان. حقاً أنها تختلف عن الإنسان من حيث الحجم والشكل وما إليهما، إلا أنها كلَّها مماثلة له في التركيب العضوي الأساسي. ورغم ذلك فإن الإنسان لم يتحدر من أي واحدٍ من هذه القرَدة الموجودة الآن، بل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من قردٍ شبيه بالإنسان انقرض منذ أمدٍ بعيد. وبحسب نظرية التطور هـــذه فـــإن القرَدة والبشر أقرباءُ دمٍ ينتمون جميعاً إلى السلالة عينها، وإن كان ينبغي أن يُعدُّوا أبناءَ إخوةٍ وبناتٍ أكثر منهم إخوةً وأخوات.

تلك هي فكرة نظرية التطور. وهكذا، بحسبها، سارت الأمور في مجراها. ولكن القائلين بها شعروا أنهم مدعوون ليقولوا شيئاً عن الطريقة التي حدث بها كلُّ ما حدث. فكان في غاية السهولة أن يقولوا إن النباتات والحيوانات والبشر كونت جميعاً سلسلة من الكائنات متوالية وغير منقطعة الحلقات. ولكنهم شعروا أن عليهم أن يفعلوا شيئاً من أجل البرهنة على أن مثل هذا التطور كان ممكناً بالفعـــل، وأن قرداً قد يتطور مثلاً بالتدريج ليصير إنساناً. وقد حاول شارلز داروين تقديم مثل هذا البرهان في سنة **1895**. فقد لاحظ أن بعض النباتات والحيوانات – كالورود والحمائم مثلا – يُمكن أن تُحمل على إظهار بعض التبدلات الهامة، وذلك بواسطة الانتخاب الطبيعي المُعان اصطناعياً. وهكذا عثر على الفكرة القائلة بأن انتخابـــاً طبيعياً كهذا ربما كان قد نشط أيضاً في الطبيعة لكنه لم يكن اصطفاءً أو انتخابـــاً يسيطر عليه تدخُّل الإنسان بل كان لا واعياً واعتباطياً وطبيعياً. وبهذه الفكرة هبط عليه نور، فإذ قبل فرضية الاصطفاء الطبيعي هذه، اعتبر نفسه في موقعٍ يسمح له بأن يفسر كيف تجتاز النباتات والحيوانات عدة تغييرات بالتدريج، وكيف يتأتى لها أن تتغلَّب على النقائض التنظيمية فيها وتُحرِز الحسنات، وذلك بطريقة تمكنـــها دائماً من تجهيز نفسها على نحو أفضل لتفوز في منافستها لغيرها في صراعها لأجل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البقاء. فإن داروين رأى أن الحياة، في كل زمان ومكان، وفي الخليقة كلِّها إنما هي مجرد صراعٍ لأجل البقاء. وبينما قد يتبين لنا من المراقبة السطحية أن في الطبيعة سلاماً، فما ذلك إلا مظهرٌ خادع. إذ إن الطبيعة تشهد بالأحرى ذلك الصراع الدائم في سبيل الحياة وضرورياتها، ما دامت الأرض أصغر وأحقر من أن تمد جميع الكائنات المولودة فيها بما يكفيها من طعام. ومن هنا تهلك ملايين الكائنات العضوية الحية بسبب الحاجة ولا يقوى على البقاء إلا الأقوى. وهذه الكائنات الأقوى، والمتفوقة على سواها بفضل صفةٍ ما اكتسبتها، تنقل بالتدريج خصائصها الحسنة المكتسبة إلى ذريتها.

لذا تشهد الطبيعة تقدُّماً وتطوراً متراقياً. وبحسب ما ذهب إليه داروين، فإن الانتخاب (الاصطفاء) الطبيعي، والصراع لأجل البقاء، وانتقال الخصائص القديمة والمكتسبة حديثاً، تفسِّر كلُّها ظهور فصائل جديدة كما تفسِّر الانتقال من وضع الحيوان إلى وضع الإنسان.

عند تقييم نظرية التطور هذه، من الضروري قبل كل شيء أن نميز بكل وضوح بين الوقائع التي لها مساس بها والنظرة الفلسفية التي تنظر بها إلى تلك الوقائع. وخلاصة الوقائع أن الإنسان يشارك سائر المخلوقات الحية أنواعاً شتى من الخصائص ولاسيما الحيوانات العُليا، ومنها على الخصوص القردة. وبالطبع، كانت هذه الوقائع معروفةً في معظمها قبل داروين أيضاً، لأن التماثل في التركيب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

العضوي، وفي سائر أعضاء الجسم ونشاطاتها، وفي الحواس الخمس، وفي الـــوعي والإدراك، وما شابه ذلك، هو شيء واضحٌ لكل ذي عينين بصيرتين، وليس بعرضةٍ لأي إنكار. على أن علوم التشريح والأحياء ووظائف الأعضاء والنفس، قد بحثت مؤخراً في هذه الخصائص المشتركة على نحو أوفى من ذي قبل إلى أبعد حد. وتبعاً لذلك، زادت خصائص التماثل هذه عدداً وأهمية. وقد ساهمت علومٌ أخرى أيضاً بقسطها في إثبات هذه التماثُلات ما بين الإنسان والحيوان. فعلم الأجنة مثلاً أشار إلى أن الكائن البشري في بداءاته داخل الرحم يُشـــبه الســـمك والبرمائيـــات والثدييات الدنيا. كما كشف علم الإحاثة (البليونتولوجيا)، وهو يبحث في أشكال الحياة وظروفها في العصور القديمة كما تمثلها المستحاثات الحيوانية والنباتية، عن بقايا كائنات بشرية – من هياكل عظمية وعظام وجماجم وأدوات وحلي وما شابه وقد دلت هذه الكشوفات على أن قوماً من البشر عاشوا منذ عدة قرون مضت في بعض أجزاء الأرض بطريقة بسيطة جداً. ثم إن علم الأعراق البشرية (الانثولوجيا) قد علّم أن قبائل وشعوباً عاشوا منفصلين كثيراً عن الأمم المتمدينة سواءٌ روحياً أم جسدياً.

إن أُعلنت هذه الوقائع المجموعة من عدة جهات، حتى انشغلت الفلسفة بمزجها في نظرية افتراضية، هي فرضية تطور جميع الأشياء – ولاسيما الإنسان – على نحـــو تدريجي. ولم تطلع هذه الفرضية بعد اكتشاف الوقائع ولا بسببها، بـــل كانـــت موجودة قبل ذلك بزمن بعيد ولها بين الفلاسفة عدة مناصرين، لكنها طُبقت آنذاك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على الوقائع التي اكتُشفت بعضُها حديثاً. وساد الاعتقاد أن النظرية أو الفرضية القديمة قد استقرت الآن على الوقائع المرسَّخة. وانطلق ما يُشبه هتافَ النصر بسبب كون ألغاز العالم كُلها قد حُلَّت، وجميع الأسرار قد كشفت، ما عدا ما يتعلق منها بالمادة والطاقة الأزليتين. ولكن ما كاد هذا الصرح الشاهق، صرح فلسفة التطور، يرتفع حتى انهالت عليه الهجمات فأخذ يتقوَّض. وقد قال أحد الفلاسفة الثقات إن الداروينية ظهرت في العقد السابع من القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في العقد الثامن منه، ومن ثم تعرضت للفحص من قبل القليلين في العقد العاشر، حتى إذا غرب القرن التاسع عشر وأطل العشرون كان الكثيرون يشنون عليها أعنف الحملات.

وقد تركزت أول الهجمات وأعنفها على الكيفية التي فسر بها دارون بروز مختلف الفصائل إلى الوجود. فلم يكن في دعوى الصراع لأجل البقاء والاصطفاء الطبيعي ما يفي بالتفسير. صحيحٌ أن في عالَمي النبات والحيوان صراعاً شرساً في الغالب، ولهذا الصراع تأثيره البالغ في الطبيعة والوجود. ولكن لم يُقدَّم أي برهان يثبت أن هذا الصراع يستطيع إحداث فصائل جديدة. وقد يُسهم الصراع لأجل البقاء في تقوية النزعات والقدرات، والأعضاء والإمكانات، عن طريق التمرُّن والجهد. فهو قادر على تطوير ما هو موجود من قبل، لكنه لا يقدر أن يوجِد ما كان غير موجود. أضف أنه من قبيل المغالاة، كما يعرف أيُّ إنسان من جراء اختباره الشخصي، القول بأنه لا يوجد دائماً وفي كل مكان إلا الصراع.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ففي العالم ما يتعدى البغضاء والعداء. إذ فيه أيضاً محبة وتعاون ومؤازرة. والاعتقاد أن ليس في أي مكان إلا الحرب ويشنُّها كُلٌّ على كلٍّ، إنما هو متحيز شأنه شأن الرأي الرومنطي الذي شاع في القرن الثامن عشر والقائل بأن الراحة والسلام يعمّان جميع أنحاء الطبيعة. فعلى مائدة الطبيعة الفسيحة أمكنةٌ تتسع للكثيرين، والأرض التي يجعلها الله مكاناً لسُكنى الإنسان غنيةٌ غنىً لا يُستنفد. وبالتالي، ففي الطبيعة وقائع وظواهر لا علاقة لها بأي صراعٍ لأجل البقاء فلا أحد مثلاً يستطيع أن يبين علاقة الصراع لأجل البقاء بألوان جلد الحية وأشكاله، وباللون الأسود في أسفل بطون كثير من الفقاريات، وابيضاض الشعر مع التقدم في السن، واصفرار الأوراق في الخريف. وليس صحيحاً أيضاً أنه في معركة البقاء هذه تفوز الأنواع الأقوى دائماً دون غيرها، وتنهزم الأضعف كل حين. فربَّ صُدفةٍ كما تسمى، سواءٌ أكانت ظرفاً سعيداً أم سيئاً، تهزأ غالباً بكل هذه الحسابات. إذ يؤخذ شخصٌ قويٌّ أحياناً في عز شبابه، ويعمّر طويلاً في بعض الأحيان رجلٌ ضعيف جسدياً، أو إمرأةٌ، حتى يبلغ من العمر عتياً.

مثل هذه الاعتبارات دفعت عالماً هولندياً إلى استبدال نظرية أخرى بالانتخاب الطبيعي الذي ذهب إليه داروين، إذ قال ذلك العالم بالتغيار الأحيائي أو الطفرات. وبحسب هذه النظرية، لا يحدث تغير الفصائل بانتظام وتدريج، بل بصورة فجائية أحياناً، وبطفرات أو قفزات. ولكن في هذه الفكرة أيضاً ما يُثير السؤال: هل هذه التغيرات تمثل فعلاً فصائل جديدة، أو هي مجرد تعديلات في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصيلة التي سبق وجودها. وهنا أيضاً يتعلق الجواب عن هذا السؤال بما يعنيه بالضبط مفهوم الفصائل أو الأنواع الرئيسية.

وفي القرن الحالي لم تتزعزع فقط مكانة الصراع لأجل البقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، بل تزعزعت أيضاً فكرة انتقال الخصائص المكتسبة. فإن انتقال الصفات الطبيعية الموروثة من الآباء إلى الأبناء هو حجةٌ ضد الداروينية وليس لمصلحتها، ما دامت تعني ضمناً بقاء النوع ضمن الفصيلة. فها قد مضت قرون والبشر يلدون بشراً وليس شيئاً آخر. أما بخصوص انتقال الخصائص المكتسبة، مستقلَّة عن تلك المتوارثة، فثمة – الآن – اختلاف كبير في الآراء حتى لا يُمكن أن يُقال في هذا الشأن أي قول قاطع. ولكن الثابت فقط أن الخصائص المكتسبة غالباً جداً ما لا تنتقل من الآباء إلى الأبناء. فالختان مثلاً مارسته شعوبٌ عديدة على مدى قرون طويلة، ولكن ذلك لم يخلِّف أي أثر في المواليد بعد تلك الفترة الطويلة. ولا يتمُّ الانتقال بالوراثة إلا ضمن حدودٍ معينة، وهو لا يُحدِث أي تغيير في النوع أو الفصيلة. فإذا كان التعديل يحدث اصطناعياً، فيجب الحفاظ عليه اصطناعياً أيضاً، وإلا فُقد من جديد. وباختصار، لا تستطيع الداروينية أن تفسِّر لا الوراثة ولا التغيير. فهاتان حقيقتان لا يُمكن إنكارهما، ولكن ارتباطهما وعلاقتهما مازالا خارج نطاق معرفتنا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهكذا أخذ رجال العلم يتخلَّون لأكثر فأكثر عن الداروينيـــة بمعناهـــا الأضيق، أي محاولة تفسير ما يلحق الأنواع من تغيُّر بالاستناد إلى الصراع لأجل البقاء، والاصطفاء الطبيعي، وتوارث الخصائص المكتسبة. وبذا تحققت نبوءة واحدٍ من أول خصوم الداروينية وأبرزهم، إذ قال إن هذه النظرية في تفسير أسرار الحياة لن تدوم حتى إلى أواخر القرن التاسع عشر. ولكن ما هو أهم من هذا أن النقد لم يوجَّه ضد نظرية داروين وحدها بل ضد نظرية التطور بذاتها أيضاً. وبطبيعة الحال، تبقى الوقائع وقائع ولا يمكن تجاهُلها. أما النظرية فشيءٌ آخر، شيءٌ ينشئه الفكر على أساس الوقائع. وما قد أصبح واضحاً أكثر فأكثر هو أن نظرية التطور لم توائم الوقائع بل بالأحرى دخلت في صراعٍ صريحٍ معها.

فقد أظهرت الجيولوجيا مثلاً أن الأصناف العليا من الحيوان وتلك الدنيا منه لا تعقب بعضُها بعضاً بالترتيب، بل إنها في الواقع تواجدت بعضها إلى جنب بعض منذ قرونٍ عديدة. كما أن الباليونتولوجيا لم تطلع بدليلٍ واحدٍ حاسم على وجود أنواعٍ انتقالية بين الفصائل العديدة من الكائنات العضوية. والحال أن مثل هذه الأنواع كان يجب أن تتوافر بكمية كافية، وذلك بحسب نظرية داروين حول التطور التدريجي إلى أبعد حد عن طريق التغيرات الطفيفة إلى آخر حد. حتى ذلك النوع المرغوب المطلوب بكل جدٍّ واجتهاد لكونه حلقة الوصل بـــين الإنســـان والقرد، لم يتم اكتشافه قط. وبينما يشير علم الأجنة فعلاً إلى تشابه ظاهري معين بين مختلف المراحل التي يمر بها تطور الجنين البشري وجنين حيوانات أخرى، يتبين

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن هذا التشابه لا يعدو كونه ظاهرياً فقط، لسببٍ بسيط هو أنه لا يولد من جنين حيوان أي كائن بشري البتة، كما لا يولد من جنين البشر حيوان. وبكلامٍ آخر، يسير كلٌّ من الإنسان والحيوان في اتجاهين مختلفين منذ الحبَل فما بعد، ولو كانت الفروقات الداخلية لا يمكن إدراكُها حينئذٍ. ثم إن علم الأحياء لم يقدّم إلا النـــزر اليسير من الدعم للفرضية القائلة بأن الحياة تولَّدت تلقائياً، بحيث إن كثيرين الآن يقرون باستحالة ذلك ويعودون إلى الفكرة القائلة بوجود قوة حياة خاصة أو طاقة حياة معينة. كما أن الفيزياء والكيمياء، نسبةً إلى المدى البعيد الذي بلغته أبحاثهما، قد وجدا عدداً متزايداً من الأسرار والعجائب في عالم اللامتناهيات الصِّغر، مما حدا بالكثيرين إلى العودة إلى فكرة أن المقوِّمات الأساسية للأشياء ليست كينوناتٍ مادية بل قوىً. وإذ نكتفي بهذا القدر من البيّنات، نقول إن جميع المجهودات التي قدمت لتفسير الوعي وحرية الإرادة، والعقل والضمير، واللغة والدين والأخلاق، وما إلى ذلك من الظواهر، باعتبار هذه حصيلة مجردة للتطور، لم تُكلَّل بالنجاح. فإن أُصول هذه الظواهر، شأنها شأن أُصول كل ما سبق ذكره، تبقى مغلفة بالظلمة أمام العلم.

فمن المهم أن نُلاحظ أخيراً أنه لما ظهر الإنسان في التاريخ كان إنساناً بكل معنى الكلمة بالنسبة للروح والنفس، وكان ممتلكاً أيضاً – في كل مكانٍ وزمان – جميع تلك الخصائص والنشاطات البشرية التي يُحاول العلم أن يكتشف أُصولها. فلا يُمكن أن يوجد في أي مكان كائناتٌ بشرية بلا عقلٍ ولا إرادة، ولا تفكيرٍ ولا ضمير، ولا فكرٍ ولا لغة، ولا دينٍ ولا أخلاق، وبلا معرفـــة لمؤسســـتي الـــزواج

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والأسرة، وما شابه هذا. والآن، إذا كانت جميع هذه الخصائص والظـــواهر قـــد تطورت تدريجياً، فلا بد أن يكون مثل هذا التطور قد حدث في أزمنة مـــا قبـــل التاريخ، أي في أزمنة لا نعرف عنها شيئاً بصورة مباشرة، بل نقوم في ما يخصُّـــها بالحزر والحدس على أساس وقائع قليلة لوحظت في أزمنة لاحقة. ولذلك، فإن أي علمٍ يريد أن ينفذ إلى زمان ما قبل التاريخ ليكتشف أصول الأشياء هناك، ينبغي له بطبيعة الحال أن يلجأ إلى الحدس والتخمين والافتراضات. فلا احتمال هنا لوجود بيّنات أو براهين بالمعنى الصحيح للكلمتين. فعقيدة التطور عموماً، واعتقاد تحدُّر الإنسان من الحيوان خصوصاً، لا تدعمهما – ولو بأقل قدر – وقائع مستمدة من أزمنة التاريخ. وفي نهاية المطاف، لا يبقى من جميع العناصر التي تُبنى عليها نظريات كهذه إلا نظرةٌ فلسفية إلى العالم تبتغي تفسير كل الأشياء وكل الظواهر بالاستناد إلى الأشياء ذاتها والظواهر عينها، في حين تُبقي الله خارج حسبانها. وقد اعتـــرف أحد مؤيدي النظرة التطورية بهذا الواقع بكل قحة، فقال: إنما الخيار هو بين التحدر التطوري والمعجزة، بما أن المعجزة أمرٌ مستحيلٌ على الإطلاق، فنحن مضطرون إلى وقوف الموقف الأول. وإن اعترافاً كهذا يبين أن نظرية تحدُّر الإنسان من أشكال حيوانية دُنيا لا تستقر على البحث العلمي الدقيق، بل هي بالأحرى فكرةٌ افتراضية من قِبَل فلسفةٍ قوامها الاعتقاد بالمادية أو بوحدة الوجود.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن فكرة أصل الإنسان ترتبط بفكرة جوهر الإنسان ارتباطاً وثيقاً. لكنَّ كثيرين اليوم يتكلمون غير هذا الكلام إذ يقولون إن الإنسان والعالم، بصرف النظر عما كان أصلهما وتطورهما في الماضي، هما ما هُما الآن وسيظلان على ما هما عليه.

وهذا الموقف الصحيح كلياً بطبيعة الحال: فالحقيقة تبقى هي الحقيقة، بصرف النظر عن حيازتنا لفكرة صحيحة عنها أو لفكرة خاطئة. ولكن المقولة نفسها تصحُّ طبعاً في ما يتعلق بأصل الأشياء. فلو تصوَّرنا أن العالم والبشرية برزا إلى الوجود بصورةٍ من الصور، فإن ما نقترحه لا يغير بالطبع أصلهما الفعلي – وإن كنا نتصور مثلاً أن ذلك تم بالتدريج عبر قرونٍ طوال عن طريق التولُّد الذاتي بكل أنواع التغيرات اليسيرة المتناهية الدقة. فقد برز العالم إلى الوجود بالطريقة التي برز فعلاً، وليس بالطريقة التي نرغبها أو نفترضها. على أن الفكرة التي لنا عن أصل الأشياء ترتبط على نحو لا تنفصم عراه بالفكرة التي لنا عن جوهر الأشياء. فلو أن فكرتنا عن أصل الأشياء خاطئة، فلا يمكن أن تكون فكرتنا عن جوهر الأشياء صحيحة.

فإذا اعتقدنا أن الأرض وجميع ميادين الطبيعة، وكلَّ المخلوقات بما فيها الإنسان على وجه الخصوص، قد برزت إلى الوجود بمعزل عن الله وبمجرد تطور طاقات كامنة في العالم، فإن مثل هذا الاعتقاد ينبغي بالضرورة أن يكون له أهم تأثيرٍ في مفهومنا لجوهر العالم والإنسان.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حقاً إن العالم والإنسان يبقيان هما إياهما بصرف النظر عن تفسيرنا لهما، إلا أنهما يصيران مختلفين بالنسبة إلينا، فتزداد قيمتهما أو تقل، كذلك شأنهما وأهميتهما، تبعاً لما نعتقده في أصلهما وطريقة وجودهما.

هذه حقيقةٌ واضحة جداً بحيث لا تحتاج إلى مزيدٍ من الإيضاح أو الإثبات. ولكن لأن المفهوم القائل بأننا لا نستطيع أن نعتقد ما نشاء في أصل الأشياء ما دام ما نعتقده بخصوص جوهرها لا يؤثر فيه، هو مفهوم يعود إلى الظهور مراراً وتكراراً – مثلاً في ما يخصُّ التعليم المتعلق بالكتاب المقدس، وديانة إسرائيل، وشخص المسيح، والدين والأخلاق، وما شابه – لذلك قد يكون نافعاً الآن، ونحن ننظر في جوهر الإنسان، أن نبيّن مرة أخرى زيف هذا المفهوم. وليس هذا بالأمر الصعب. إذ لو كان الإنسان قد طوَّر نفسه تدريجاً، إن جاز التعبير، بمعزلٍ عن الله وبمجرد فعل قوى طبيعية ناشطة على نحوٍ اعتباطي، لأفضى بنا ذلك على نحو طبيعي بما فيه الكفاية إلى النتيجة التي مفادها أن الإنسان لا يمكن أن يختلف جوهرياً عن الحيوان، وأنه – حتى في تطوره الأعلى أيضاً – يبقى حيواناً. وعندئذٍ لا يبقى أيُّ مجالٍ البتة لنفسٍ مميزة عن الجسد، ولا للحرية الأدبية أو الخلود الشخصي؛ كما أن الدين والحق والأخلاق والجمال تفقد عندئذٍ طابعها المميز الصحيح (المُطلق).

هذه العواقب ليست شيئاً نفرضه نحن على أنصار نظرية التطور، بل هي بالأحرى شيءٌ يستنتجونها هم أنفسهم منها. فدارون نفسه يقول مثلاً إن نساءنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

غير المتزوجات، إذا تمت تنشئتهن في ظل الأحوال التي تخضع لها النحلات الشغالات (العسالات)، قد يعتبرنها فريضة مقدسة أن يقتلن إخوتهن كما تفعل النحلات العاملات، فيما تسعى الأمهات إلى قتل بناتهن المخصبات دون أن يتصدى لهنَّ أحد. فبحسبما يذهب إليه داروين إذاً، أن القانون الخُلقي بمجمله هو حصيلة الظروف، وبالتالي يتغير تبعاً لتغيُّر الظروف. وعليه، فإن الخير والشر، شأنهما أيضاً شأن الحق والباطل، هما لفظتان نسبيتان، ومعناهما وقيمتهما كالأزياء عرضةٌ لتغيُّر الأزمنة والمكنة.

وهكذا أيضاً – بحسب ما يذهب إليه آخرون – لم يكن الدين إلا مساعداً مؤقتاً، إذ هو شيءُ أفاد منه الإنسان في أثناء قصوره عن الصراع ضد الطبيعة. ويمكن الآن أيضاً أن ينفع كأفيون للشعوب، إلا أنه في نهاية المطاف سيذوي بصورة طبيعية ويضمحل متى بلغ الإنسان حريته الكاملة. أما الخطيَّة والتعدّي، والجناية والقتل، فلا تجعل الإنسان مذنباً، بل هي آثار مترتبة على حالة اللاتمدن التي عاش فيها الإنسان سابقاً، وهي آخذة في التناقص نسبةً إلى المدى الذي فيه يتطور الإنسان ويتحسن المجتمع. تبعاً لذلك أن يُعتبر المجرمون أولاداً، أو حيوانات، أو نماذج غير عاقلة، وينبغي أن يُعاملوا على هذا الأساس. فيجب أن تحل الإصلاحيات محلَّ السجون. وبوجيز العبارة، إذا لم يكن الإنسان ذا مصدرٍ إلهي بل حيواني، وكان قد طور نفسه تدريجياً، فهو مدين لنفسه بكل شيء، وهو المشترع لذاته وسيد نفسه وربُّها. جميع هذه الاستدلالات من نظرية التطور (المادية أو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الوحديوجودية) معبَّرٌ عنها بغاية الوضوح في العلوم المعاصرة، كما في أدب عصرنا وفنه ونظام حُكمه العملي.

على أن الحقيقة تعلِّم شيئاً آخر مختلفاً تماماً. في وسع الإنسان، إذا شاء، أن يجعل نفسه يعتقد أنه فعل كل شيءٍ بنفسه، وأنه حرٌّ من كل قيد. غير أنه يبقى من كل ناحية مخلوقاً غير مستقل. فهو لا يستطيع أن يفعل ما يسره. ففي وجوده المادي يبقى خاضعاً للنواميس المفروضة عليه فيما يتعلق بالتنفس ودورة الدم والهضم والتناسُل. وإن هو خالف هذه القوانين ولم يعبأ بها يؤذي صحته ويُتلف حياته. وينطبق نفس الأمر على نفسه وروحه. فليس في وسع الإنسان أن يفكر كما يحلو له، بل هو مقيد بقوانين لم يستنبطها هو بتفكيره ولا وضعها هو، بل إنها متضمنة في فِعل التفكير ذاته وتُعبر عن ذاتها به. وإذا كان لا يُراعي قوانين الفكر هذه، يوقع نفسه في حبائل الضلال والبُطل. وليس في وسع الإنسان أيضاً أن يريد ويتصرف كما يشاء. فإن إرادته خاضعة لضبط العقل والضمير. وإن هو لم يراعِ هذا النظام وهبط بإرادته وتصرفه إلى مستوى الاعتباط والنزوات، فمن المؤكد عندئذٍ أن يعتريه توبيخ الذات واتهامُها والأسف والندم، وتأنيبُ الضمير ووخزه.

فحياة النفس إذاً، لا أقل من حياة الجسد، مبنية على شيء آخر غير الهوى أو الصدفة. فهي ليست في حالة لا ناموسٍ وفوضى، بل هي من كل جهة وبكل نشاطاتها محددة بالقوانين. إنها خاضعة لقوانين الحق والخير والجمال، وبذلك تُبرهن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أنها لم تولد نفسها بنفسها. وبعبارة وجيزة، كانت للإنسان منذ البدء طبيعتُه الخاصة وجوهره الخاص، وهو لا يستطيع أن ينتهكهما ويُفلت من العواقب. ثم إن الطبيعة – في هذه المسائل – أقوى كثيراً جداً من النظرية، حتى إن أتباع عقيدة التطور أنفسَهم ما برحوا يتحدثون عن طبيعة بشرية، وعن صفات بشرية غير منقولة، وعن قوانين في الفكر والأخلاق موصوفة للإنسان، وعن إحساسٍ ديني غريزي. وهكذا نجد أن فكرة جوهر الإنسان تدخل في صراع مع فكرة أصله.

على أننا نجد في الكتاب المقدس توافقاً تاماً بين هاتين الفكرتين، حيث يتوازى أصل الإنسان وجوهره. فلأن الإنسان، وإن كان قد كُوِّن من تراب الأرض حسب الجسد، تلقّى نسمة الحياة من علٍ، وقد خلقه الله نفسُه، فلذلك هو كائنٌ فريد طبيعته الخاصة. وهذا هو جوهر كيانه: إنه يعرض صورة الله وشبهه.

****

إن صورة الله هذه تميز الإنسان عن الحيوانات وعن الملائكة معاً. فمع أنه يشترك مع كليهما في بعض النواحي، فهو يختلف عن كليهما في كونه ذا طبيعة فريدة خاصة.

وبالطبع فإن الحيوانات أيضاً خلقها الله. فهي لم تبرز إلى الوجود من تلقاء ذاتها، بل استُدعيت إلى الوجود بكلمةٍ خاصة من قدرة الله. أضف أن الحيوانات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

خُلقت مباشرة على أنواع شتى، شأنها في ذلك شأن النباتات أيضاً. ولكن الناس جميعاً تحدروا من أبوين زوجين واحدَين، وبذلك يؤلفون سُلالةً واحدة أو جنساً واحداً. إنما هذا لا يصحُّ في الحيوانات، فهي لها – إن صح التعبير – عدة أجداد. من هنا كان غنياً عن البيان أن علم الحيوان حتى الآن لم ينجح في إرجاع جميع الحيوانات إلى نوعٍ واحد. فهذا العلم ينطلق تواً من تحديد ما بين سبعٍ وأربعٍ من المجموعات الحيوانية الرئيسية أو الأنواع الأساسية.

ولذلك فمن المُسَلَّم بصحته أن أغلبية أنواع الحيوان غير موزعة في أنحاء الأرض كلها، بل تعيش في مناطق معينة. الأسماك تعيش في الماء، والطيور في الهواء، وحيوانات البر في أغلبها محدودة الوجود ضمن مناطق محددة: فالدب القطبي مثلاً لا يوجد إلا في أقصى الشمال، والبلاتيبوس المعروف بمنقار البط لا يعيش إلا في أُستراليا. وهكذا ينص سفر التكوين (1: 1) بالتحديد أن الله خلق النباتات، وكذلك الحيوانات، كُلاً كجنسه، أي بحسب نوعه. طبعاً، لا يعني هذا القول أن الأنواع التي خلقها الله هي بالضبط تلك التي يصنفها إليها العلم الآن، على حد ما يفعله لينايُس مثلاً. فأولاً، إن تصنيفاتنا هي دائماً عرضة للخطأ لأن علم الحيوان لدينا لم يكتمل، وهو يميل أحياناً إلى اعتبار المتنوِّعات أنواعاً، والعكس بالعكس. فالمفهوم العلمي المصطنع لنوعٍ من الحيوان أمرٌ صعب التحقيق، وهو دائماً يختلف عن المفهوم الطبيعي للنوع، والذي مازلنا ننشُده. أضف، ثانياً، أن عدداً كبيراً من أصناف الحيوانات، على مجرى القرون، قد انقرض أو أُبيد. ويتضح لنا من البقايا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

التي لدينا من بعضها، كاملةً كانت أو منقوصة، أن أصنافاً شتى من الحيوان، كالماموث مثلاً، مما لم يعد له وجود، كانت ذات مرة وفيرة العدد. ثم إن علينا، ثالثاً، أن نذكر أنه نتيجةً لتأثيراتٍ شتى، حدثت تعديلات وتبديلات كبيرة في عالم الحيوان، الأمر الذي يصعب علينا إرجاع الحيوانات إلى نوعٍ أصلي، بل يجعل ذلك مستحيلاً أيضاً.

زد على هذا بعد أنه مما يلفت النظر في خلق الحيوانات، كما هي الحال في خلق النبات، أن هذه المخلوقات استُدعيت إلى الوجود حقاً بفعل خاص من قبل القدرة الإلهية، ولكن الطبيعة أيضاً أدت خدمة وساطية في هذا الفعل. إذ نقرأ في (تكوين 1: 11) – لتُنبِت الأرض عشباً، وبقلاً يبزر بزراً، وشجراً ذا ثمراً يعمل ثمراً كجنسه، بزره فيه على الأرض؛ وكان كذلك (راجع الآية 12). وعلى الشاكلة نفسها يرد خبرٌ آخر في (1: 20) "لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طيرٌ فوق الأرض". وهكذا كان (الآية 21). وكذلك أيضاً في (الآية 24) لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها؛ وكان ذلك. وهكذا نرى في كل حالة أن الله استخدم الطبيعة كوسيلة. فالأرض، وإن كانت مكيفة ومجهزة لذلك بفضل الله، هي التي تُخرج هذه الخلائق كلها في تمايُزها النوعي الوافر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومن شأن هذا الأصل المخصوص الذي كان للحيوانات أن يلقي ضوءاً على طبيعتها أيضاً. فهذا الأصل يُبين أن الحيوانات مرتبطة بالأرض والطبيعة أكثر جداً من ارتباط الإنسان بهما. صحيحٌ أن الحيوانات كائناتٌ حية، وبذلك هي متميزة عن المخلوقات غير العضوية عديمة الحياة. ولذا أيضاً غالباً ما تُدعى الحيوانات ذوات أنفسٍ حية (تكوين 1: 20 و 21و 24). فحتى الحيوانات لها نفسٌ بالمعنى العام الذي يُفيد مبدأ الحياة.[1] غير أن هذا المبدأ الحي، أي النفس، في الحيوان ما يزال مقيداً تقيداً وثيقاً بالطبيعة وبأيض المادة (نشاط الخلايا العضوية) بحيث لا يستطيع بلوغ أي استقلال أو حرية، ولا يستطيع أن يوجَد عندما ينفصل عن الأيض أو عن دوران المادة. لذلك تموت نفس الحيوان إذا مات. وينتج من هذا أن الحيوانات، العليا منها على الأقل، لها أعضاء حسٍّ مثل التي للإنسان، وتستطيع أن تُحسَّ الأشياء (بالسمع والرؤية والشم والذوق واللمس). وفي وسع الحيوانات أن تكوِّن الصور وتربط هذه الصور بعضها ببعضها. ولكن ليس لديها عقل، ولذا لا تستطيع فصل الصورة عن الشيء الفرد المحسوس والمخصوص. ولا هي تقوى على تحويل الصور أو ترفعيها إلى مفاهيم، ولا على ربط المفاهيم وبالتالي تكوين الأحكام، ولا على الاستدلال بالأحكام لبلوغ القرارات، ولا على تنفيذ القرارات بفعلٍ من الإرادة. فالحيوانات لها إحساسات، وصور، ومجموعات صور مختلطة: لها غرائز ورغبات وميول. إلا أنها تفتقر إلى الأشكال العُليا من الرغبة والمعرفة الخاصة

---

(49) تك 2: 19؛ 9: 4، 10، 12، 16؛ لا 11: 10؛ 17: 11؛ وغيرها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالإنسان وحده، وليس لها عقل ولا إرادة. وهذا كلُّه تعبر عنه حقيقةُ كونهـــا لا تملك لغةً وديناً وأخلاقاً وإحساساً بالجمال، وليس لديها أفكار عن الله والأمور غير المنظورة، وعما هو حقٌ وخيِّر وجميل.

وبذا يرتفع الإنسان عالياً فوق عالم الحيوان. فليس بين الاثـــنين انتقـــالٌ تدريجي بل هوة سحيقة. وغريبٌ عن الحيوان كلُّ ما يكوّن طبيعة الإنسان بالذات، أي جوهّره الخاص. وبالتحديد: عقله وإرادته، فكره ولغته، دينُه وخُلُقيَّته، وما شابه ذلك. لذلك لا يستطيع الحيوان أن يفهم الإنسان مع أن الإنسان يفهم الحيوان. واليوم يحاول علم النفس أن يفسِّر نفس الإنسان بالاستناد إلى نفس الحيوان؛ غير أن هذا عكسٌ للترتيب الصحيح. فنفس الإنسان هي المفتاح الذي يُتيح فهم نفس الحيوان. والحيوان يفتقر ما يملكه الإنسان، إلا أن الإنسان يملك كل ما هو خاص بالحيوان.

ولا نعني بهذا أن الإنسان الآن يفهم طبيعة الحيوان فهماً مطلقاً كلياً. فالعالم بكامله عند الإنسان مشكلةٌ يسعى إلى حلِّها، وفي طوقه أن يسعى، وهكذا أيضـــاً يكون كل حيوان لغزاً حياً. أما أهمية الحيوان فلا تقتصر إطلاقاً على كونه نافعـــاً للإنسان، إذ يوفر له المأكل والمأوى والملبس والزينة. ذلك أن ما يتضمنه إخضاعُ الأرض والتسلُّط عليها هو أكثر جداً من أنه ينبغي للإنسان، في جشعه وأنانيته، أن يحوّل كل شيء بوفرة لمنفعته الخاصة. فإن لعالَم الحيوان أيضاً أهميته بالنســـبة إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

علمنا وفننا، ودیننا وأخلاقنا، فلدى الله كثيرٌ يقوله لنا بواسطة الحيوان. فأفكار الله وكلامه، تتحدث إلينا انطلاقاً من العالم بكامله، وأيضاً من عالم النبات والحيوان. وإذ يتتبع علما النبات والحيوان آثار هذه الأفكار، فهذان العلمان – شأنهما فعلاً شأن العلوم الطبيعية عموماً – هما علمان جليلان لا يجوز أن يحتقرهما أيُّ إنسان ولاسيما المسيحي المؤمن. فضلاً عن هذا، فكم هو غنيٌّ عالمُ الحيوان بما يعني الكثير للإنسان أدبياً وأخلاقياً! فالحيوان يدلُّ على الحد السُفلي الذي ينبغي للإنسان أن يرفع نفسه فوقه. ويُشير إلى المستوى الذي يجب ألا يهبط الإنسان دونه البتة. فقد يصير الإنسان حيواناً، وأقل من حيوان، إن هو طمس نور العقل ونقض علاقته الوثيقة بالسماء وراح يسعى لإشباع جميع رغباته في الأرض، وحسناً اعتُبرت الحيوانات رموزاً إلى فضائلنا ورذائلنا: فالكلب يبين لنا صورة الوفاء، ومن العنكبوت تعلمنا الاجتهاد، والأسد الشجاعة، والحملُ الوداعة، والحمامةُ البساطة، والإيلُ عطشَ النفس إلى الله. وكذلك أيضاً نجد في الثعلب صورة الاحتيال، كما تصوِّر لنا الدودةُ الحقارةَ، والنمرُ القساوة، والخنزيرُ الدناءة، والحيةُ مكرَ الشيطان؛ أما القرد، وهو أشبه ما يكون بشكل الإنسان، فيُبدي لنا ما يبلغه التنظيم العضوي المدهش خلواً من الروح، الروح التي هي من علُ. ففي القرد يرى الإنسان صورته الكاريكاتورية.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وكما أن الإنسان بصورة الله يختلف عن الحيوانات التي دونه، فكـــذلك أيضاً تُميزه هذه الصورة عن الملائكة التي فوقه. أما وجود كائنات كالملائكة فأمرٌ لا يمكن إثباتُه بالجدل العلمي وبمعزلٍ عن كلمة الله المقدسة. فالعلم لا يعرف عن الملائكة شيئاً، ولا يستطيع البرهنة على وجودها، كما لا يستطيع البرهنة على عدم وجودها. على أنه أمرٌ تجدر ملاحظتُه أن اعتقاد وجود كائناتٍ أسمى من الإنسان يصادفنا بين جميع الشعوب وفي كل الديانات، كما أن البشر رغم رفضهم شهادة كلمة الله بوجود الملائكة يعودون إلى اعتقادٍ ما بوجود كائنات عُلْوية، يشوب ذلك ضروبٌ شتى من الخُرافة. وجيلنا الحاضر يقدم الدليل الوفير على ما نقوله هنـــا. فعلى العموم، لم يعد سائداً اعتقاد وجود الملائكة والشياطين. إلا انه بدلاً من ذلك نشأ في دوائر عديدة اعتقادٌ بقوى خفية، قوى طبيعية غامضة، وأشـــباح وأرواح وظهورات موتى، ونجوم حية وكواكب مأهولة، ورجال مريخ وذرات حية، ومـــا شابه هذا. وما يلفت النظر في ما يتعلق بهذه الظواهر، القديمة والحديثة، هو المركز الذي يشغله الروح القدس في مقابلها. فسواءٌ أكان الباطل أم الحـــق في أســـاس الممارسات الأرواحية، فإن الكتاب المقدس يَنهى عن كل كشف للطالع[1] وتعزيم[2]

---

(50) لا 19: 31؛ 20: 27؛ تث 18: 10 – 14.

(51) تث 18: 10؛ إر 27: 10؛ رؤ 21: 8.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتنجيم [1] واستحضار أرواح [2] وعرافة أو استشارة للوسطاء [3] وكل تبصير وسحر، [4] وما شابه ذلك. وبذا يضع الكتاب حداً لكل خرافة كما لكل عدم إيمان حقيقي. فالمسيحية والخُرافة قوتان مناهضتنان إحداهما للأخرى. وما من علمٍ أو تنـــوير أو حضارة يمكن أن تحرس الإنسان من الخرافات، بل بكلمة الله وحدها تحمينا منها. فهذه الكلمة تجعل الإنسان متكلاً كلياً على الله، إلا أنها بذلك تُعتقه من أية علاقة بأي مخلوق. فهي تضع الإنسان في علاقة سوية بالطبيعة، وبذلك تمكنه من إحراز علمٍ طبيعي صحيح.

غير أن الكتاب المقدس يعلّم بالفعل أن الملائكة موجودة. وليست هـــي المبتكرات الأسطورية التي طلع بها خيال البشر، ولا تجسيدات القوى الغامضة، ولا الموتى الذين ارتقوا أمكنةً عُليا. بل إنها كائنات روحية خلقها الله، وهي خاضـــعة لإرادته ومدعوة إلى خدمته. فالملائكة إذاً كائنات نستطيع، في ضـــوء كلمـــة الله المقدسة، أن نكوِّن عنها فكرةً محددة بوضوح تنأى بهـــا عـــن تلـــك الأشـــكال الأسطورية المتوافرة في الديانات الوثنية. فالملائكة، وإن كانوا يفوقون الناس كثيراً

---

(52) لا 19: 26؛ إش 47: 13؛ مي 5: 11.

(53) تث 18: 11.

(54) لا 19: 26؛ تث 18: 10.

(55) تث 18: 11؛ إش 47: 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في المعرفة 1 والقوة، 2 قد صنَعهم مع ذلك الله نفسه وكلمة الله نفسه (يوحنا 1: 3، كولوسي 1: 16)، وعقلهم وطبيعتهم الأدبية يبقيان هما إياهما، بحيث يقال مثلاً عن الملائكة الأبرار إنهم يطيعون صوت الله ويعملون مرضاته (مزمور 103: 20 و 21)، وعن الملائكة الأشرار إنهم لم يثبتوا في الحق (يوحنا 8: 44) ويكيدون المكايد (أفسس 6: 11) ويخطئون (2 بطرس 2: 4).

ولكن على الرغم من هذا التشابه بين الملائكة والبشر، يوجد بينهما فرق كبير، وقوام هذا الفرق، أولاً، حقيقة كون الملائكة بلا نفسٍ ولا جسد، إذ هم أرواحٌ وحسب (عبرانيين 1: 14). صحيح أنهم كانوا يظهرون بهيئات جسمية، إلا أن تعدد الهيئات التي ظهروا بها[3] يشير إلى حقيقة كون هذه الهيئات المتخذة للظهور مؤقتة وقد تغيرت بتغيُّر طبيعة المهمة المؤداة. والملائكة لا يُدعَون مرة واحدة أنفساً، أو ذوات أنفس حية، كما يُدعى الإنسان والحيوان. فإن النفس والروح تختلفان إحداهما عن الأخرى في هذا المجال بحيث أن النفس أيضاً هي في طبيعتها روحية وغير مادية ولا مرئية، وحتى في الإنسان هي كيانٌ مستقلٌّ روحياً، وإن كانت دائماً قوة روحية أو كياناً روحياً متكيفاً مع الجسد ومناسباً له، ويبقى دون الجسد غير

---

(56) مت 18: 10؛ 24: 36.

(57) مز 103: 20؛ كو 1: 16.

(58) تك 18: 2؛ قض 18: 3؛ رؤ 19: 14.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كاملٍ ولا مكتمل. فالنفس هي روحٌ معدة لحياةٍ جسدية. ونفسٌ كهذه تناسب الحيوانات والإنسان على وجه الخصوص. فعندما يفقد الإنسان جسده بالموت، يستمر وجودُه، إنما في حالة تجرد وافتقار، بحيث تكون القيامة في اليوم الأخير استعادة لما هو مُفتقد. غير أن الملائكة ليست نفوساً. إذ لم يُعد الملائكة لحياةٍ في الجسد، ولم يعطوا الأرض مكاناً للسكن بل السماء. فهم أرواح خالصة. وهذا يمنحهم تفوقاً في أكثر من مجال على البشر، إذ هم على صعيد أعلى من المعرفة والقدرة، ولهم بالزمان والمكان علاقةٌ أكثر حرية مما للناس إلى أقصى الحدود، وهم يستطيعون التنقل بحرية أوفر، ولذلك فهم مهيأون جيداً على نحو استثنائي لتنفيذ أوامر الله على الأرض.

ولكن لهذه الامتيازات وجهاً معاكساً – وهذا هو الفارق الثاني بين البشر والملائكة. فلأن الملائكة أرواح خالصة، لذلك يقومون في علاقةٍ طليقةٍ نسبياً بعضهم بالنسبة إلى بعض. وقد خُلقوا في الأصل بعضُهم مع بعض جميعاً، ويستمرون في الوجود بعضهم إلى جنب بعض معاً. فهم لا يؤلفون كلاً عضوياً، أي جنباً واحداً أو جيلاً معيناً. صحيح أن بينهم تراتباً طبيعياً. وبحسب الكتاب المقدس فإن الملائكة ألوفُ ألوفٍ،[1] وأنهم منقسمون إلى ثلاث مراتب: الكروبيم (تكوين 3: 24)، والسرافيم (إشعياء 6)، والعروش والسيادات والرئاسات والقوات

(59) تث 33: 2؛ دا 7: 10؛ رؤ 5: 11.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

(أفسس 1: 21؛ كولوسي 1: 16؛ 2: 10). ثم إن بين الفئات بحد ذاتها تمايزاً في المرتبة: فميخائيل وجبرائيل لهما مكانةٌ خاصة بين الملائكة.[1] إلا أن الملائكة، مع ذلك، لا يؤلفون جنساً واحداً، وليس بينهم قرابة دم، ولا يتناسلون. ففيما لنا أن نتحدث عن البشرية، ليس ثمة ما يُمكن أن ندعوه "ملائكية". ولما اتخذ المسيح الطبيعة البشرية، صار في الحال قريباً لجميع البشر قرابة عصب، وصار أخاً للبشر حسب الجسد. بيد أن الملائكة يعيشون بعضهم قرب بعض، وكلٌّ منهم يحمل حمل نفسه ولا علاقة له بغيره، بحيث إن قسماً منهم سقط فيما ظل الباقون موالين لله.

والفارق الثالث بين الإنسان والملاك مرتبطٌ بالثاني. فلأن الملائكة أرواح وليست لها صلة بالأرض، ولأن ليس بين الملائكة قرابة دم، ولأن لا تمييز في صفوفهم بين آباء وأمهات، ووالدين وأولاد، وإخوة وأخوات، لذلك لا يعرف الملائكة بالاختبار شيئاً عن ذلك العالم القائم بذاته والمكون من علاقات وقرابات، وأفكار ومشاعر، ورغبات وواجبات. وقد يكون الملائكة أقوى من البشر، إلا أنهم ليسوا مثلهم في الخصب والتنوع. فهم يقومون في علاقات أقل، والإنسان يفوقهم في غنى الحياة الوجدانية وعمقها بما لا يكاد يُقاس. حقاً إن المسيح يقول في (متى 22: 30) إن التزاوج سينتهي بنهاية هذا الدهر، ولكن العلاقات التناسلية على

---

(60) دا 8: 16؛ 9: 21؛ 10: 13، 21؛ لو 1: 19، 26.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأرض، رغم ذلك، قد ضاعفت إلى مدىً بالغ الشأن ما في البشرية من كنوز روحية، وهذه الكنوز لن تُفقد في القيامة أيضاً، بل بالأحرى ستبقى مدى الأبدية.

وإذا ما أضفنا إلى هذا كلِّه الاعتبار بأن أغنى إعلان عن الله أعطانا تعالى إياه قد أُعلن لنا باسم الآب، وباسم الابن – الذي صار شبيهاً بنا وهو نبيُّنا وكاهننا وملكنا – وباسم الروح القدس الذي انسكب في الكنيسة، والذي يجعل الله نفسه يسكن فينا، فعندئذ يتأكد لنا أن الإنسان، لا الملاك، قد خُلِق على صورة الله. وفيما يختبر الملائكة قدرة الله وحكمته وصلاحه، يشترك بنو البشر في مراحم الأبدية. فالله هو رب الملائكة، لكنه ليس أباهم؛ والمسيح رئيسهم، لكنه ليس مصالحهم ولا مخلصهم؛ والروح القدس هو مرسلهم وهاديهم، لكنه لا يشهد البتة مع أرواحهم أنهم أولاد الله وورثته ووارثون مع المسيح. من هنا كانت أعين الملائكة شاخصةً إلى الأرض، إذ فيها ظهرت نعمة الله الكلية الغنى، وهناك يُخاض الصراع بين السماء والأرض، وهناك كُوِّنت الكنيسة بوصفها جسد الابن، وهناك ستُضرب ذات يوم الضربة القاضية ويُحرَز نصر الله النهائي. ولذلك تشتهي الملائكة أن تطلع على سرائر الخلاص الذي أُعلِن على الأرض وتتعرف على حكمة الله المتنوعة (أفسس 3: 10؛ 1 بطرس 1: 12).

وعلى ذلك فالملائكة يرتبطون معنا في عدة علاقات، كما نحن في علاقة متعددة الجوانب بهم. واعتقاد وجود الملائكة ونشاطاتها ليست له القيمة ذاتها التي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للإيمان الذي به نثق في الله ونحبه ونتّقيه ونُكرمه بكل القلب. فلا يجوز لنا أن نضع ثقتنا في أي مخلوق أو أي ملاك؛ ولا أن نعبد الملائكة أو نقدم لهم الإكرام الديني بأية صورة من الصور.[1] وفي الحقيقة أنه لا يوجد في الكتاب المقدس كلمةٌ واحدة عن ملاكٍ حارس يُعين لخدمة كل مخلوقٍ بشري على وجه الخصوص، ولا عن أية شفاعة من قبل الملائكة لمصلحتنا. ولكن هذا لا يعني أن الاعتقاد بالملائكة لا يُقدم ولا يؤخر أو أنه عديم القيمة. بل على العكس، إذ أن الملائكة قاموا بدورٍ هام عند وقت حدوث الإعلان. ففي حياة المسيح نجدهم يظهرون عند كل مفصلٍ في سيرته، ولسوف يُظهرون ذات يوم معه على سحب السماء. وهم في كل حين أرواحٌ خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين 1: 14). وهم يفرحون بتوبة الخاطئ (لوقا 15: 10)، ويحرسون المؤمنين (مزمور 34: 7؛ 91: 11)، ويحمون الصغار (متى 18: 10)؛ ويرافقون الكنيسة في مسيرتها عبر التاريخ (أفسس 3: 10)؛ ويحملون أولاد الله إلى حضن إبراهيم (لوقا 16: 22).

لذلك ينبغي لنا أن نفكر فيهم بوقار ونتكلم عنهم بمهابة. وينبغي أن نُفرحهم بتوبتنا، ونقتدي بهم في خدمة الله وإطاعة كلمته. وعلينا أن نُظهر لهم في قلوبنا وحيواتنا، وفي مُجمل الكنيسة، حكمة الله المتنوعة. علينا أن نذكر رفقتهم لنا، ونشاركهم في إعلان أعمال الله العظيمة. وهكذا يبدو أن لا صراع بين

---

(61) تث 6: 13؛ مت 4: 10؛ رؤ 22: 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان والملاك، مع أن بينهما فرقاً. فهما متمايزان لكنهما متحدان أيضاً؛ ومختلفان لكنهما شريكان. وعندما نصل إلى جبل صهيون، مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، عندئذٍ نأتي أيضاً إلى ربوات ملائكة، ومن ثم نعيد وصل رباط الوحدة والمحبة الذي قطعته الخطية (عبرانيين 12: 22). فللجميع، لهم ولنا، مكانهم في خليقة الله الغنية، حيث يؤدي كلٌ وظيفته الخاصة. وإذا كان الملائكة أبناء الله وجبابرته وجنوده المقتدرين، فالبشر هم مخلوقون على صورة الله وهم ذريته أو أولاده.

****

وما دامت صورة الله هي السمة المميزة للإنسان، فمن واجبنا أن نحصل على فكرة واضحة عن مضمونها.

نقرأ في (تكوين 1: 26) أن الله خلق الإنسان على صورته وكشبهه ليتسلط على جميع المخلوقات، ولاسيما المخلوقات الحية كلها. وفي هذا الإطار ثلاثة أمور تستحق الاعتبار. فأولاً، يعبر عن التماثل بين الله والإنسان بكلمتين، هما الصورة والشبه. وهاتان الكلمتان ليستا، كما افترض كثيرون، مختلفين في جوهرهما أو مدلولهما، بل إنهما تفسران وتدعمان إحداهما الأخرى. وهما تؤديان معاً دور الإفصاح عن أن الإنسان ليس رسماً لله غير ناجح، ولا رسماً مشابهاً بعض الشيء، بل هو صورةٌ لله كاملة وموافقة كلياً. فمثلما هو الإنسان في صورةٍ مصغرة، كذلك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هو مثال الله في حقيقته العظيمة، في التصميم الضخم على نحـــوٍ لا نهـــائي، لأن الإنسان هو مثل ما هو الله. فإن مقام الإنسان أدنى من الله إلى ما لا نهاية، إلا أنه مع ذلك مرتبط به تعالى. والإنسان، بوصفه مخلوقاً، معتمدٌ كلياً على الله، ومع ذلك فبوصفه إنساناً، هو كائنٌ حرٌّ ومستقل .فالمحدودية والحرية، والاستقلال والاتكال، والبعد الذي لا يقاس عن الله والعلاقة الوثيقة به، هذه كلُّها متمازجة في الكـــائن البشري بطريقة لا يُسبر غورها. أما كيف يُعقل أن يكون مخلوق وضيع في الوقت نفسه صورة الله، فأمر ينأى جداً عن قدرتنا على الإدراك.

وثانياً، يحدثنا (تكوين 1: 26) أن الله خلق البشر (اللفظة في الأصل جمع) على صورته وكشبهه. فمنذ البدء كان قصد الله ألا يخلق إنساناً واحداً، بل البشر أجمعين، على صورته. ولذا خلق الإنسان حالاً ذكراً وأنثى، وليس أحدهما منفصلاً عن الآخر بل في علاقة بعضهما ببعض وفي شركة أحدهما مع الآخر (الآية 27). فصورة الله معبرٌ عنها لا في الرجل وحده، ولا في المرأة وحدها، بل في كليهما معاً، وفي كل منهما بطريقة خاصة.

على أن البعض أحياناً ما يؤكد العكس، على أســـاس أن بـــولس في (1 كورنثوس 11: 7) يقول إن الرجل هو صورة الله ومجده وإن المرأة هـــي مجـــد الرجل. وغالباً ما يساء استخدام هذه الآية في سبيل إنكار صورة الله على المـــرأة وإحدارها إلى أسفل الدرجات دون مستوى الرجل. غير أن بولس لا يتكلم في هذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الموضوع عن الرجل والمرأة باعتبار أحدهما منفصلاً عن الآخر، بل عن علاقتهما في الزواج. فعندئذ يقول إن الرجل، لا المرأة، هو الرأس. ويستخلص بولس ذلك من حقيقة كون الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. فالرجل خُلِق أولاً، فصُنِع أولاً على صورة الله، وله أظهر الله مجده أولاً. وإذا كانت المرأة تشترك في هـذا كله، فالأمر يحدث وساطياً، أي من الرجل وبه. فهي تلقت صورة الله، ولكن بعد الرجل وبالاعتماد عليه وبوساطته. من هنا كان الرجل صورة الله ومجده مباشـرة واصلاً؛ أما المرأة فهي صورة الله ومجده بطريقة مكتسبة مادام مجد الله هـو مجـد الرجل. وما نقرأه بخصوص هذه المسألة في (تكوين 2) يجب أن يُضاف إلى ما نقرأه عنها في (تكوين 1). فالطريقة التي بها خُلقت المرأة في تكوين 2، هي الطريقة التي بها تتلقى مجد الله ومجد الرجل أيضاً (تكوين 1: 27). وهذا يشتمل على حقيقـة أخرى بعد وهي أن صورة الله تستقر في أناس عديدين، مع فوارق الجنس والموهبة والقدرات، وبوجيز العبارة: في البشر أجمعين؛ وأن هذه الصورة أيضاً ستحقق ملء تجلّيها في البشرية الجديدة التي هي كنيسة المسيح.

وثالثاً، تعلمنا الآية في (تكوين 1: 26) أنه كان لدى الله قصد في خلقه الإنسان على صورته، ألا وهو أن يتسلط الإنسان على جميع الخلائق الحيـة، وان يتكاثر وينتشر على وجه الأرض ويُخضعها. وإذا أحطنا الآن بقوة هذا الإخضاع تحت عنوان "الحضارة"، وهي تُستعمل الآن بهذا المعنى، نسـتطيع أن نقـول إن الحضارة بمعناها الأوسع هي الغرض الذي لأجله خلق الإنسان علـى صـورته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالتنازع بين الدين والحضارة، والتدين والتمدين، والمسيحية والبشرية، قليل جداً بحيث يكون أصح أن نقول إن صورة الله قد أُسبغت على الإنسان كيما يُعلِن هذه الصورة بسيطرته على الأرض بكاملها. وهذه السيطرة على الأرض لا تتضمن فقط أقدم الأعمال التي احترفها الإنسان، كصيد الطير والسمك، والفلاحة وتربية المواشي، بل أيضاً التجارة والاشتغال بالمال، واستخراج كنوز المناجم والجبال، والعلم والفن. حضارة كهذه لا تنتهي إلى الإنسان وحسب، بل إلى الإنسان الذي هو صورة الله والذي يُخلِّف آثار روحه مطبوعة على كل ما يعمل؛ وهكذا تعود هذه الحضارة إلى الله الذي هو الأول والآخر.

****

إن مضمون صورة الله أو معناها يتكشف لنا أكثر في الإعلان الذي تم فيما بعد. فعلى سبيل المثال، يلفت انتباهنا أنه بعد السقوط أيضاً ظل الإنسان يُدعى صورة الله.

يُذكرنا (تكوين 5: 1 _ 3) مرة أخرى أن الله خلق الإنسان، الذكر والأنثى معاً، على شبهه، وأنه باركه، وأن آدم بالتالي ولد ولداً على شبهه، كصورته. وينهي (تكوين 9: 6) عن سفك دم الإنسان لأنه عُمِل على صورة الله. ويتغنى ناظم المزمور الثامن الجميل بمجد الرب وجلاله الذي يُبدي ذاته في السماوات والأرض، وعلى أبهى ما يكون في الإنسان العديم الشأن وتسلُّطه على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أعمال يدي الله كلِّها. ثم لما تكلم بولس إلى الأثينيين في وسط أريوس باغوس، اقتبس مستحسناً قول أحد شعرائهم: لأننا أيضاً ذريته (أعمال 17: 28). وفي (يعقوب 3: 9)، حيث يعرض الرسول إلى إثبات شرِّ اللسان، يستخدم هذه المطابقة: به نبارك الله الآب، وبه نلعن الناس الذين قد تكونوا على شبه الله. ولا يقتصر الكتاب المقدس على تسمية الإنسان الساقط صورة الله، بل يمضي أيضاً، في سائر مواضعه معتبراً إياه هكذا ومُعامِلاً له على هذا الأساس. فهو ينظر دائماً إلى الإنسان باعتباره كائناً عاقلاً وأدبياً مسؤولاً أمام الله عن جميع أفكاره وأعماله وأقواله وملزماً أن يخدمه.

على أننا نجد، إلى جانب هذا البيان، أن الإنسان فقد صورة الله بالخطية. صحيح أن هذا لا يُقال لنا بصريح العبارة، لكنه شيء يمكن استنتاجه على نحو واضح من مجمل تعليم الكلمة المقدسة بخصوص الإنسان الخاطئ. فرغم كل شيء – كما سنعالج هذا بالتحديد فيما بعد – حرمت الخطية الإنسان البراءة والبر والقداسة، وأفسدت قلبه، وأظلمت فكره، وأمالت إرادته إلى الشر، وحوّلت ميوله عن الخير، ووضعت جسده وجميع أعضائه تحت عبودية الإثم. وتبعاً لذلك ينبغي للإنسان أن يتغيَّر، أن يولد من جديد، ويُبرر ويُطهر ويُقدس وهو لا يستطيع أن يشترك في جميع هذه الخيرات إلا عن طريق شركته مع المسيح الذي هو صورة الله (2 كورنثوس 4: 4؛ كولوسي 1: 15) والذي ينبغي لنا أن نكون مشابهين صورته (رومية 8: 29). وعلى ذلك، فالإنسان الجديد الذي يقوم في شركة مع المسيح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالإيمان، هو مخلوق بحسب إرادة الله في البر وقداسة الحق (أفسس 4: 24)، وهو يتجدد دائماً في المعرفة حسب صورة خالقه (كولوسي 3: 10). فالمعرفة والبر والقداسة التي يحصل عليها المؤمن عن طريق الشركة مع المسيح، لها جميعاً في الله أصلُها ومثالُها وغايتها النهائية، وهذه كلُّها تجعل الإنسان من جديد شريكاً للطبيعة الإلهية (2 بطرس 1: 4).

على أساس هذا التعليم من الكتاب المقدس يقوم التمييز الذي يؤكده علم اللاهوت المُصلح ما بين صورة الله بمعناها الأوسع وبينها بمعناها الضيق. فإذا كان الإنسان، يظلُّ بعد سقوطه ومعصيته يُدعى صورة الله وذريته من جهة، وقد فقد – من جهة أخرى – بسبب الخطية تلك الفضائل التي بها يماثل الله على وجه الخصوص والتي لا يُمكن استرجاعُها إلا بالشركة مع المسيح، فعندئذ يكون التوفيق بين هاتين المقولتين ممكناً فقط إذا كانت صورة الله تشتمل على ما يتعدى فضائل المعرفة والبر والقداسة. هذا الأمر أدركه اللاهوتيون المُصلحون وأكدوه في مواجهة اللاهوتيين اللوثريين والكاثوليك.

لا يميز اللوثريون بين صورة الله بمعناها الوسع وبينها بمعناها الأضيق. وإلا، فإذا ميزوا لا يعلقون أهمية كبيرة على الفارق ولا يحاولون فهم مغزاه. فليست صورة الله عندهم غير البرارة الأصلية لا أكثر ولا أقل، أي فضائل المعرفة والبر والقداسة. وبذا يعترفون بصورة الله بمعناها الأضيق فقط ولا يقدرون قيمة الحاجة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلى ربط هذه الصورة بكامل الطبيعة البشرية. وهكذا تُعتبر الحياة الدينية والخلقية عندهم وكأنها مجال خاص معزول. فهي ليست متعلقة، وليس لها من تأثير، بالعمل الذي يُدعى إليه الإنسان في الدولة والمجتمع، والعلم والفن. وما إن يُشارك المسيحي اللوثري في غفران الخطايا والشركة مع الله بالإيمان، حتى يكون له ما يكفيه. وهو يستقر في ذلك ويتمتع به، ولا يُعني بربط هذه الحياة الروحية، إلى الوراء. بمشورة الله واختياره، وإلى الأمام برسالة الإنسان الأرضية كلِّها.

وعلى هذا يترتب، في الاتجاه المعاكس، أنه عندما فقد الإنسان بره الأصلي بالخطية جُرِّد من صورة الله كلياً، فلم يبق فيه شيء منها، ولو بقايا صغيرة. وهكذا، فإن طبيعته العقلية والخُلقية التي يحتفظ بها إنما انتقص قدرها واعتراها الفساد.

أما الكاثوليك، على نقيض هذا، فيميزون فعلاً بين صورة الله بمعناها الأوسع وبينها بمعناها الأضيق، وإن كانوا لا يستعملون هذه الكلمات بالذات لتحديد ذلك. وهم أيضاً معنيُّون بتلمُّس علاقة بين الآخرين. غير أن هذه العلاقة عندهم خارجية لا داخلية، وهي مصطنعة لا حقيقية، وآلية لا عضوية. فهم يعرضون المسألة كما لو كان ممكناً تصور الإنسان من دون فضائل المعرفة والبر والقداسة (أي من دون صورة الله بالمعنى الأضيق) وكان ممكناً في الواقع أيضاً أن يوجد هكذا. وفي هذه الحال أيضاً تظل لدى الإنسان حياةٌ دينية وخلقية ما، ولكن فقط على النحو وإلى الدرجة اللذين يمكن أن يصدرا عن تديُّن طبيعي وخلقية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

طبيعية. هذا التديُّن وهذه الخُلُقية، إن صح التعبير، يظلان مقصورين على هـذه الأرض، ولا يُمكن أن يمهدا سبيل الإنسان لبلوغ السعادة الأبدية ومعاينة الله. ومع أنه من الممكن، على نحو الإطلاق، أن يتمكن إنساناً كهذا دون أن تكون له صورة الله بالمعنى الأضيق من تتميم واجبات الدين والناموس الأدبي الطبيعي، فإن ذلـك بالحقيقة صعبٌ جداً طالما الإنسان شخص مادي طبيعي حسي. ورغم كل شيء، فالشهوة هي دائماً صفة مميزة لهذه الطبيعة الإنسانية الحسية. هذه الشهوة أو الرغبة الغريزية، وإن لم تكن خطية في ذاتها هي فرصة إغواء لارتكابها. إذ أن من الطبيعية الحسية، في جوهرها، ولكونها مادية جسدية، هي ضد الروح وتشـكل خطـراً يتهددها دائماً. وهذا الخطر هو في أن تهزم قوة الجسد العقل والإرادة.

لهذين السببين، يرى الفكر الكاثوليكي أن الله في إنعامه المطلق أسبغ على الإنسان الطبيعي صورة الله بالمعنى الضيق. وكان في استطاعته تعـالى أن يخلـق الإنسان خلواً من هذه الصورة. ولكن لأنه سبق فرأى أن الإنسان عندئذٍ سـيقع بسهولة فريسة في قبضة الشهوة الجسدية، وأيضاً لأنه أراد أن يرقّي الإنسـان إلى حالة من السعادة أرفع مما هو مُتاح هنا على الأرض، أي إلى المجد السماوي، وإلى الحضرة الإلهية بالذات، لذلك أضفى الله براً أصلياً على الإنسان الطبيعي، فرقـاه بذلك من حالته الطبيعية إلى ذروة فائقة للطبيعة وأسمى. وهكذا تحقق قصد مزدوج: فأولاً، صار في وسع الإنسان الآن، بفضل معونة هذه الإضافة الروحية، أن يسيطر بسهولة على الشهوة التي يتوارثها الجسد طبيعياً، وثانياً، صار بوسع الإنسان الآن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن يُحرز خلاصاً روحياً متناسباً وهذه الموهبة الإضافية، وذلك بإتمام الواجبات الروحية التي تُمليها البرارة الأصلية (المنوطة بصورة الله بالمعنى الأضيق). وهكذا يرى الكاثوليك أن هذه الإضافة الفائقة للطبيعة والمتمثلة في البر الأصلي تؤدي غرضين: إذ تقوم بدور قيدٍ ضابط للجسد، وتمهد السبيل لاستحقاق السماء.

أما لاهوتيو الكنائس المُصلحة فيقفون موقفاً وسطاً بين موقفي الكاثوليك واللوثريين. إذ يرون أن كلمة الله تعلن أن صورة الله أكبر من البرارة الأصلية وأكثر حسماً منها. فإنه وإن كانت هذه البرارة الأصلية قد فُقِدت من جراء الخطية، فما زال الإنسان يحمل اسم صورة الله وذريته، إذ بقيت فيه بقايا قليلة من صورة الله التي خلق عليها أصلاً. ولذلك لا يمكن أن تكون البرارة الأصلية هبة إضافية، منفصلة ومستقلة، ولا علاقة لهما بالطبيعة البشرية إجمالاً. فليس صحيحاً أن الإنسان وُجد أولاً، سواءٌ في الفكر أو في الواقع، ككائن طبيعي خالص ثم أُضيفت عليه بعد ذلك البرارة الأصلية من علُ. بل بالأحرى،في الفكر والخلق على السواء، وُجِد الإنسان وله هذه البرارة الأصلية. ففكرة الإنسان تتضمن براً كهذا. إذ لولاها لما كان ممكناً تصور الإنسان ولا وجوده. وصورة الله بالمعنى الأضيق مرتبطة بصورته بالمعنى الأوسع ارتباطاً متكاملاً. فليس دقيقاً القول إن الإنسان يحمل صورة الله وحسب، بل هو صورة الله. إن صورة الله مطابقة للإنسان، وحاسمةٌ شأنُها شأن إنسانية الإنسان. وبقدر ما بقي الإنسان إنساناً حتى في حالة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخطية، بذلك القدر بقيت لديه بقايا من صورة الله. وبمقدار ما فقد صـــورة الله، بذلك المقدار لم يعُد إنساناً – إنساناً حقيقياً وكاملاً.

ومهما يكن، فإن صورة الله بالمعنى الضيق ليست سوى سلامة الإنسان أو صحته الروحية. فإذا مرض الإنسان جسداً ونفساً، بل إذا فقد صواب عقله، يبقى مع ذلك الإنسان. إلا أنه حينذاك يكون قد فقد شيئاً يخص انسجام الإنسان، ونال عوضاً عن ذلك شيئاً يناقض هذا الانسجام. وهكذا أيضاً لما فقد الإنسان من جراء الخطية برارته الأصلية، ظل إنساناً، ولكنه فقد شيئاً لا يمكن فصله عـــن فكـــرة الإنسان، ونال بدلاً منه شيئاً يناقض تلك الفكرة. ومن هنا، فإن الإنسان، إذ فقد صورة الله، لم يصر شيئاً آخر غير الإنسان، بل ظلت لديه طبيعته العقلية والأدبية. وما فقده لم يكن شيئاً لا يخصُّ في الواقع طبيعته بالدرجة الأولى؛ كما كان ما تلقاه عوضاً عن ذلك شيئاً استولى على طبيعته بكاملها وأفسدها. ومثلما كـــان الـــبر الأصلي هو سلامة الإنسان وصحته الروحية، كذلك أصبحت الخطية هـــي داءه الروحي. فالخطية هي فسادٌ أدبي وموت روحي، موتٌ بالخطايا والذنوب – على حد تعبير الكتاب.

ومن شأن مثل هذا المفهوم لصورة الله أن يضع كامل تعليم الكتاب المقدس في نصابه الصحيح. ذلك أنه مفهوم يصون في آن معاً العلاقة والتمييز بين الطبيعة والنعمة، والخلق والفداء. وهذا المفهوم يعترف اعترافاً واضحاً مقروناً بالشكران،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بنعمة الله التي أتاحت للإنسان، بعد السقوط أيضاً أن يظل إنساناً، وظلَّت تعتبره وتعامله بصفته مخلوقاً عاقلاً وأدبياً ومسؤولاً. كما أن هذا المفهوم يعتبر في الوقت نفسه أن الإنسان، إذ سُلِب صورة الله، بات فاسداً كلياً ونزَّاعاً إلى الشـــر. وفي الحياة والتاريخ ما يمدنا بما يُثبت هذا. فإن الطبيعة البشرية، حتى في أدنى سقوطها وأعمقه، ظلَّت مع ذلك طبيعة بشرية. ومهما كان الأوج الذي يبلغه الإنسان في إنجازاته، يبقى ضعيفاً وصغيراً، ومذنباً ونجساً. ذلك أن صورة الله وحدها هي التي تجعل الإنسان إنساناً حقاً وكاملاً.

****

إذا حاولنا الآن أن نتفحص مضمون صورة الله، فإن أول مـــا يســـترعي انتباهنا هي طبيعة الإنسان. فهو كائن جسدي، لكنه أيضاً كائن روحي؛ وله نفسٌ هي في جوهرها روح. وهذا واضح جلياً مما يعلم به الكتاب المقدس في ما خـــص أصل النفس البشرية وجوهرهما ومداها. أما من حيث أصلُها، فنقرأ عن آدم أنه – على خلاف الحيوانات – تلقى نسمة حياة من علُ (تكوين 2: 7)، وهذا ينطبق على جميع البشر بمعنىً ما. فالله هو الذي يُعطي كل إنسانٍ روحه (جامعة 12: 7)، والذي يكون روح الإنسان في داخله (زكريا 12: 1)، لذلك يُمكن أن يُدعى أبا الأرواح، بخلاف آباء الجسد (عبرانيين 12: 9). وهذا المصدر الخاص الذي جاءت منه نفس الإنسان، يحدد جوهرها أيضاً. صحيحٌ أن الكتاب المقـــدس في بضـــعة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مواضيع، ينسب إلى الحيوانات نفساً (تكوين 2: 19، 9: 4 ومواضعٍ أخرى)، غير أن الإشارة في هذه الحالات هي إلى مبدأ الحياة بمعنى عام. فللإنسان نفسٌ مختلفة وأسمى، نفسٌ هي في ذات جوهرها روحية بنوعها. ويتضح ذلك عندما ينسب الكتاب إلى الإنسان روحاً خاصة لا ينسبها البتة إلى الحيوان. وبينما تمتلك الحيوانات روحاً، بمعنى أنها – كمخلوقات – قد خلقها الله ويعتني بها بروحه (مزمور 104: 30)، فإن كلاً منها ليست له روح مستقلة خاصة به. أما الإنسان فله.[1] وبسبب الطبيعة الروحية تكتسب نفس الإنسان الخلود، إذ لا تموت بموت الجسد كما في الحيوان، بل ترجع إلى الله معطي الروح (جا 12: 7). ولا يُمكن أن يقتل الناس النفس كما يقتلون الجسد (متى 10: 28). وبوصفها روحاً، فهي تستمر موجودة (عب 12: 9؛ 1 بط 3: 19).

والهوية الروحية للنفس ترفع الإنسان فوق مستوى الحيوان، وتؤتيه نقطة مشابهة للملائكة. حقاً أنه ينتمي إلى العالم المحسوس، لكونه أرضياً ومن الأرض، ولكنه بفضل روحه يسمو بعيداً فوق الأرض، ويسير بحرية ملوكية في عالم الأرواح. وبفضل طبيعة الإنسان الروحية، فهو ذو صلة بالله الذي هو روح (يوحنا 4: 24) والذي يسكن الأبد (إشعياء 57: 15).

---

(62) تث 2: 30؛ قض 15: 19؛ حز 3: 14؛ لو 23: 46؛ أع 7: 59؛ 1 كو 2:11؛ 5: 3، 4.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وثاني أمرٍ يلفتنا في هذا المجال هو استعلان صورة الله في القدرات والطاقات التي وُهِبت لروح الإنسان. صحيحٌ أن الحيوانات العليا تستطيع بحسها أن تكوِّن صوراً وتربطها بعضها ببعض، إلا أنها لا تقوى على مجاوزة هذا. أما الإنسان، فعلى نقيض ذلك يرتقي فوق مستوى الصور ويلج عالم المفاهيم والأفكار المجردة. فبفضل الفكر، وهو لا يُمكن أن يُفهم على أساس أنه حركة من حركات العقل بل ينبغي أن يُعتبر نشاطاً روحياً يستنتج الإنسان العام من الخاص ويرتقي من صعيد المرئيات إلى صعيد اللامرئيات، ويكوّن فكراً عما هو حقٌ وخيِّر وجميل، ويتعلم أن يعرف قدرة الله السرمدية ولاهوته عن طريق خلائقه. وبفضل الإرادة، وهي ينبغي أيضاً أن تُميز عن الشهوة الرديئة، يعتق الإنسان من العالم المادي ويصل إلى الحقائق غير المنظورة والمجاوزة للحس. حتى إن عواطفه لا تتحرك، بأي حال، فقط بواسطة ما في العالم المادي من أمور نافعة ومُسرة، بل تثيرها وتحرضها أيضاً الخيرات الروحية المثالية التي لا تخضع أبداً للقياسات الرياضية. هذه القدرات والنشاطات كلُّها لها نقطة انطلاقها ومركزها في الوعي الذاتي الذي به يُدرك الإنسان نفسه، وبواسطته يحمل الإنسان داخل نفسه إحساساً لا يُلاشى بوجوده وبخصوصية طبيعته العقلية والأدبية. ثم إن جميع هذه الملكات الخاصة تعبر عن ذاتها بصورة ظاهرة في اللغـــة والدين، والأخلاق والقانون، والعلوم والفنون. وكلُّها بالطبع، شأنها شان أمـــورٍ كثيرة غيرها، مختصة بالإنسان ولا يُمكن وجودها البتة في عالم الحيوان.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذه القدرات والنشاطات كلُّها من خصائص صورة الله. لأن الله، بحسب إعلان الطبيعة والوحي، ليس قوة عمياء غير واعية، بل هو كـــائن ذو شخصـــية ووعي ذاتي ومعرفة وإرادة. حتى العواطف والمشاعر والانفعـــالات الوجدانيـــة، كالغضب والغيرة والشفقة والرحمة والمحبة وما إليها، تُنسب في الكتاب المقدس إلى الله بغير ما تردُّد، لا من حيث هي مشاعر يجتازها تعالى على نحوٍ لا إرادي، بـــل بوصفها نشاطات قائمة في كيان قدرته وقداسته ومحبته. وما كانت الكلمة المقدسة لتتكلم عن الله بهذه الطريقة البشرية لو لم يكن الإنسان، بجميع نشاطاته وقدراته، مخلوقاً على صورة الله.

أما ثالثُ أمرٍ فيما نحن بصدده، فهو أن الكلام نفسه ينسحب على جسد الإنسان. فحتى الجسد ليس مُستثنى من صورة الله. حقاً إن الكتاب يقول بصريح العبارة إن الله روح (يوحنا 4: 24)، وهو لا ينسب إليه جسداً، ولو في موضـــع واجد؛ إلا أن الله رغم ذلك هو خالق الجسد أيضاً كما انه خالق العالم الحسي كله. فجميع الأشياء، بما فيها المادي، لها مصدرها ووجودها بفضل الكلمة الذي كان مع الله (يو 1: 3، كولوسي 1: 15)، ولذلك تستقر في الفكر وفي الروح. أضف إلى هذا أن الجسد، وإن لم يكن هو علة هذه النشاطات الروحية كلها، فهو أداتهـــا. فليست الأذن هي التي تسمع، بل روح الإنسان من خلال الأذن.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من هنا كان ممكناً أن تُنسب إلى الله جميع النشاطات التي نقوم بها بواسطة الجسد، بل أيضاً الأعضاء الطبيعية التي بواسطتها نقوم بها. فالكتاب يتكلم عن يدي الله ورجليه، وعن عينيه وأذنيه، وعن كثير غير هذه، في سبيل أن يبيِّن أن كل ما يستطيع الإنسان أن ينجزه بواسطة الجسد إنما يعود لله، وذلك بطريقة أصلية وكاملة. الغارس الأذن ألا يسمع، الصانع العين ألا يُبصر؟ (مز 94: 9). إذاً، بمقدار ما يؤدي الجسد دور الأداة والآلة بالنسبة إلى الروح، فهو ينمُّ عن تشبيهٍ معين للطريقة التي بها ينشط الله في العالم، كما يُعطينا الجسد أيضاً مفهوماً ما لهذه الطريقة.

****

هذا كلُّه يختص بصورة الله بمعناها الأوسع. إلا أن مشابهة الإنسان لله تبرز للعيان بأكثر وضح في البر الأصلي الذي وُهِب للإنسان الأول، والذي يُدعى صورة الله بالمعنى الأضيق. وعندما يشدد الكتاب المقدس على هذا البر الأصلي، فهو يُعلن بذلك أن أهم ما في صورة الله ليس وجودها وحسب بل ماهيتها. فالأمر الأساسي ليس أننا نفكر ونبغض ونحب ونريد. بل إن مشابهة الإنسان لله تكتسب أهميتها مما نفكر فيه ونريده، ومما هو غرض بعضنا أو حبنا. فقوى العقل والإرادة والمحبة والنفور إنما وهبت للإنسان لهذا الغرض بالذات: كي يستخدمها الاستخدام الصحيح، أي بحسب مشيئة الله ومجده. والأبالسة أيضاً احتفظوا بقوى الفكر و

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإرادة، غير أنهم يوظفونها فقط في خدمة بغضائهم لله وعداوتهم له. حتى الإيمان بوجود الله، وهو بحد ذاته شيءٌ صالح، لا يُعطي الشياطين إلا الاقشعرار والخوف من دينونة الله (يعقوب 2: 19). وفيما خص اليهود الذي دعوا أنفسهم أبناء إبراهيم ودعوا الله أباً لهم، قال المسيح مرةً إنه لو كان الأمر كذلك لكانوا يعملون أعمال إبراهيم ويحبون الابن الذي أرسله الله. ولكن لأنهم كانوا يعملون عكس ذلك تماماً وقد طلبوا أن يقتلوا يسوع، كشفوا أنهم كانوا بالفعل من أبٍ هو إبليس وأنهم يريدون أن يعملوا شهوات أبيهم (يوحنا 8: 39 – 44). فالرغبات التي أذاها اليهود، والأعمال التي عملوها، جعلتهم أشباهاً للشيطان، على رغم كل ما كان لديهم من تمييز حاذق وطاقة بارعة. وهكذا أيضاً مشابهة الإنسان لله لا تبرز للعيان بصورة رئيسية في حقيقة امتلاك الإنسان للعقل والفهم والإرادة. إذ إنها تعبّر عن نفسها أساساً في المعرفة الخالصة والقداسة التامة والبر الكامل، وهذه كلُّها تشكل صورة الله بالمعنى الأضيق، والتي خُصَّ الإنسان بامتياز الحصول عليها وازدان بها عند خلقه.

لم يكن قوام المعرفة التي أُعطيت للإنسان الأول حقيقة كونه يعرف كل شيء ولم يكن أمامه شيءٌ يتعلمه بعدُ عن الله وعن العالم وعن ذاته. فحتى معرفةُ الملائكة والقديسين هي خاضعة للنمو. وهكذا كانت معرفة المسيح على الأرض حتى آخر حياته. فتلك المعرفة الأصلية لدى الإنسان الأول تتضمن بالأحرى أن آدم تلقى معرفة وافية بوضعه ودعوته، وأن هذه المعرفة كانت معرفة خالصة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وكان يحب الحق بكل نفسه. ولم تكن الكذبة إذ ذاك قد وجدت مكاناً في قلبـــه، بكل ما أعقبها من مصائب الضلال والشك وعدم الإيمان واللايقين. كان قائماً في الحق، وقد رأى كل شيء وقدّر قيمته كما كانت بالحقيقة.

وقد كان ثمر هذه المعرفة بالحق هو البر والقداسة. ومعـــنى القداســـة أن الإنسان الأول خُلق بريئاً من كل أثر للخطية. فطبيعته لم تكن ملوثة بأي فساد: لا فكر شرير، ولا قصد سوء، ولا رغبة باطلة خرجت من قلبه. ولم يكن ساذجاً أو بسيطاً، بل إنه عرف الله، وعرف ناموس الله الذي كان مكتوباً في قلبه، وأحـــب ذلك الناموس بكل نفسه. ولأنه كان قائماً في الحق، فقد كان أيضاً قائماً في المحبة. ومعني البر أن الإنسان الذي على هذا النحو عرف الحق في ذهنه، والذي كـــان طاهراً في إرادته وفي جميع رغباته، تجاوب بذلك مع ناموس الله كليـــاً، ووفي إلى التمام مطاليب عدالته تعالى، ووقف أمام وجه الله بلا ذنبٍ البتة. ثم إن الحق والمحبة يأتيان بالسلام في اعقابهما – السلام مع الله، ومع أنفسنا ومع العالم كلِّه. فالإنسان الذي يقوم في المقام الصحيح، المقام الذي هو له، يقوم أيضاً في العلاقة الصحيحة بالنسبة إلى الله وغلى جميع الخلائق أيضاً.

عن هذا الحال أو الظرف الذي عليه خُلِق الإنسان الأول، لا نستطيع بعدُ أن نكوّن فكرة دقيقة: عقلٌ وقلب، وذهنٌ وإرادة، نقيةٌ كلُّها وبلا خطية – ذلك شيءٌ بعيدٌ جداً عن نطاق اختباراتنا كلِّها. وحينما نقف لنتأمل كيـــف اندسّـــت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الخطية في كل تفكيرنا وكلامنا، وفي كل خياراتنا وأفعالنا، حينئذٍ قد يـــداخلُنا في قلوبنا حتى الشكُ في إمكانية مثل هذه الحالة للإنسان، أي حالة الحـــق والمحبـــة والسلام. على أن كلمة الله المقدسة تُحرز النصر وتدحر كل شيء. فهي تُرينـــا، أولاً، وليس في البداءة فقط بل في منتصف التاريخ أيضاً، هيئة إنسانٍ استطاع بكل حقٍّ أن يتحدى خصومه بالسؤال: من منكم يبكّتني على خطية؟ (يوحنا 8: 46). فقد كان المسيح إنساناً حقاً، وإنساناً كاملاً أيضاً. إنه لم يفعل خطية ولا وُجد في فمه غش (1 بطرس 2: 22). ثانياً، يعلّم الكتاب المقدس أن الزوجين البشـــريين الأولين خُلِقا على صورة الله في البر والقداسة كثمرٍ للحق المعلن. وهكذا يؤكـــد الكتاب أن الخطية لا تنتمي إلى جوهر الطبيعة البشرية، وأنها لذلك يُمكن أن تُبعد عن الطبيعة البشرية وتُفصل عنها.

فإذا كانت الخطية ملتصقة بالإنسان منذ أصله الأول، وبسبب من الطبيعة التي له، فعندئذٍ لا يمكن الفداء من الخطية. وعندئذ يكون الفداء من الخطية معادلاً لمحق الطبيعة البشرية. ولكننا نرى الآن ليس فقط أن كائناً بشرياً يمكن أن يوجد بلا خطية فيا لمطلق، بل أن مثل هذا الكائن قد وُجِد فعلاً. ثم لما سقط، ليُحرر الإنسان الساقط من ذنوبه ويطهِّره من كل دنس. فخلق الإنسان على صورة الله مع إمكانية سقوطه. تتضمن إمكانية فدائه وإعادة خلقه. غير أن من يُنكـــر الأمـــر الأول لا يستطيع أن يُثبت الثاني: فإنكار السقوط له وجهٌ آخر، ألا وهو التبشير غير المعزّي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بعدم إمكان افتداء البشر. فلكي يتمكن الإنسان من أن يسقط، لا بد أن يكون في الأول قائماً. وحتى يفقد صورة الله، لا بد أن يكون قد امتلكها أولاً.

****

وقد كان لخلق الإنسان على صورة الله – كما نقرأ في (تكوين 1: 26 و 28) – غرضه الأقرب في أن يملأ الإنسان الأرض ويُخضعها ويتسلط عليها. ومثل هذه السيطرة ليست عنصراً مكوِّناً من عناصر صورة الله. ولا هي – على حد ما ذهب بعضهم إليه – قوام تلك الصورة بالكامل. ثم إنها ليست على الإطلاق إضافة اعتباطية عارضة. وعلى نقيض هذا، فإن التشديد الموضوع على هذا التسلط وعلاقته الوثيقة بالخلق على صورة الله، يدل دلالة حاسمة على أن هذه الصورة يُعبَّر عنها بالتسلط، وبه يجب أن تفسر نفسها وتنكشف أكثر فأكثر. وإلى هذا. ففي وصف ذلك التسلُّط يُقال صراحةً إنه، إلى حدٍ ما، أُعطي في الحال للإنسان كهبةٍ بالفعل، لكنه لن يتحقق إلى أبعد حد إلا في المستقبل. ومع كلٍّ، فالله لا يقول فقط إنه سيصنع "الناس" على صورته وكشبهه (تكوين 1: 26)، ولكنه لما صنع أول زوجين بشريين، ذكراً وأنثى باركهما قائلاً: أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها (تك 1: 28)، ثم عاد فيما بعد فأعطى آدم المهمة المحددة بأن يعمل الجنة ويحفظها (تك 2: 15).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا كلُّه يعلمنا بوضوح بالغ أن الإنسان قد خُلِق ليكون لا خاملاً بـــل عاملاً. فما كان مسموحاً له أن يستريح على أمجاده، بل كان عليه أن ينطلق إلى العالم الفسيح كي يُخضعه لقوة كلمته وإرادته. فهو أُعطي على الأرض مهمة كبيرة وغنية ومتعددة الوجوه. أعطي وظيفةً تستغرق قروناً من الجهد كي تُنجـــز. ودُلَّ على السير في درب طويل لا يُستقصى. كان عليه أن يواصل الخطى فيه حتى يبلغ نهايته. وباختصار، إن بين الحالة التي عليها خُلِق الإنسان الأول والمقصد الذي دُعي إليه فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً.صحيح أن هذا المقصد مرتبط بطبيعته ارتباطاً وثيقاً، مثلما أن طبيعته مرتبطة على نحوٍ وثيق بأصله، إلا أن التمييز قائمٌ رغم ذلك. فإن طبيعة الإنسان، أي جوهر كيانه – صورة الله التي خُلق عليها – ينبغي أن تبلـــغ إماطة اللثام عن مضمونها بصورةٍ تتزايد دائماً في الغنى والكمال، وذلك عن طريق السير الحثيث نحو مقصدها. وبكلام مجازي، كان واجباً أن تُمـــد صـــورة الله إلى أقاصي الأرض وتنطبع على كل أعمال يدي الإنسان. فقد كان على الإنسان أن يتعهد الأرض بحيث تصير،أكثر فأكثر، إعلاناً لصفات الله السنيّة.

لذلك كانت السيطرة على الأرض هي الغاية القُربى التي دُعي الإنســـان إليها، لكنها لم تكن الوحيدة. وطبيعة المهمة تدلُّ على هذا الواقع. فالعمل الذي هو عملٌ حقاً لا يُمكن أن تكون له غايته وغرضه النهائي في ذاته،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بل إن له غرضاً أبعد في إبراز شيء إلى الوجود. وما إن يتحقق ذلك الهدف حتى ينتهي العمل. فالعمل لمجرد العمل، دون خطة ولا قصد ولا غاية، إنما هو عملٌ بلا رجاء وليس خليقاً بالإنسان العاقل. والتطوير الذي يدوم إلى ما لا نهاية، لا يكون تطويراً حقاً. فالتطوير يتضمن قصداً وسبيل عمل وغايةً نهائية ومقصداً. فإذا دُعي الإنسان عند خلقه إلى العمل، كان ذلك يعني ضمناً أنه هو نفسه والناس العتيدين أن يطلعوا منه ينبغي أن يدخلوا راحةً بعد العمل.

ويأتي تأسيس الأسبوع ذي الأيام السبعة فيُثبت هذا الاقتناع ويعزّزه. ففي عمل الخلق استراح الله في اليوم السابع من جميع عمله. ولما كان الإنسان مصنوعاً على صورة الله، فعند وقت خلقه حصل حالاً على الحق والامتياز الكائنين في اتّباع المثال الإلهي في هذه الناحية أيضاً. وقد كان العمل المُلقى على عاتق الإنسان في ملء الأرض وإخضاعها محاكاة ضعيفة لنشاط الله في الخلق. وعمل الإنسان أيضاً هو عملٌ يُباشر بعد قصد، ويسير في سبيل فعلٍ معين، ويوجه صوب غرضٍ محدد. فليس الإنسان آلةً تتحرك بلا وعي؛ إذ إنه لا يُشغل بواسطة دواسة في حركة رتيبة لا تتغير. ففي العمل أيضاً، الإنسان هو إنسانٌ على صورة الله، كائنٌ مفكر ومُريد وفاعل، يسعى لأن يبتكر شيئاً، وينظر في النهاية إلى علم يديه باستحسان. فكما العمل بالنسبة لله، كذلك عمل الإنسان ينتهي بالراحة والمتعة والرضى. والأسبوع المؤلف من ستة أيام يتوجها يوم الراحة، أي السبت، يشرِّف عمل الإنسان ويرفع العامل فوق الحركة الرتيبة للطبيعة العديمة الروح، ويطبع ذلك العمل بطابع الدعوة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإلهية المصدر. وعليه، فإن الذي يدخل في يوم السبت راحة الله بمقتضى قصده تعالى، يستريح من أعماله على النحو البهيج عينه الذي به استراح الله من أعماله (عبرانيين 4: 10). وكما يصحُّ هذا بالنسبة للفرد، يصحُّ أيضاً بالنسبة للكنيسة، وكذلك بالنسبة للبشرية جمعاء. فالعالم أيضاً عنده عمله العالمي كي يُنجزه، وهذا العمل يعقبه ويختمه سبت راحة. والحال أن كل يوم سبت ما هو إلا عينة من تلك الراحة الباقية، مثلما هو إنباءٌ بها وعربونٌ لها (عب 4: 9).

لذلك السبب يقول "إقرار هايدلبرج للعقيدة" بسداد إن الله خلق الإنسان صالحاً وعلى حسب صورته تعالى لكي يتسنى له أن يعرف الله خالقه حق المعرفة ويحبه محبة قلبية، ويعيش معه في سعادة أبدية ليحمده ويمجده. فغاية الإنسان القصوى تكمن في السعادة الأبدية، وفي تمجيد الله في السماء وعلى الأرض. ولكن قبل أن يصل الإنسان إلى هذه الغاية كان عليه أولاً أن يُتمم مهمته على الأرض. وقبل أن يدخل راحة الله، كان عليه أولاً أن يُنجز عمل الله. فالطريق إلى السماء تجتاز الأرض وتجاوزها. وسبيل الدخول إلى سبت الراحة تُمهده ستة أيام من العمل. كذلك يبلغ المرء الحياة الأبدية بعد عناء العمل.

****

حتى الآن ركزنا أفكارنا فيما يتعلق بالتعليم المختص بغاية الإنسان، كلياً على ما يكشفه لنا (تكوين 1: 26 –2: 3). على أن الجزء الباقي من الفصل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الثاني يحتوي على عنصر مكوِّن آخر ينبغي أن يُضاف إلى ما سبق. فإذ يضع الله الإنسان في الجنة، يخوِّله حق الكل ما شاء من جميع شجر الجنة، ما عدا واحدة فقط يُفرِدها تعالى كاستثناء، ألا وهي شجرة معرفة الخير والشر. وقد قيل للإنسان إنه لا يجوز له أن يأكل من تلك الشجرة، وإنه يوم يأكل منها موتاً يموت (تك 2: 16 و 17).

فالآن يُزاد على كل ما سبق الأمرُ به شيءٌ واحدٌ منهيٌ عنه . وكانت الوصايا المطلوبة من آدم معروفة عنده، في جزء منها، من التأمل في قلبه، وفي جزء آخر من كلمة الله المنطوقة. فآدم لم يخترع الوصايا، بل إن الله خلقها فيه وبلّغه إياها. فالإنسان ليس ذاتي المبادرة في مسائل الدين والأخلاق. إنه ليس هو المشترع لذاته، وليس له أن يفعل ما يحلو له، بل إن الله بالأحرى هو مشرعه (المشترع له) وقاضيه (إشعياء 33: 22). والآن تلخصت جميع الوصايا التي تلقاها آدم في مطلب واحد، ألا وهو أن الذي خُلق على صورة الله ينبغي له، في كل فكر وكل عمل، وفي جميع مناحي حياته وعمله، أن يظل على صورة الله. فقد كان واجباً أن يبقى الإنسان صورة الله لا في حياته الخاصة شخصياً وحسب، بل أيضاً في زواجه وأسرته، في عمله ستة أيام من الأسبوع وراحته في اليوم السابع، في إعماره الأرض وتكاثره على وجهها، في إخضاعه للأرض والتسلط عليها، في تعهُّده الجنة وحفظها. فما كان لآدم أن يسلك سبيله الذاتي، بل بالأولى أن يسلك السبيل الذي رسمه له الله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا أن هذه الوصايا كلها، وقد أتاحت لآدم – إن صح التعبير– حرية الحركة وجعلت الأرض كلها مسرح عمليات له، زيدت نهياً واحداً أو بالأحرى قُيِّدت به. وهذا النهي عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، لا ينتمي إلى صورة الله، أي ليس عنصراً مكوناً من عناصرها. بل إنه – على عكس ذلك تماماً – يرسم لها حدودها. فإن تعدى آدم هذا النهي، يفقد صورة الله، ويضع نفسه خارج دائرة الشركة مع الله، وموتاً يموت. إذاً بهذه الوصية تُمتحَن طاعة الإنسان. فهذه الوصية تُثبت هل سيسير الإنسان في طريق الله أو في طريقه الذاتية، هل يلتزم جادة الصواب أو يضل عنها، هل يبقى ابناً لله في بيت الآب أو يريد أن يأخذ القسم الذي يُصيبه من الخيرات ويذهب إلى كورة بعيدة. من هُنا أيضاً تُضفي على هذا النهي عادةً تسمية الوصية الاختبارية. ومن هنا أيضاً كان لها – بمعنىً من المعاني – مضمون اختياري. فلم يكن يسع آدم وحواء أن يجدا أي سبب لمنعهما هذه الشجرة بالذات. بكلام آخر، كان عليهما أن يعملا بالوصية لا لأنهما سبرا أغوار مضمونها المعقول وفهماها، بل فقط لأن الله أوصى بها، وذلك على أساس سلطانه المطلق، يدفعهما إلى ذلك دافع الطاعة الخالصة انطلاقاً من احترام حقٍّ لواجبهما. ولهذا أيضاً سُميت الشجرة المنهي عن الأكل من ثمرها شجرة معرفة الخير والشر. فقد كانت هي الشجرة التي ستبين هل سيريد الإنسان – اختياراً وبقناعة ذاتية أن يحدد ما هو خير وما هو شر، أو أنه في هذه المسألة سيسمح لنفسه بأن ينقاد كلياً بالوصية التي أعطاه الله إياها بخصوصها ويحفظها كما يجب.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إذاً، أُعطي الإنسان الأول بالفعل شيئاً كثيراً ليعمله، كما أنه أُعطي شيئاً ما – وإن يكن قليلاً – كي لا يعمله. والمطلب الثاني على العموم أصعب الاثنين. فكم من الناس يرغبون أن يفعلوا، في سبيل صحتهم مثلاً، أموراً كثيرة على نحوٍ لا يكاد يُصدَّق، إلا أنهم لا يرغبون في التخلي عن شيء في سبيل ذلك، أو قل لا يتخلَّون إلا عن القليل. إذ يعتبرون أدنى إنكارٍ للذات عملاً لا يُطاق. فالمحظور يهيئ نوعاً من الإغواء غريباً، إذ يُثير أسئلة تدور حول ماذا ولماذا وكيف. إنه يُثير الشك ويهيج المخيلة. هذه التجربة، التي أثارتها الوصية الاختبارية، كان على الإنسان الأول أن يقاومها. وذلك كان جهاد الإيمان الذي أُعطي له كي يُجاهده. إلا أنه تلقي أيضاً. في صورة الله التي خُلق عليها، القوة التي كان يمكن بها أن يظل قائماً وينتصر.

على أنه يتضح أن مصير الإنسان، أو غايته، هو أن يكون متميزاً عن الخليقة. يتجلى ذلك في الوصية الاختبارية بأكثر وضوح مما يظهر في تأسيس الأسبوع ذي الأيام السبعة. فآدم لم يكن في البداءة ما كان ممكناً له أن يكون وما كان له أن يصير إليه في النهاية. فهو سكن في الفردوس، وليس في السماء. إذاً كان أمامه طريق طويل يسلكه قبل أن يصل إلى مقصده النهائي. فكان عليه أن يصل إلى الحياة الأبدية بعد إطاعة ما أُوصي به وتجنُّب ما نُهي عنه. وباختصار، ثمة فرق شاسع بين حالة البراءة التي خُلق فيها الإنسان الأول وحالة المجد التي قُدرت له. أما طبيعة هذا الفرق فيُلقي عليها الضوء باقي ما جاء في الإعلان الإلهي.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كان آدم خاضعاً لتبدل الليل والنهار والنوم واليقظة، غير أننا نقرأ عن أورشليم السماوية أنه لن يكون فيها ليل (رؤيا 21: 25، 22: 5)، وأن المفديين بدم الحمل يقفون أمام عرش الله ويخدمونه ليلاً ونهاراً في هيكله (رؤ 7: 15). وكان الإنسان الأول خاضعاً لتقسيم الأسبوع إلى ستة أيام عمل ويوم راحة واحد؛ غير أنه تبقى فيما بعد راحةٌ لشعب الله أبديةٌ لا تنقطع (عب 4: 9، رؤ 14: 13). وفي حالة البراءة كان الإنسان يحتاج إلى الطعام والشراب كلَّ يوم؛ غير أنه في المستقبل سيُبيد الله الجوف والأطعمة معاً (1 كو 6: 13). وقد كان أول زوجين بشريين ذكراً وأنثى بورِكا وطُلب منهما أن يُثمرا ويتكاثرا.

أما في القيامة فالناس لا يزوِّجون ولا يتزوَّجون بل يكونون كملائكة الله في السماء (متى 22: 30). وكان الإنسان الأول، آدم، من الأرض تُرابياً، وله جسدٌ طبيعي، وهكذا كان نفساً حية؛ غير أن المؤمنين في القيامة يُمنحون جسداً روحانياً ويكونون عندئذٍ على صورة الإنسان السماوي، صورة المسيح الرب من السماء (1 كو 15: 45 – 49). ثم إن آدم خلِق على حالةٍ يمكن فيها أن يضل ويُخطئ، أن يسقط ويموت؛ غير أن المؤمنين يُرقون فوق هذا الاحتمال حتى وهم على الأرض. إذ يمكنهم أن يكفوا عن ارتكاب الخطية، لأن كلَّ من هو مولود من الله لا يفعل خطية، لأن زرعه يثبت فيه: ولا يستطيع أن يُخطئ لأنه مولود من الله (1 يوحنا 3: 9). إنهم لا يُمكن أن يسقطوا سقوطاً لا قيام بعده، لأنهم بالإيمان محروسون لخلاصٍ مستعدٍّ أن يُعلن في الزمان الأخير (1 بطرس 1: 5). ولا يُمكن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أن يموتوا، لأن الذين يؤمنون بالمسيح لهم منذ الآن، وهم على الأرض، حياة أبدية عديمة الفساد؛ ولن يموتوا مدى الأبدية كلِّها. وإن هم ماتوا الآن فلسوف يحيون فيما بعد (يوحنا 11: 25، 26).

إذاً، علينا عند النظر في موضوع الإنسان الأول،أن نحترس من الوقوع في أحد نقيضين. فمن ناحية، علينا أن نؤكد، استناداً إلى كلمة الله المكتوبة، أن الإنسان خُلق في الحال على صورة الله، في حق المعرفة والبر والقداسة. فلم يكن في بداية الأمر طفلاً بريئاً يتعين عليه أن ينمو إلى طور البلوغ؛ كما لم يكن مخلوقاً كامل الجسد، لكنه روحياً فارغ من أي مضمون، وله موقف حياديٌّ بين الحق والباطل أو الخير والشر. وأدنى من ذلك بعد: لم يكن في الأصل مخلوقاً حيوانياً تطور بالتدريج من وجود حيواني ما، ومن ثم صار إنساناً الآن في نهاية المطاف بفضل الجهاد والجهد.فمثل هذا الطرْح هو في تنازع كلي مع الطرح الذي يقدمه الكتاب المقدس، ومع المنطق السليم، بحيث لا يمكن التوفيق بين الطرحين على الإطلاق.

ولكن علينا، من ناحية أخرى، ألا نمجد الإنسان الأول تمجيداً مُغالى فيه على حدِّ ما هو حاصل غالباً في تعليم المسيحيين ووعظهم. فبصرف النظر عن المستوى الرفيع الذي يسمو على مستوى الحيوان والذي عليه وضع الإنسان، لم يكن الإنسان قد بلغ بعد مستواه الأرفع الممكن. كان قادراً ألا يُخطئ، إلا أنه لم يكن بعد غير قادر أن يخطئ. ولم يكن حاصلاً إذ ذاك على حياة أبدية لا يمكن أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تُفسد ولا أن تموت، بل قد تلقى عوض ذلك بقاءً أولياً يتوقف وجودُه ومدته على الوفاء بشرط موضوع. وقد خُلق رأساً على صورة الله، إلا أنه كان ممكناً أيضاً أن يفقد هذه الصورة ومجدها. وهو سكن في الفردوس بالحقيقة، إلا أن هذا الفردوس لم يكن هو السماء، وكان يمكن أن يُغرَّم بفقده له مع كلِّ بهائه. وكان شيء واحد ناقصاً من كل الغنى الذي نعم به آدم روحياً ومادياً، ألا وهو اليقين المطلق. وما دُمنا لا نمتلك هذا اليقين، لا تكتمل راحتنا ومسرتنا. وفي الواقع فإن العالم المعاصر، بكل ما يُبذَل فيه من جهد لضمان كل ما يمتلكه الإنسان هو بيّنة وافية على ما نقوله . أما المؤمنون فهم مضمونون، في هذه الحياة وفي الحياة الآتية، وذلك لأن المسيح هو ضامنهم وما كان ليسمح بأن يُخطف أيُّ واحدٍ منهم من يده فيهلك (يوحنا **10**: **28**). والمحبة الكاملة تطرح منهم الخوف إلى خارج (**1** يوحنا **4**: **18**) وتُقنعهم بأن لا شيء سوف يفصلهم عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربِّهم (رومية **8**: **38** و **39**). بيد أن هذا اليقين المطلق كان يُعوز الإنسان في الفردوس: فهو لم يؤتَ مع خلقه على صورة الله تمكيناً دائماً أن يفقده كلَّه، سواءٌ بالنسبة إليه شخصياً أو بالنسبة إلى ذريته. فلقد كان مصدره إلهياً، وطبيعته مرتبطة بالطبيعة الإلهية، ومصيره المرسوم هو السعادة الأبدية في حضرة الله بالذات. غير أن وصوله إلى المقصد المنصوب جُعِل متوقفاً على اختياره الخاص وإرادته الشخصية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الفصل الخامس

الخطية والموت

يُطلعنا الفصل الثالث من التكوين على سقوط الإنسان وعصيانه. ومن المفترض أن ذلك قد حدث بعد فترة ليست طويلة من خلْقِه، إذ ارتكب ذنب تعدي الوصية الإلهية. فالخلق والسقوط ليسا متزامنين، وينبغي ألا يُخلطا بعضهما ببعض، إذ يختلفان أحدهما عن الآخر في الطبيعة والجوهر، غير أنهما قريبان زمنياً الواحد من الآخر.

هكذا كانت الحال بالنسبة إلى الملائكة. ولا يزودنا الكتاب المقدس بخبر مفصّل في خلق الملائكة وسقوط بعضهم، بل يُطلعنا على ما نحتاج إليه من ذلك حتى نفهم الإنسان وسقوطه حق الفهم، بغض النظر عن الاسترسال في التفصيل، دون أن يورد البتة أي تلميحات من شأنها أن تُرضي فضولنا. إنما نعلم يقيناً أن الملائكة موجودون، وأن عدداً كبيراً منهم سقط، وان هذا السقوط أيضاً حدث في بداية العالم. حقاً إن البعض قد حدد وقت خلق الملائكة وسقوط بعضهم بزمنٍ أقدم كثيراً، في أثناء الزمان السابق لتكوين (1: 1)؛ غير أن الكتاب المقدس لا يُقدّم أساساً لاعتقادٍ كهذا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يتحدث (تك 1: 1) عن عمل الخلق الكامل، ومن المحتمل أن (تك 1: 31) يشمل في ما يقوله هذا العمل بكامله لا خلْقَ الأرض وحدها، حيث نقرأ: ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسنٌ جداً. فإن صحَّ هذا، فلا بُدَّ أن يكون تمرد الملائكة وعصيانهم قد حدثا بعد اليوم السادس من أيام الخلق.

هذا من جهة؛ ومن الجهة الأخرى أنه من الثابت أن سقوط الملائكة سبق سقوط الإنسان. فالخطية لم تنفجر أول مرة على الأرض بل في السماء، في حضرة الله بالذات وعند موطئ عرشه. ففكر مقاومة الله والرغبة فيها وإرادتها نشأت أولاً في قلب بعض الملائكة. وربما كانت الكبرياء هي أم الخطايا، وبذلك كان بدءُ سقوطهم ومبدأه. ففي (1 تيموثاوس 3: 6) ينصح بولس الكنيسة ألا تختار لخدمة الأسقفية رجلاً لم يمض على دخوله إلى الإيمان زمنٌ طويل، لئلا ينتفخ تكبراً فيسقط في دينونة إبليس. فإذا كان المقصود بهذه الدينونة، تلك الدينونة التي سقط فيها إبليس لما ترفَّع أمام وجه الله، فإن لنا هنا إشارةً إلى حقيقة ابتداء الخطية في إبليس بصورة تمجيد الذات، والكبرياء.

ومهما كانت حقيقة الأمر، فإن سقوط الملائكة قد سبق سقوط الإنسان. ورُغم كل شيء، لم يصل الإنسان إلى تعدي وصية الله من تلقاء ذاته فقط، بل حُرِّض عليه. فإذ خدعت الحيةُ حواءَ وأغوتها، وقعت في التعدي (2 كورنثوس 11: 3، 1 تي 2: 14). وعلينا بكل يقين ألا نعتبر هذه الحية كأنها ظهورٌ رمزي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بل إنها حية بالفعل، إذ نقرأ صراحةً أن هذه الحية كانت أحيل – أو أدهى – جميع حيوانات البرية (تكوين 3: 1؛ متى 10: 16). ولكن على مثل هذه الدرجة من اليقينية أيضاً، يأتينا الإعلان الإلهي فيما بعد بفكرة أن قوة شيطانية استخدمت الحية لتخدع الإنسان وتُغويه. إذ نقرأ في مواضيع كثيرة في العهد القديم أن الشيطان هو المشتكي على الإنسان والمجرب له (أيوب 1: 1؛ 1 أخبار الأيام 21: 1؛ زكريا 3). غير أن قوة الظلام الرهيبة تُعلن أول مرة عندما أشرق على العالم أولاً النور السماوي في المسيح. فعندئذٍ تبدى للعيان أن ثمة عالماً خاطئاً آخر غير العالم الذي هو هنا على الأرض. فإن هنالك عالَم شرٍّ روحياً خُدامُه المطيعون شياطين لا يكاد عددها يُحصر، وأرواحُ شريرة نجسة، رئيسُها ورأسُها هو الشيطان (راجع متى 12: 45). هذا الشيطان تُطلق عليه أسماء شتى فهو ليس فقط الشيطان، أي الخصم؛ بل أيضاً إبليس، أي المجدّف؛ والشرير (متى 16: 13؛ 13: 19)، والعدو (متى 13: 39؛ لو 10: 19)، والمشتكي (رؤيا 12: 10)، والمجرِّب (متى 4: 3)، وبليعال، أي الدناءة أو التفاهة (2 كورنثوس 6: 15)، وبعلزبزل أو بعل زبوب، وهو الاسم الذي أُطلق أصلاً على إله الذباب الذي عُبد في عقرون (2 ملوك 1: 2؛ متى 10: 25)، ورئيس الشياطين (متى 9: 34)، ورئيس سلطان الهواء (أفسس 2: 2)، ورئيس هذا العالم (يوحنا 12: 31)، وإله هذا الدهر (2 كورنثوس 4: 4)، والتنين العظيم والحية القديمة (رؤيا 12: 9).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ومملكة الظلام هذه لم تكن موجودة منذ بدء الخليقة، بل برزت إلى الوجود بسقوط الشيطان وملائكته. فإن بطرس يقول عموماً إن ملائكةً أخطأوا فعاقبهم الله بالتالي (2 بطرس 2: 4)؛ ولكن يهوذا – في الآية السادسة من رسالته – يشير بأكثر تحديد إلى طبيعة خطيَّتهم يُعلن أنهم لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم في السماء. فهم لم يقنعوا بالوضع الذي وضعهم الله فيه، واشتهوا ما هو أرفع منه. هذا التمرُّد حصل عند البدء، لأن إبليس من البدء يُخطئ (1 يو 3: 8)، وكان منذ البدء يهدف إلى إفساد الإنسان. ويقول الرب يسوع صراحةً إن الشيطان كان منذ البدء قتّالاً للناس ولم يثبت في الحق لأنه كذاب (يو 8: 44).

ومن هذا الشيطان جاءت تجربة الإنسان عن طريق انتهاز الوصية التي أعطاها الله للإنسان بألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر. ويشهد الرسول يعقوب أن الله منزَّه عن التجربة، وأنه لا يجرِّب أحداً بالشر. وبالطبع ليس معنى هذا أن الله لا يجرِّب إنساناً، أو يمتحنه. فالكتاب يتحدث غالباً عن حالات يفعل الله ذلك بعينه، سواءٌ في حالات كحالة كلٍ من إبراهيم وموسى وأيوب والمسيح بذاته، أو مباشرةً في حالة الإنسان الأول أي آدم. ولكن عندما يقع أحد في التجربة، فإنه يلجأ حالاً إلى إلقاء تهمة سقوطه على الله ويقول إن الله جرَّبه، أي امتحنه بقصد إسقاطه، أو أجازه في اختبارٍ لا بُد له أن يُخفق فيه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ونحن نرى أن آدم بعد السقوط نسب هذه التهمة إلى الله.وتلك هي النزعة الخفية في قلب إنسان الآن. لذلك يضطلع يعقوب بمواجهة هذه النزعة فيقول على نحوٍ حازم وجازم إن الله نفسَه فوق مستوى التجربة وأنه لا يُجرب أحداً البتة. إنه لا يُجرب أحداً بقصد أن يجعله يسقط، وهو لا يُجيز أحداً في امتحان لا تكون له طاقةٌ لاحتماله (1 كو 10: 13). فالوصية الاختبارية المعطاة لآدم كان المقصود بها أن تجعل طاعة آدم معلنة، ولم تكن بحالٍ من الأحوال، تفوق طاقتـــه أو قدراتـــه. وبمنطق البشر، كان في وسع الإنسان أن يحفظ تلك الوصية بكل يُسر، لأنها كانت خفيفة، ولا تُقارن في ثقلها البتة بكل ما أعطي آدم وسُمِح له به.

غير أن ما يقصده الله دائماً للخير يؤوله الشيطان دائماً للشر. فهو يُسئ استعمال الوصية الاختبارية ويُحيلها إلى تجربةً، يهجم بها بخدعة على طاقة الإنسان الأول، قاصداً بها كما هو واضح أن يحمل الإنسان على السقوط. فأولاً، يصـــور الشيطان الوصية الإلهية كأنها ثقلٌ اعتباطي نافل أو تحديد لا أســـاس لـــه لحريـــة الإنسان. وهكذا يزرع في قلب حواء بذرة الشك في الوصية من حيث مصدرها الإلهي وعدالتها. وثانياً، يطور ذلك الشك إلى عدم إيمان معتمداً على فكرة كون الله قد أعطى الإنسان هذه الوصية لئلا يصير الإنسان مثله عارفاً الخير والشـــر. وعدم الإيمان هذا يثير بدوره المخيِّلة فيجعل التعدي يظهر، لا بوصفه السبيل إلى الموت، بل طريقاً إلى الحياة الأبدية وإلى المساواة بالله. ومن ثم يفعل التخيُّل فعله في ميل الإنسان وسعيه، بحيث تبدأ الشجرة المحرمة تكتسي حُلَّةً أخرى: فإذا هي شهية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

للنظر ومرغِّبة للقلب. وإذ حبلت الشهوة على هذا النحو عطّلت الإرادة ثم ولدت الخطية. وهكذا أخذت حواء من ثمر الشجرة وأكلت فعلاً، وأعطت رجُلَها أيضاً معها فأكل هو الآخر (تك 3: 1 – 6).

بهذه الطريقة البسيطة – والعميقة في نفس الوقت – في سبر أغوار النفس البشرية، تروي كلمة الله خبر السقوط وأصل الخطية. وعلى هذه الشاكلة أيضاً ما تزال الخطية تنفذ إلى حيز الوجود. فإنها تبدأ بإظلام الذهن، وتستمر بتهييج المخيِّلة، وتُثير الشهوة في القلب، وتبلغ ذروتها بفعلٍ من الإرادة. وحقيقة الأمر، إن بين نشوء الخطية الأولى وعمل سائر الخطايا من بعدها فرقاً كبيراً. فالخطايا الأخرى تنطلق من طبيعةٍ خاطئة في الإنسان وتستغلُّ وجود هذه الطبيعة. ولم تكن مثل هذه الطبيعة موجودة في آدم وحواء، لأنهما خُلِقا على صورة الله. ولكننا نفعل حسناً إذا تذكرنا أنهما، رغم كل كمالهما، خُلِقا على حالٍ تحتمل سقوطهما، وأيضاً أن الخطية، بسببٍ من طبيعتها، تُحيط بها دائماً صفتا اللا تعقل والاختيار. فإذا أخطأ أحد، يحاول دائماً أن يعذر نفسه أو يبررها، لكنه لا ينجح البتة في ذلك؛ إذ لا يوجد أبداً أي أساس معقول أو منطقي للخطية. فوجود الخطية كان في كلِّ حين وسيبقى تعدياً وخرقاً للأصل وبينما يحاول البعض في أيامنا أن يؤكدوا أن الشر يصل إلى فعلته الخاطئة بفعل الظروف أو بدافع نزعته الطبيعية، فإن مثل هذه الحتمية الداخلية أو الخارجية خاضعةٌ دائماً في ضمير المرء لتنازع طاغ. فلا يعقل أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تُعزى الخطية – لا منطقياً ولا نفسياً – إلى ميلٍ أو فعلٍ له أيُّ داعٍ لأن يوجد أو أيُّ حق بذلك.

هذا الأمر ينطبق بصورة خاصة على أول خطية ارتُكبت، أي خطية الإنسان الأولى في الجنة. وعلى الرغم من وجود ظروف تحاول تخفيف الأمر في أيامنا هذه، إلا أن هذه الظروف لا تسوغ الخطية وإن كانت تحد بالفعل من معيار الذنب. ولكن في خطية الزوجين البشريين الأولين لم يكن حتى ظرفٌ واحدٌ يمكن أن نحتجَّ بأنه عاملٌ مخفف للجرم. بل إن كلَّ ما يُمكن اعتباره قرائن لحدث السقوط يضخم في الواقع مد الجرم لا يخففه – نعني بذلك: الإعلان الخاص الذي به بُلِّغ آدم حواء الوصية الاختبارية؛ وكونَ مضمون هذه الوصية هو ما هو بحيث لم يكن يقتضي إلا القليل من نكران الذات؛ وخطورة العقوبة الناتجة عن مخالفة الوصية؛ وهول العواقب، وقداسة طبيعة الإنسان الأول.

وبينما نستطيع أن نُلقي بعض الضوء على إمكانية السقوط، يبقى الانتقال إلى حدوثه الفعلي محفوظاً بالظلام. فالكتاب المقدس لا يتضمن ولو تلميحاً واحداً يعيننا على فهم هذا الانتقال. وبذلك يجعل الكتاب الخطية تبرز غير مخفَّفة، في طبيعتها الخاطئة جداً. فهنالك فعلاً شيءٌ هو الخطية، إلا أنه غير شرعي. فطالما كانت وتظلُّ وستبقى إلى الأبد، في نزاعٍ مع شريعة الله ومع شهادة ضميرنا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن خبر السقوط في (تكوين 3)، إذ يربط بين هذين الطرفين، أعني – من جهة – تقديم عرض نفسي لنشوء الخطية (وهي شيءٌ يشعر بحقيقته كلٌّ منا كل لحظة في حياته) ثم – من جهة أخرى – إظهار الخطية بصورة مذهلة في طبيعتها غير المعقولة التي لا يُلتَمَس لها العذر، ليسمو كثيراً جداً فوق كل رواية تتناول أصل الخطية من بين ما تأتّى للحكمة البشرية أن تطلع به عبر العصور. ثمَّ إن وجود الخطية والشقاء هو، رغم كل شيء، أمرٌ نعرفه لا من الكتاب المقدس وحسب بل تنادي لنا به كلَّ يومٍ وكلَّ لحظة خليقةٌ تئنُّ بكاملها. فالعالم كلُّه يندرج تحت لافتة السقوط. حتى لو كان العالم من حولنا لا يُعلن ذلك، إذاً لذكرنا به من لحظة إلى لحظة صوت الضمير الذي يتهمنا كل حين، كما يذكرنا به بؤس القلب الذي يُنبينا عن شقاء لا يوصف.

لذلك السبب، ما كان ليتعب بني البشر، في كل مكان وزمان، السؤال: لماذا الشر؟ لماذا شر الخطية وشر الشقاء؟ ذلك هو السؤال الذي شغل فكر البشر وجثم على قلوبهم وعقولهم ساعةً بعد ساعة، أكثر مما شغلهم السؤال المتعلق بأصل الإنسان أيضاً. ولكنْ، لنقارنِ الآن بالجوابِ البسيط الذي يقدمه الكتاب المقدس عن هذا السؤال، الحلول التي ارتأتها له الحكمةُ البشرية.

وبطبيعة الحال، ليست هذه الحلول متشابهةً بحالٍ من الأحوال. غير أنها رغم ذلك تنمُّ عن علاقة ما، وبالنظر إلى هذا الواقع يمكن تحديد هذه الحلول.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالحلُّ الذي يُطرح أكثر من غيره هو ذاك الذي يزعم أن الخطية ليست ساكنةً في الإنسان ولا هي تخرج منه، بل إنها تلتصق به من الخارج. والواقع أن هذه الفكرة تذهب إلى أنَّ الإنسان صالح بطبيعته وقلبه غير فاسد، والشر يكمن في الظروف، أي في البيئة، في المجتمع الذي يولد فيه الإنسان ويُنشَّأ. فإذا أزَلْنا هذه الظروف، بأن نُدخِل مثلاً توزيع الثروات بالتكافؤ على جميع الناس، يصير الإنسان صالحاً بصورة طبيعية، إذ لا يعود ثمة أيُّ سببٍ يدعوه لأن يفعل الشر.

هذه الفكرة الخاصة بأصل الخطية وجوهرها طالما كان لها دائماً مؤيدين كثيرون، لأن الإنسان نزَّاعٌ في كل حين إلى إلحاء ذنبه على الظروف. على أنها وجهة نظر لقيت إكراماً خاصاً لما انفتحت الأعينُ، منذ القرن الثامن عشر، على الفساد السياسي والاجتماعي، وامتُدِح قلْبُ المجتمع والدولة رأساً على عقب بصورة جذرية باعتباره ترياقاً لجميع الأدواء. ولكن في موضوع صلاح الإنسان بالطبيعة هذا، عاد القرن التاسع عشر فأدخل قدراً معيناً من إزالة الوهم. أما حالياً فليس قليلاً بأيِّ حال عددُ الذين يعدُّون طبيعة الإنسان شريرة جذرياً وييأسون من إصلاحه.

وهكذا راج من جديد ذلك التفسير الآخر الذي يبحث عن أصل الخطية في طبيعة الإنسان الحسية. فالإنسان له نفس، لكن له جسداً أيضاً، وهو روحٌ لكنه جسدٌ أيضاً. والجسد ذاته له دائماً نزعاتٌ وميول أثيمة، متمثلة تقريباً في الشهوات

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الدنسة والهواء المنحطة، وبذلك يقوم – من حيث الطبيعة – ضداً للروح بمفاهيمها وأفكارها ومُثُلها. ونظراً لأن الإنسان عندما يولد يستمر سنين طويلة عائشاً نوعاً من الحياة نباتياً وحيوانياً، ويظل ولداً يعيش على أساس الصور المحسوسة، فغنيٌ عن البيان أن الجسد يكون هو العنصر المسيطر طيلة سنين كثيرة فيُبقي الروح خاضعة له. ولا تنعتق الروح – بحسب وجهة النظر هذه – من سلطة الجسد إلا تدريجياً. ولكن التطور من الجسدانية إلى الروحانية. وإن كان تدريجياً إلى آخر حد، يستمر بالفعل في البشرية وفي الإنسان الفرد.

بطريقةٍ أو بأخرى شبيهة بما تقدم، تحدّث الفلاسفة والمفكرون مراراً وتكراراً عن أصل الخطيئة. إلا أنهم في الزمن الحديث الأقرب إلينا عهداً تلقوا دعماً قوياً من النظرية القائلة بأن الإنسان في ذاته تحدَّد من الحيوان وأنه في قلبه ما زال حيواناً بالفعل.

ويمضي بعضهم فيستدل من هذا الواقع أن الإنسان سيظل حيواناً إلى الأبد. على أن البعض الآخر يراوده الأمل بأن الإنسان، ما دام حتى الآن قد تطور على هذا النحو المتقدم المجيد بالنظر إلى أصوله، سيرتقي بعدُ في رقيّه مستقبلاً، حتى يُصبح ملاكاً على وجه الاحتمال. وأياً كان الأمر، فإن تحدُّر الإنسان من الحيوان بدا شيئاً يقدم حلاً لمشكلة الخطية لافتاً للنظر. فإذا كان أصل الإنسان يعود إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

صدوره عن الحياة الحيوانية، فطبيعيٌّ جداً وأمرٌ لا يدعو إلى العجب أن الحيوان القديم يظل ناشطاً فيه حتى يتحدى أحياناً ضوابط الأدب ويتعداها.

ولذلك يرى كثيرون أن الخطية ليست إلا فعلَ أثرٍ باقٍ من الحالة الحيوانية الأصلية. فالانغماس في الشهوة، والسرقة، والقتل، وما شابهها، ممارساتٌ كانت شائعةً بين الشعوب القديمة جداً مثلما هي بين الحيوانات، وهي تظهر الآن أيضاً في الأفراد المتخلفين من المدعوين مجرمين. غير أن هؤلاء الناس الذين يتردَّون من جديد في الممارسات القديمة والأصلية من حقهم ألا يُعتبروا مجرمين، بل بالأحرى أشخاصاً متخلفين، أو ضعفاء، أو مرضى، أو مجانين تقريباً. وينبغي ألا يعاقبوا في السجون بل أن يعالجوا في المصحات. فكما الجرح في الجسم، كذلك المجرم في المجتمع. وما الخطية إلا مرض يصحب الإنسان من وجوده الحيواني السالف ولا يقمعه الإنسانُ إلا بالتدريج.

وإذا تابع المرء هذا الخط الجدلي حتى نهايته المنطقية، باحثاً عن تفسير الخطية في الشهوة الحسية، أو الجسد، أو الأصل الحيواني، فمن الطبيعي أن يصل إلى العقيدة التي غالباً ما تم التعليم بها في الماضي والتي ترى أن نقطة الخطية هي في المادة، أو بتعبيرٍ أكثر عمومية: في الوجود المحدود لكل المخلوقات. وقد كان هذا الرأي منذ القديم رأياً مفضلاً. وبحسبه أن الروح والمادة متضادتان، كشأن النور والظلمة. وهذا التضاد أبدي بحيث لا يمكن للأمرين أن يصلا إلى شركة كاملة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وصحيحة أحدهما مع الآخر. فالمادة إذاً ليست مخلوقاً، لأنه لم يكن ممكناً أن يخلق إله النور هذا الشيء المظلم. فلا بُدَّ أنها كانت موجودة أزلاً إلى جانب الله، عديمة الشكل ومظلمة، بمنأى من كل نور وحياة. حتى إنها عندما أعطاها الله شكلاً فيما بعد واستخدمها ببناء هذا العالم، ظلت غير قادرة على اتخاذ الفكرة الروحية في ذاتها وعلى العودة إليها. فإذ هي مظلمةٌ في ذاتها ما كنت لتتقبل نور الفكر.

ويرى بعض المفكرين أن هذه المادة المظلمة تعود إلى أصلٍ إلهي خاص بها. وفي هذه الحال، يصير هناك إلهان متواجدان منذ الأزل، هما إله النور وإله الظلمة، إلهٌ خيِّر وإلهٌ شرير. ويحاول آخرون أيضاً أن يردوا مبدأي الخير والشر الأزليين إلى مصدر إلهي واحد، وبذلك يجعلون الله كائناً ثنائياً. في هذا الكائن أساس لا واع ومظلم وسري تنبعث منه طبيعة واعية ونقية ونيّرة. أما الأول فهو المصدر الأصلي للظلام والشر في العالم؛ وأما الثانية فمصدر كل خير وحياة.

وإذا خطونا الآن خطوة واحدة بعد، نصل في عصرنا الحاضر إلى العقيدة التي يُعلِم بها بعض الفلاسفة، إذ يذهبون إلى أن الله في ذاته ليس سوى طبيعة وقوة عمياء، وجوع أزلي وإرادة اعتباطية، يبلغ وعيه فيصبح نوراً في البشرية فقط. ويقيناً الكلمة المكتوبة. فكلمة الله المقدسة تُفيدنا أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة، وانه في البدء كان كل شيء بالكلمة. غير أن فلسفة عصرنا تزعم أن الله ظلمة وطبيعة ولا تكوُّن، وأن النور لا يُشرق عليه إلا في العالم والبشرية. فليس الإنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالتالي هو المحتاج لأن يخلِّصه الله، بل إن الله هو غيرُ المخلِّص والذي ينبغي لـــه أن يتطلع إلى الإنسان لأجل افتدائه تعالى.

هذه الخلاصة الأخيرة لا يتوصل إليها بمثل هذا الوضوح طبعاً، كلُّ مـــن يعبث بالنظرية المذكورة، ولا تُصاغ بمثل هذه الصراحة، إلا إنها مع ذلـــك نهايـــة الطريق الذي ينتهجه من يلتزمون الآراء المشار إليها أعلاه فيما يتعلَّق بأصل الخطية. ومهما اختلف أتباع هذه الآراء أحدهم عن الآخر، فإن لهم جميعاً هـــذه الصـــفة المشتركة: أنهم لا يبحثون عن أصل الخطية ومقرها في إرادة المخلوق، بل في كيان الأشياء وطبيعتها، وبالتالي في الخالق الذي هو علة هذا الكيان وهذه الطبيعة. فإذا كانت الخطية كامنة في الظروف، والمجتمع، والشهوة الحسية، والجسد، والمـــادة، فالمسؤولية عنها إذ ذاك يجب أن تُلقى على ذاك الذي هو خالق كل شيء ومدبره. وعندئذٍ يمضي الإنسان بريئاً من أي لوم وسليماً من أي أذى. وفي هذه الحـــال لا تكون الخطية قد ابتدأت عند السقوط، بل عند الخلق. ومن ثم يتطـــابق الخلـــق والسقوط كلياً. وعندئذ تصير الكينونة – أي الوجود – في حد ذاتهـــا خطيئـــة؛ والنقائض الأدبية كأنها والمحدودية شيءٌ واحد؛ كما يغدو الفداء مستحيلاً كلياً، أو يبلغ ذروته في محق العنصر الحقيقي، في النِرفانا.

إنما حكمة الله أسمى جداً جداً من هذه التوهمات البشرية. فهذه الأخـــيرة تلقي المسؤولية على عاتق الله وتزكي الإنسان؛ أما الأولى فتبرر الله وتتهم الإنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالذنب. وكلمة الله المقدسة هي الكتاب الذي من أوله إلى آخره يتبرر الله ويتذنب الإنسان. فهذه الكلمة هي أقوى دفاعٍ وأعظمُه عن عدالة الله، إذ تزكى الله وكلَّ سجاياه وكلَّ أعماله، تؤيدها في ذلك شهادة ضمير كل إنسان. صحيحٌ أن الخطية ليست شيئاً يقع خارج نطاق العناية الإلهية، إذ لم يحدث السقوط خارج مدى علم الله السابق ومشورته ومشيئته. بل إن كاملَ تطوُّر الخطية وتاريخها خاضعٌ لسيطرته، وسيبقى إلى النهاية ملتزماً لتوجيهه. ففي موضوع الخطية يبقى الله هو الله الكلي الحكمة والصلاح والقدرة.

فإن الله هو بالحقيقة صالح وقدير بحيث يجعل الخير يخرج من الشر، ويستطيع أن يُجبر الشر، رُغم طبيعته، على المساهمة في تمجيد اسمه وتوطيد ملكوته. إلا أن الخطية تبقى مع ذلك محتفظة بصفتها الخاطئة المميزة. وفي وسعنا أن نقول، بمعنىً خاصٍّ جداً، إن الله سمح بالخطية مادام لا شيء يمكن أن يبرز إلى الوجود، ولا أن يوجدَ، بدون إرادته وخارج نطاقها. ومع ذلك فإن علينا دائماً أن نذكر أنه سمح بها بوصفها خطية، أي شيئاً غير سوي وكان يجب ألا يكون، ولذلك فهو شيء غير شرعي ومضادٌّ لأمره تعال.

وهكذا، فإن الكتاب المقدس إذ يزكي الله، يؤكد في الوقت نفسه طبيعة الخطية. وإذا لم يكن أصل الخطية بسماح من مشيئة الله، بل من الجوهر أو الكينونة التي تسبق المشيئة، فإنها حالاً تفقد صفتها الأدبية المميزة، وتصير شيئاً مادياً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وطبيعياً، أي شراً غير منفصل عن جود سائر الأشياء وطبيعتها. وعندئذ تكـــون الخطية حقيقية مستقلة، ومبدأ أساسياً، ونوعاً من المادة الشريرة، كما كان يُعتقد بشأن المرض في الأزمنة الغابرة. غير أن كلمة الله المقدسة تعلِّمنا أن الخطية ليست من هذا النوع، ولا يمكن أن تكون منه. ذلك أن الله هو الخالق لكل شيء، بما في ذلك المادة، ولما أكمل عمل الخلق، رأى تعالى كل ما عمله، فإذا هو حسنٌ جداً.

إذاً الخطية لا تنتمي إلى طبيعة الأشياء. فهي ظاهرةٌ أدبية بطبيعتها، ناشطةٌ في الفلك الخُلُقي، وقوامها الابتعاد عن المعيار الخُلُقي الذي وضـــعه الله بمشـــيئته للإنسان العاقل. وقد توضعت الخطية الأولى في تعدّي الوصية الاختبارية، وبالتالي تعدي كامل الناموس الأدبي المستقر على السلطان الإلهي نفسه الذي عليه استقرت الوصية الاختبارية. إلى هذا الاتجاه نفسه تُشير جميع الأسماء التي تستعملها الكلمة المقدسة لتسمية الخطية: التعدي، العصيان، الإثم، الفجور، العداوة لله، وما إليها. ويقول بولس الرسول صراحةً إن بالناموس معرفة الخطية (رومية **3**: **20**)، كما يُعلن يوحنا أن كل خطية، أصغر الخطايا وأكبرها على السواء، هي تعـــدٍّ، أو إثم وفجور (**1** يوحنا **3**: **4**).

ولما كان التعدي هو طبيعة الخطية، فإن صفتها المميزة هذه لا يمكـــن أن تكون كامنة في طبيعة الأشياء أو جوهرها، أمادياً كان أم روحياً، لأن جميع الأشياء موجودة بفضل الله وحده، وهو تعالى مصدر كل خير. ولذلك لا يُعقل أن يـــأتي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الشر إلا بعد الخير، ولا يُمكن أن يوجد إلا من خلال الخير وعلى أساسه، بحيث لا يكون في الواقع إلا إفساداً للخير. حتى الملائكة الأشرار، وإن كانت الخطية قد أفسدت كامل طبيعتهم، يظلُّون – من حيث هم خلائق – شيئاً حسناً كما كانوا كذلك أصلاً. أضف إلى هذا أن الخير بمقدار ما هو في صُلب جوهر الأشياء أو كينونتها، لا تمحقه خطية، وإن كان حُرِفَ في اتجاه آخر أو أُسيء استعمالهُ. فالإنسان لم يفقد كينونته أو طبيعته البشرية، من جراء الخطية. ما تزال لديه نفس وجسد، وعقل وإرادة، وعواطف واهتمامات من أنواعٍ شتى.

غير أن جميع هذه الهبات مع كونها صالحة في ذاتها ونازلة من عند أبي الأنوار، باتت الآن تُستعمل كأسلحة ضد الله موضوعة في خدمة الإثم. وعليه، فالخطية ليست مجرد نقص أو حاجة، ولا هي أيضاً فقدان الإنسان لما كان يمتلكه أصلاً. فليس هذا أشبه بوضعِ من كان غنياً ثم افتقر، أو من مُني بخسارةٍ فادحة ثم كان عليه أن يواصل العيش بأقل كثيراً مما كان له. بل إن الخطية أكثر من ذلك بكثير. إنها حرمان الإنسان ما كان يجب أن يمتلكه ليكون إنساناً بكل معنى الكلمة؛ وهي في الوقت نفسه إدخالُ نقصٍ أو تشويه لا يليق بالإنسان.

وبحسبما أثبت العلم المعاصر أن المرض ليس مادة خاصة مستقلة بذاتها، بل هو بالأحرى عيشٌ في ظروف مغايرة بحيث أن قوانين الحياة تبقى في الواقع هي إياها كما في الجسم السليم، إلا أن أعضاء المريض الحية ووظائفها يعتريها اختلالٌ في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

نشاطها السوي. حتى الجسد الميت لا يتوقف فيه العمل غير أن النشاط الذي يبدأ عندئذٍ يكون من نوعٍ هدام يؤول إلى الانحلال. بهذا المعنى عينه، ليست الخطية مادة في ذاتها بل هي بالأحرى ذلك الاختلال اللاحق بجميع ما أعطى الله الإنسان من مواهب وقدرات، على نحوٍ يجعلها تعمل في اتجاهٍ آخر، لا نحو الله بل بعيداً عنه في خطٍّ معاكس. فإن العقل والإرادة، والاهتمامات والعواطف والمشاعر، والقدرات النفسية والبدنية من نوعٍ أو آخر هذه كلها كانت فيما مضى آلات بر، لكنها الآن استحالت آلات إثم، وذلك بفعل الخطية الخفي. فلم تكن صورة الله التي نالها الإنسان عند خلقه، مادةً مستقلة، إلا أنها كانت مع ذلك مناسبة تماماً لطبيعته بحيث إنه عندما فقدها صار مشوهاً وناقصاً كلياً.

ولو قُدِّر لأحد أن يرى الإنسان على حقيقته، داخلاً وخارجاً، لاكتشف فيه ملامح تشبه الشيطان أكثر مما تماثل الله (يوحنا 8: 44). فقد حل المرض والموت الروحيان محل الصحَّة الروحية. ولكن هذه الأخيرة لا تقل عن سابقيها قدراً من حيث كونها عنصراً مكوَّناً من عناصر الإنسان الكيانية. حتى أن الكتاب، عندما يشدّد على الطبيعة الأدبية للخطية، يؤكد بذلك أيضاً إمكان افتداء الإنسان.

وليست الخطية شيئاً ينتمي إلى جوهر العالم بل هي بالأحرى شيءٌ أدخله الإنسان إلى العالم. لذلك السبب يمكن أيضاً إزالتها من العالم بقوة النعمة الإلهية التي هي أقوى من كل مخلوق.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

لم تبق أول خطية ارتكبها الإنسان وحدها طويلاً. فهي لم تكن ذلك النوع من الفعل الذي يستطيع الإنسان بعد فعله أن ينفض يده منه ويزيل آثاره. إذ لم يعد في استطاعة الإنسان بعد هذه الخطية أن يواصل مسيرته وكأن شيئاً لم يكن. ففي اللحظة التي سمح الإنسان فيها للخطية بأن تُقيم في فكره ومخيلته، وفي رغبته وإرادته، في تلك اللحظة بالذات حدث فيه تغيُّر هائل. وذلك واضح جلياً من حقيقة كون آدم وحواء، بعد السقوط مباشرة، حاولا الاختباء من وجه الله والتستُّر أحدهما من الآخر، وقد انفتحت أعينهما كليهما فعلما أنما عُريانان (تكوين 3: 7). ففجأةً، في لحظة واحدة، وقف أحدهما مقابل الآخر في علاقة جديدة مختلفة. إذ رأى أحدهما الآخر كما لم يره قطٌّ من قبل. فلم يتجاسرا ولم يتمكنا، بكل حرية وبلا أي تحفظ، أن ينظرا بعضهما في عيني بعض. لقد شعرا، في قرارة النفس بأنهما مذنبان وغير طاهرين، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما ما يستران به عُريَهما أحدهما أمام الآخر. ورغم كل شيء، تشارك أحدهما مع الآخر في الوضع نفسه وشعرا أنهما واحد إزاء الخوف المشترك وضرورة الاختباء من وجه الله في وسط شجر الجنة.

وقد وفرت أوراق التين ستراً جزئياً لعورة أحدهما عن الآخر، ولخزيهما بعضهما أمام بعض، غير أنها ما كانت وافيةً لمواجهة وجه الله، ولذلك هربا واختبأا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في أعماق أشجار الجنة الغبياء. فإن الخزي والخوف استوليا عليهما، لأنهما ضيعا صورة الله وشعرا أنهما مذنبان وغير طاهرين أمام وجهه.

وهذه هي دائماً عاقبة الخطيئة. فأمام الله ونفوسنا وإخواننا البشر، نفقد العفوية والحرية الروحيتين الداخليتين، لكونهما حقيقتين واقعتين لا يشبعهما في قلوبنا إلا الشعور بعدم الذنب. على أن هول الخطية الأولى يتوضح بأكثر جلاءً أيضاً في حقيقة كون آثارها تنتقل من أول زوجين بشريين إلى جميع البشر دون استثناء فقد اتُّخذت الخطوة الأولى في الاتجاه المغلوط وإذا جميع المتحدرين من آدم وحواء يسيرون خلفهما في الطريق عينه. وعمومية الخطية واقع يفرض ذاته على إدراك كل إنسان. فهي حقيقة واقعية راسخة على نحو لا يقبل الجدل، يؤيِّدها أيضاً دليل الاختبار وليس فقط تعليم الكلمة الإلهية المقدسة.

ولن يكون أمراً عسيراً البتة أن نجمع الشهادات الدالة على الخطية من كل مكان وزمان. فأبسطُ الناس وأكثرُهم ثقافة يتفقون جميعاً في هذا الأمر حتى ليقال إنه لا يولد أحدٌ من دون خطية. ولكلٍ ضعفاته ونقائصه. ومن عِلَل الإنسان الفاني غباوة الفكر، ويقصد بذلك لا حتمية الخطأ وحسب بل محبة الخطأ أيضاً. ولا أحد حر الضمير. والضمير يجعلنا جميعاً خونة. وأثقل حملٍ يتعين على البشر أن يحملوه هو عبء الذنب على هذا النحو تطرق مسامعنا أقوالٌ وأقوال من كل جهةٍ في تاريخ البشرية. حتى أولئك الذين ينطلقون من مبدأ أساسي عندهم، هو أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان خيِّرٌ بالطبيعة، يُضطرون في نهاية استقصائهم لأن يعترفوا بأن بذور جميع الخطايا والأفعال الرديئة مخبوءة في قلب كل إنسان. وكم من الفلاسفة قد دوَّنوا الإشتكاء من كون جميع البشر أشراراً بالطبيعة.

****

ويؤيد الكتاب المقدس هذا الحكم الذي أصدرته البشرية على نفسها. فبع أن يورد في الفصل الثالث من التكوين خبر السقوط، يبين في الفصول اللاحقة كيف انتشرت الخطية وازدادت في الجنس البشري حتى بلغت في آخر المر ذروة باتت معها دينونة الطوفان ضرورة لا مفر منها. فبخصوص جيل البشر السابق للطوفان يقول الكتاب إن شر البشر قد تعاظم جداً على الأرض، وإن كل تصور من أفكار قلب الإنسان كان شريراً كلَّ يوم، وإن كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض، وقد رأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت (تكوين 5: 6، 11 و 12). غير أن الطوفان العظيم لا يأتي بأي تغيير في قلب الإنسان. فبعد الطوفان أيضاً يقول الله عن البشرية الجديدة العتيدة أن تتحدّر من أسرة نوح إن تصور قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته (تك 8: 21).

ويلتقي جميع قديسي العهد القديم على الإدلاء بما يؤيد هذه الشهادة الإلهية. فأيوب يشكو قائلاً إنه ما من أحدٍ يستطيع أن يُخرج الطاهر من النجس (أي 14: 4). وسليمان يعترف في صلاته عند تدشين الهيكل بأنه ليس إنسانٌ لا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يُخطئ (1 ملوك 8: 46). وفي (المزمورين 14 و53) نقرأ أن الرب، إذ أشرف من السماء على بني البشر لينظر هل من فاهم طالبِ الله، لم يجد شيئاً إلا الفساد والإثم. فالكلُّ قد زاغوا معاً، فسدوا؛ ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد. لا أحد يقوي على الوقوف أمام وجه الرب، لأنه لن يتبرر قُدامه أيُّ حي (مز 143: 2). ومن يقول: إني زكيت قلبي، تطهرت من خطيتي؟ (أمثال 20: 9). وبعبارة موجزة، لا إنسان صديق في الأرض يعمل صلاحاً ولا يُخطئ (جامعة 7: 20).

هذه الأقوال كلُّها عامة وشاملة بحيث لا تُفسح المجال لأي استثناء. وهي لا تصدر من أفواه الأشرار والفجار الذين لا يكونون في الغالب مهمتين بخطاياهم أو خطايا سواهم، بل إنها صادرةٌ من قلوب الأتقياء الذين تعلَّموا أن ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم خطاةً أمام وجه الله. وهؤلاء لا يُصدرون هذا الحكم على الآخرين وحدهم بالدرجة الأولى، أو بعبارة أخرى على الذين يعيشون في الخطية العلنية كالوثنيين المنفصلين عن معرفة الله؛ بل إنهم في الواقع يبدأون بأنفسهم وبشعبهم.

فالكتاب المقدس لا يصور لنا القديسين كأناسٍ عاشوا على الأرض في كمال القداسة، بل بالأحرى كخطاةٍ ارتكبوا أحياناً معاصي خطيرة. وبكل تحديد، إن القديسين هم الذين يشعرون بذنبهم على أهول ما يكون ويتقدمون أمام وجه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الرب معترفين بالذنب بكل تواضع، وإن كانوا يظلون واثقين من عدالة قضيتهم.[1] حتى إنهم عندما يقفون ليشهدوا على الشعب ويبكتوه على ارتـــداده وخيانتـــه، ينتهون إلى شمل أنفسهم مع الشعب كواحدٍ منهم، ويجهرون بـــالاعتراف العـــام: نضطجع في خزينا ويغطينا خجلنا، لأننا إلى الرب أخطأنا، نحن وآباؤنا، منذ صبانا إلى هذا اليوم، ولم نسمع لصوت الرب إلهنا. [2]

كذلك لا يدع العهد الجديد أيضاً أيَّ ظلٍ للشك في حالة الخطية التي يتـــردى في هوتها الجنس البشري كله. فالكرازة بالإنجيل تنبني بكاملها على هـــذه الحقيقـــة البديهية. فلما نادى يوحنا المعمدان باقتراب ملكوت الله، طلب مـــن النـــاس أن يتوبوا ويتعمدوا، لأن الختان والذبائح وحفظ الناموس لم يتأتى لها أن تمنح شـــعب اسرائيل البر مع أنهم بحاجة إليه لدخول ملكوت الله. وهكذا خرج إليـــه أهـــل أورشليم وكل اليهودية، واعتمدوا على يده في الأردن معترفين بخطاياهم (متى 3: 5 و 6). وكذلك أظهر المسيح نفسه كارزاً بمثل هذه الكرازة المختصة بملكـــوت الله، هو يشهد بنفسه أيضاً أنه لا يفتح الطريق إلى الملكوت إلى الرجـــوعُ إلى الله بإيمانٍ وتوبة. [3]

---

(63) مز 6؛ 25: 32؛ 34، 51؛ 130؛ 143.

(64) إر 3: 25؛ إش 6: 5؛ 53: 4 – 6؛ 64: 6؛ دا 9: 5 وما يلي؛ مز 106: 6.

(65) مر 1: 15؛ 6: 12؛ أي 3: 3.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالحقيقة أن المسيح يقول في (متى 9: 12 و13) إن الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب، وإنه ما جاء ليدعو إلى التوبة الأبرار بل الخطاة إلا أن سياق الكلام يبين أن المسيح – إذ قال كلما قاله هنا – كان يفكر في الفريسيين وفي برِّهم الذاتي حين تجهموا لما رأوه يُجالس العشارين والخطاة. فلقد تعالوا على هؤلاء جداً ولعب برأسهم التبجُّح ببرِّهم ولم يستشعروا حاجتهم إلى محبة المسيح الباحثة عن المحتاجين إليها.

ففي الآية الثالثة عشرة يقول المسيح صراحةً وما يُفهم منه أن الفريسيين، لو فهموا أن الله في شريعته لم يُرِد الذبائح الخارجية بل الرحمة الروحية الداخلية، لكانوا وصلوا إلى الاقتناع بأنهم هم أيضاً – شأنهم شأن العشارين والخطاة – مذنبون ونجسون ومحتاجون إلى التوبة باسمه الكريم. وهو نفسه في تلك الأثناء يقصر خدمته على خراف بيت اسرائيل الضالة (مت 15: 24)، غير أنه بعد قيامته يكلف تلاميذه وكالة الانطلاق إلى العالم أجمع والكرازة بالإنجيل للخليقة كلها، لأن الخلاص هو لجميع البشر الذين يركنون إلى الإيمان باسمه (مرقس 16: 15 و16).

ومما يوافق هذا أن الرسول بولس يبدأ رسالته إلى مؤمني مدينة رومية بعرضٍ شامل للحجج التي تُبين أن العالم كُلَّه مذنبٌ أمام الله وأنه بالتالي لن يتبرر جسدٌ ما بأعمال الناموس (رو 3: 19 و 20). فليس الوثنيون فقط لم يعرفوا الله ولم يمجِّدوه (رو 1: 8 – 32). بل أيضاً اليهود المفاخرون بامتيازاتهم ولكنهم في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الواقع يُذنبون بالخطايا عينها هُم جميعاً تحت حُكم الخطية (رو 3: 9؛ 11: 32؛ غلاطية 3: 22). ولا بُدَّ أن يكون ذلك لكي يستدَّ كلُّ فمٍ وتتعظم نعمة الله وحدها في خلاص الجميع.

والواقع أن هذا الإثم الشامل هو على نحو جوهري أساس الكرازة بالإنجيل في العهد الجديد، بحيث يصبح لكلمة "العالم" مضمونٌ بغيض جداً. فإذا نظرنا إلى العالم في حد ذاته وإلى كلِّ ما فيه نجد بالطبع أن الله هو خالق هذا وذاك؛[1] غير أن العالم صار من جراء الخطية فاسداً جداً بحيث إنه يقوم الآن في مواجهة الله كقوةٍ معادية. فهو لا يعرف الكلمة الذي له يدين بوجوده (يوحنا 1: 10). وهو بكامله موضوع في الشرير (1 يوحنا 5: 19)، وخاضعٌ للشيطان كرئيس له (يو 14: 30؛ 16: 11)، وهو زائلٌ بكل ما فيه من شهوة ومرغوبية (1 يو 2: 16). وكل من يُحبُّ العالم يبين أن محبة الآب ليست فيه (1 يو 2: 15)، ومن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله (يعقوب 4: 4).

****

ومن شأن هذه الحالة الرهيبة التي توجد فيها البشر والعالم بالطبيعة أن تثير الأسئلة حول مصدرها وسببها: من أين جاءت، لا الخطية الأولى وحدها بل حالة

---

(66) يو 1: 3؛ كو 1: 16؛ عب 1: 2.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإثم الشاملة؟ وما مصدر الذنب والفساد اللذين يشملان الجنس البشري كلَّه واللذين يخضع لهما كلُّ إنسانٍ منذ ولادته، ما عدا المسيح طبعاً؟ أبين الخطية الأولى التي ارتُكبت في الفردوس وطوفان الإثم الذي غمر العالم مذ ذاك أيةُ علاقة؟ وإن كان نعم، فما طبيعة هذه العلاقة؟

هنالك من يقفون مع بيلاجيوس في إنكاره الكلي لمثل هذه العلاقة. فبحسب ما يقولون إن كل فعلٍ آثم هو عملٌ قائمٌ بذاته ولا يُدخل أي تغيير على الطبيعة البشرية، ويمكن بالتالي أن يعقبه في اللحظة التالية فعلٌ صالح على نحو استثنائي. وبعدما تعدى آدم وصية الله، ظل في طبيعته الداخلية، أي في نزوعه وإرادته، مثلما كان كلياً. وهكذا أيضاً جميع الأولاد الذين يتحدرون من هذين الزوجين البشريين الأولين يولدون بطبيعة حيادية وبريئة من الذنب،كتلك التي كانت لآدم أصلاً.

ويمضي أتباع هذا الرأي فيقولون إنه ليس ثمة ما يسمى طبيعةً فاسدة أو نزعة خاطئة أو عادة آثمة، لأن الخليقة كُلَّها بَرَّأها الله وهي تبقى جيدة. إذ ليس هنالك إلا أفعالٌ رديئة، وهذه لا تشكل سلسلة متصلة غير منفصلة، بل هي على حالٍ تتيح لها أن تتبادل الأدوار كلَّ حين مع الأعمال الصالحة، وهي مرتبطة بالشخص نفسه بطريقةٍ لا تُجاوز البتة الاختيار الحر المتوقف كلياً على الإرادة. أما الأثر الوحيد الذي ينتقل من الأفعال الأثيمة أو الأعمال الرديئة إلى الشخص نفسه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أو إلى الآخرين الذين في جواره، فهو أثر القدوة السيئة فقط. فما إن نفعل عملاً رديئاً مرةً، حتى نصير نزاعين إلى فعله ثانيةً، ولا أرجح أن يقتدي الآخرون بنا، والإثم الشامل الذي يتردى فيه الجنس البشري كلُّه يجب أن يُفسَّر بهذه الطريقة. أي بطريقة المحاكاة. فليس من شيءٍ يُدعى الخطية الموروثة. إذ أن كل إنسان يولد بريئاً، ولكن القدوة السيئة التي يقدمها للناس عموماً هي ذات تأثير سيئ في المعاصرين والحُفَداء على السواء. وإذ تحدوا الجميع العادةُ والعُرف، يسلكون جميعاً في الطريق الأثيم عينه، مع أنه ليس مستحيلاً ولا مستبعداً أن يقوم هُنا أو هناك فردٌ ما فيؤكد ذاته في وجه قوة العرف ويشقُّ طريقه وحيداً ويعيش بقداسةٍ على الأرض.

بيد أن هذه المحاولة في تفسير فساد البشرية لا تناقض كلمة الله المقدسة في كل ناحية وحسب، بل إنها أيضاً سطحية وغير وافية حتى لا يكاد أحدٌ يدعمها كلياً ولو بصورة نظرية. ثم إن لها ما يُناقضها في الحقائق الواقعة التي تشهدها اختباراتنا الخاصة وحيواتنا الشخصية. فجميعنا نعلم من اختبارنا أن فعلاً رديئاً ما ليس خارجياً بالنسبة إلينا وكأنه رداءٌ مُتَّسخ يمكن خلعه وطرحه جانباً، بل إنه بالأولى مرتبطٌ بطبيعتنا الداخلية وهو يخلِّف فيها آثاراً لا تُمحى. فبعد كل عمل خاطئ، لا نعود مثلما كُنَّا قبله. إذ إن الخطية تجعلُنا مذنبين ونجسين، وتسلبنا سلام الذهن والقلب، ويعقبها الندم وتبكيت الضمير، وهي تمكننا في الميل إلى الشر، بل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

في الانحراف إليه، وتُدخِلنا إلى حالة لا نقوى فيها، آخِرَ المر، على بذل المقاومة لسلطان الخطية، بل نستسلم حتى لأخفِّ التجارب.

ثم إنه لأمرُ يعارض الاختبار أيضاً أن تعتقد أن الخطية تستبدُّ بالإنسان من الخارج فقط. صحيحٌ أن القدوة السيئة يمكن أن يكون لها تأثيرٌ هائل. نرى ذلك في الأولاد الذين يولدون لآباء أردياء وينشأون في بيئةٍ خلُقية خالية من التقوى والرصانة. وعلى عكس ذلك، فإن في الولادة من آباء أتقياء والتربية في محيطٍ سليم خُلُقياً ودينياً لبركة لا يمكن تقديرُها. غير أن ذلك كلَّه ليس إلا جانباً واحداً من المسألة. فما كان لفلك البيئة السيئة مثلُ هذا التأثير السيئ في الولَد لو أن الولد نفسه لم تكن له في قلبه نزعةٌ نحو الشر. وعلى المنوال نفسه، فإن البيئة الصالحة ما كانت لتُخفف غالباً في التأثير بالولد لو أن ذلك الولد كان قد تلقى عند ولادته قلباً نقياً يمتثل لكلِّ ما هو خير.

لكننا نعلم بالأحرى أن البيئة ليست إلا المناسبة التي فيها تبلغ الخطيةُ طورها في داخلنا. فأصل الخطية يستقرُّ في أعماق قلوبنا. وقد قال المسيح إنه من الداخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة، والزنى والفسق والقتل، والسرقة والطمع والخبث، وسائر الشرور (مرقس 7: 21). وهذا القول يؤيده اختبارُ كل إنسان. فغالباً – دون إرادتنا ومعرفتنا – تنشأ في وعينا أفكارٌ نجسة وتصورات باطلة. وفي بعض المناسبات، حيث تواجهنا العداوة أو المقاومة، ينفجر

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

علناً ما يكمن في دواخلنا من شرٍّ مكبوت. وأحياناً نُذهَل في أنفسنا من عظم شرِّنا، ونتمنى لو نهرب من أنفسنا. فالقلب أخدع من كل شيء، وهو نجيس (شرير بحيث لا يمكن إصلاحه): من يعرفه؟ (إرميا 17: 9).

أخيراً، لو كان الإقتداء بالقدوة السيئة هو وحده أصل الخطية في البشرية، لما كان ممكناً تفسير شمولية الشر المطلقة. لأجل ذلك ارتأى بيلاجيوس أن أناساً هنا وهناك عاشوا، على وجه الاحتمال، بلا خطية. إلا أن هذه الاستثناءات إنما تُلقي ضوءاً أسطع على لا معقولية الفكرة البيلاجيوسية. فما خلا المسيح وحده، لم يطأ الأرض قطُّ إنسانٌ خالٍ من الخطية.

وليس من الضروري أن نعرف كل الناس واحداً واحداً حتى نحكم هـذا الحكم. فالكتاب المقدس يتكلم على أوضح ما يكون، ودون أدنى لبس أو غموض، فيقول القول الفصل في هذا. ثم إن تاريخ البشرية كلَّه يقدم البرهان على صحة القول. وقلبُ كلٍّ منا هو المفتاح الذي يفتح أمامه الباب لفهم القلب الذي يُقيم في داخل الآخرين جميعاً. فنحن جميعاً سواسية في الأهواء، حتى إننا نكوِّن معاً لا وحدة طبيعية فقط، بل وحدة خلقية أيضاً. فثمة طبيعة بشرية واحدة يشترك فيها جميع البشر، وهي طبيعة أثيمة ونجسة. والشجرة الرديئة لا تطلع من الثمر الردئ، بل إنما الثمر الردئ ينتج من الشجرة الرديئة؛ ومن الثمر نعرف الشجر.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من هنا أقر آخرون بصحة هذه الاعتبارت، فأدخلوا بالتالي بعض التعديلات على تعليم بيلاجيوس. ويعترف هؤلاء بأن شمولية الخطية لا يمكن أن تكون فقط نتيجة الإقتداء بقدوة سيئة، وأن الشر الأدبي لا يأتي الإنسان من الخارج وحسب. وهم يرون أنفسهم مضطرين إلى الإقرار بأن الخطية تسكن داخل الإنسان من وقت الحبل به وولادته فما بعد، وأنه يأخذ طبيعته الفاسدة من أبويه. بيد أنهم يذهبون إلى أن هذا الفساد الأدبي صفةُ الذنب، وهو لذلك أيضاً لا يستحق العقاب. وهذا الفسادُ الأدبي الكامن لا يصير خطية وذنباً وفعلاً يستحقَّ اللوم إلا عندما يُذعن له الإنسان باختياره متى بلغ أشُدَّه، أي عندما يتقبل المسؤولية عنه – إذا جاز التعبير – ويحوِّله بإرادته الحُّرة إلى أفعالٍ أثيمة.

****

قد يكون في هذا الرأي شبه البيلاجيوسي تسويةٌ ذات شأن، إلا أنه يتبين لنا بعد التفكير فيه أنه غير وافٍ إلى أبعد حد. ذلك أن الخطية قوامها دائماً اللاشرعية وخرق القانون، والتعدي والابتعاد عن الناموس الذي وضعه الله لخلائقه المتميزة بالعقل والخُلُق. وبينما يمكن أن يتم انتهاك هذا الناموس بما يرتكبه البشر من أعمال أثيمة، قد يتمُّ ذلك أيضاً في ميوله ونزعاته، أي في طبيعته التي يحملها منذ الحبل به وولادته. والرأي شبه البيلاجيوسي يقر بهذا ويتحدث عن فسادٍ أدبي سابق لخيارات الإنسان وأفعاله. ولكن إذا نظرنا إلى هذا الواقع بعين الجد فلا مفر من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الاستنتاج أن الفساد الأدبي الكامن الآن في الطبيعة البشرية هو أيضاً خطية وذنب وأنه بالتالي لا بد من معاقبته. فليس ثمة إلا هذان الاحتمالان: إما أن تكون الطبيعة البشرية منسجمةً مع ناموس الله، فتكون بذلك ما ينبغي لها أن تكون، وفي هذه الحالة لا تكون فاسدة؛ وإما أن تكون الطبيعة البشرية فاسدة أدبياً ولا تستجيب لناموس الله، فتكون بالتالي لا شرعية وغير مبررة، ولذلك تجعل الإنسان مذنباً ومستحقاً اللوم.

ومع أنه قليلٌ ما يمكن أن يقال ضد محاجة كهذه، فإن كثيرين يحاولون التملُّص من حتميتها بوصفهم للفساد الأدبي الذي يصحب الإنسان منذ ولادته بالتعبير الغامض "الشهوة". وبالطبع، ليس استعمال هذه الكلمة خطأً في ذاته. فالكتاب المقدس أيضاً يستخدمه غالباً. ولكن بتأثير النزعة التقشُّفية التي نشأت في الكنيسة المسيحية بالتدريج، غالباً ما استخدم علمُ اللاهوت هذه اللفظة بمعنىً محدود جداً، إذ مال إلى اعتبارها تدلُّ فقط على الشهوة الجسدية أو التناسلية الموجودة في الإنسان على نحو خاص، وبذلك انتهى إلى الفكرة القائلة بأن هذه الشهوة، وإن كانت قد أُعطيت للإنسان عند خلقه، ولذلك فهي ليست أثيمة بحد ذاتها، إلا أنها توفر مع ذلك فرصة مواتية لارتكاب الخطية.

وقد كان كالفن هو من عالج مفهوم الشهوة على هذا النحو. فهو لم يعترض على إطلاق اسم "الشهوة" على الفساد الأدبي الذي يولد الإنسان عليه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكنه أراد أن تُفهم هذه الكلمة حقَّ الفهم. ومن الأمور التي رآها ضرورية أن نميز بين الرغبة والشهوة. فالرغبات ليست بحد ذاتها خاطئة، وكلُّها أُعطيت للإنسان عند خلقه. ولأنه، بوصفه إنساناً، مخلوقٌ محدود ومتناهٍ وغير مستقلٍ، فإن له حاجاتٍ كثيرة العدد، وبالتالي له رغباتٌ عديدة جداً. فإذا جاع رغب في الطعام، وإذا عطش رغب في الشراب، وإذا تعب رغب في الراحة. وهذا المبدأ عينه يصدق على الناحية الروحية في الإنسان. فإن عقل الإنسان خُلِق على حالٍ تجعله يرغب في الحق؛ كما أن إرادة الإنسان، بفضل طبيعتها من حيث إن الله خالقُها، ترغب في الصلاح. فنقرأ في (أمثال **11**: **8**) أن "منتظر الصديقين مفرِّح"، أي أن رغبة الأبرار مُسرَّة. فلما رغب سليمان في الحكمة لا في الغنى، حسن ذلك في عيني الرب (**1** ملوك **3**: **5** – **14**). ولما اشتاق ناظم المزمور (**42**) لله كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه، كانت تلك أيضاً رغبةً صالحة وعزيزة.

إذاً ليست الرغبات في حدِّ ذاتها أثيمة، غير أنها – شأنها شأن الذهن والإرادة – أفسدتها الخطية وبذلك صار بينها وبين ناموس الله صراع ونزاع. فالرغبات الأثيمة هي تلك الرغبات التي أفسدتها الخطية فلم تعُد منظمة ولا منضبطة بالتالي، وليس الرغبات الطبيعية الخالصة طبعاً.

ثم ينبغي أن يضاف إلى هذا واقع كون الخطايا غير مقتصرة بأي حالٍ على طبيعة الإنسان الحسية والجسدية فقط. فالخطايا هي من خصائص الإنسان الروحية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الأثيمة أيضاً. وليست الشهوة الجسدية هي الرغبة الطبيعية الوحيدة، بل هي واحدة بين كثيرات. حتى هذه الشهوة ليست أثيمةً في ذاتها، لأنها أُعطيت للإنسان عند خلقه. وهي ليست الشهوة الوحيدة التي أفسدتها الخطية، لأن جميع الرغبات، الطبيعية والروحية، صارت وحشية وغير منضبطة من جراء الخطية. وبذلك مُسِخت الرغبات الصالحة في الإنسان فصارت رغبات شريرة.

فإذا دُعي الفساد الأدبي في الإنسان رغبة أو شهوةً، بهذا المعنى، فإن طبيعته الأثيمة وذنبه مؤكدان طبعاً. عن هذه الشهوة تنهي بصراحة وصيةٌ خاصة من الوصايا العشر (خروج 20: 17). ويقول بولس في هذا المجال ما يُختصَر بعبارة: إنه لم يعرف الخطية لو لم يقل الناموس لا تشته (رومية 7: 7). فلما أصبح بولس يعرف نفسه، وقاس لا أعماله فقط بل ميوله ورغباته أيضاً، بمعيار ناموس الله، تبين له أن هذه الأخيرة أيضاً فاسدة وغير طاهرة وهي تشدُّه نحو المحرَّم. وعند بولس أن ناموس الله هو المصدر لمعرفة الخطية والمعيار الوحيد لقياسها. فليس في وسع المرء أن يصل إلى معرفة الخطية حقَّ المعرفة عن طريق التمني أو التصوُّر، بل فقط بواسطة ناموس الله الذي يحدد كيف وماذا ينبغي أن يكون الإنسان أمام وجه الله، في سيرته وسريرته معاً، وفي الجسد والروح، والقول والفعل، والفكر والميل. فإذا ما قيست طبيعة الإنسان بموجب محك الناموس الإلهي، لا يمكن أن يكون أيُّ شك في كونها فاسدة وفي كون شهوته أثيمة. فالإنسان لا يفكر ويتصرَّف فقط على نحوٍ خاطئ، بل إنه هو خاطئ منذ الحبَل به.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم أن الاعتقاد بأن الرغبة في حد ذاتها ليست خاطئة بل تصير هكذا من خلال الإرادة فقط، لهو موقف يتعذر الدفاع عنه عقلياً أيضاً.فوقوف مثل هذا الموقف هو اعتناقٌ للفكرة اللا منطقية القائلة بأن إرادة الإنسان حيادية وخارجية بالنسبة إلى الرغبة، وأنها بحد ذاتها لم تفسد من جراء الخطية، ولذلك تقرر بحرية هل تسترسل في تحقيق الرغبة أو لا. صحيح أن الاختبار يؤكد لنا انه من الممكن لشخص ما في عدة حالات، وعلى أساس اعتبارات شتى، كالعرف ومراعاة احترام المجتمع له وما شابه، أن يتغلب على رغبته الأثيمة بواسطة عقله وإرادته، فيحول دون تحقيق تلك الرغبة بشكل أفعالٍ أثيمة. حتى الإنسان الطبيعي أيضاً ما يزال يختبر صراعاً بين النزعة والواجب، والرغبة والضمير، والشهوة والعقل.

غير أن هذا الصراع يختلف من حيث المبدأ عن الصراع الذي يستمرُّ في الإنسان المولود ثانيةً بين الجسد والروح، بين الإنسان القديم والإنسان الجديد. ذلك أنه صراعٌ موجهٌ من الخارج لكبح جماح الشهوة، لكنه لا يغزو حصن القلب الداخلي، ولا يهاجم الشر في جذوره.و عليه، فهو صراعٌ قد يساهم في كبح الشهوة الشريرة ووضع حدود لها، إلا أنه لا يقوى على تطهيره داخلياً ولا على تجديد الإنسان. فإن الصفة الأثيمة الخاصة التي تتميز بها الشهوة لا تتغير البتة من جراء ذلك. وليس هذا كل ما في الأمر. فحتى لو استطاع العقل والإرادة أحياناً أن يكبحا جماح الرغبة والشهوة، فإن العقل والإرادة غالباً ما يُقْمَعان ويُستعبَدان لخدمة الشهوة. إنهما لا يقفان ضدها في المبدأ، بل بطبيعتهما يُسَران بها، فيرعيانها

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويعززانها، ويزكيانها. وليس بنادرٍ أن يسمحا بأن تجرفهما الشهوة إلى حدٍّ يحـــرم الإنسان كلَّ استقلالٍ ويُحيله عبداً لأهوائه. فالأفكار الشريرة والرغبات الشريرة تنبع من قلب الإنسان ثم تتقدم فتغشي الفهم بالظلام وتلوِّث الإرادة. ذلـــك أن القلب من الدهاء بحيث يستطيع أن يخدع حتى الرأس الفهيم.

إن هاتين المحاولتين لتفسير شمولية الإثم للجنس البشري كله تصلان في نهاية المطاف إلى هذه الحصيلة الواحدة: أنهما تبحثان عن علة ذلك في سقوط كلِّ إنسانٍ بمفرده. فحسب البيلاجيوسية، يسقط كلُّ إنسان بالاستقلال عن غيره، وهو يفعل ذلك إذ يختار حراً أن يقتدي بقدوة الآخرين السيئة. وبحسب شبه البيلاجيوسية، يسقط كلُّ إنسانٍ لوحده لأنه باختياره الشخصي يُدخِل الرغبة الموروثة، لكن غير الخاطئة، إلى حيِّز إرادته ويحيلها فعلاً خاطئاً. فكلتا النظريتين لا تُنصف الحقـــائق الخُلُقية المؤكدة في ضمير كل إنسان، وكلتاهما لا تفسر كيف يُمكن لطبيعة الإثم الشاملة التي تعمُّ الجنس البشري كلَّه أن تنشأ من ملايين الملايين من القرارات التي تتخذها الإرادة البشرية.

بيد أن هاتين النظريتين قد اكتسبتا في الزمن الحديث مؤيدين عديدين، وإن كانتا قد اتخذتا شكلاً جديداً ومختلفاً. وقد كان فيما مضى قومٌ يقولون بوجـــود سابقٍ للإنسان. غير أن للتأثيرات البوذية أعطت هذا المعتقد قوة دافعة كـــبيرة في السنين الأخيرة. فيفترض أن الإنسان عاش منذ الأزل، أو على الأقل قروناً قبـــل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ظهوره على الأرض؛ وإلا ؛ وهنا يطالعنا شكلٌ من النظرية أكثر اتصافاً بالفلسفة – فيجب تمييز حياة الإنسان الحسية على الأرض عن ذلك الشكل السابق لوجوده القديم الذي يُمكن إدراكه جيداً وإن كان مستعصياً على التصور.

إلى هذه الفكرة يُضاف بُعد أن الناس، في وجودهم السابق هذا الفعلي أو المتصور، سقطوا جميعاً، كلٌّ واحد منهم بمفرده، وأنهم عقاباً على ذلك يجب أن يعيشوا هنا على هذه الأرض في هذه الأجساد المادية الكثيفة. وبذلك يُعدِّون أنفسهم لحياةٍ أخرى فيما بعد ينالون في أثنائها مكافآت بحسب أعمالهم. وعلى ذلك، يوجد فقط ناموسٌ واحد تخضع له الحياة البشرية، قبل الحياة على الأرض وفي أثنائها وبعدها، ألا وهو ناموس المجازاة: فكلٌّ إنسانٍ نال،وينال وسينال، ما اكتسبه بأعماله – كلٌّ يحصد ما زرع.

هذه الفكرة الفلسفية الهندية تلفت النظر لسبب كونها تنطلق بدهاء من افتراض مؤداه أن سقوط كل إنسان بمفرده في هذه الحياة الأرضية هو أمرٌ لا يمكن تصوُّره. إلا أنها في ما خلا ذلك لا تقدِّم أي تفسيرٍ لشمولية الإثم أكثر مما تقدِّم النظريةُ البيلاجيوسية. فهي إنما تدفع الصعوبة إلى الوراء فترةً، إذ تنقلها من هذه الحياة إلى حياة سابقة الوجود، حياةٍ اتفق أن أحداً لا يتذكر من أمرها شيئاً، وليس لها حتى أساسٌ واحد، وما هي في الواقع إلا ترَف خيالي. أضف أن التعليم بأن كل امرئ سيُجازى على ما قدمت يداه هو عقيدة ثقيلة الوطأة على الفقراء والمرضى،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والبائسين والمحرومين. فهي عقيدة خالية من الرحمة، وتقوم في مفارقة قاتمة مع أشعة النعمة الإلهية التي يتحدَّث عنها الكتاب المقدس.

على أن الأمر الذي تجدر بنا ملاحظته على الخصوص في هذا المجال، هو أن الفلسفة الهندية تتفق تماماً مع العقيدة البيلاجيوسية في كونها تبحث عن اصل الإثم الشامل في سقوط كل إنسانٍ بمفرده. فكلتا النظريتين تتفقان على أن البشرية تتألف من مجموعٍ اعتباطي من النفوس التي تعيش منذ الأزل، أو على الأقل منذ قـــرونٍ عديدة ومديدة، بعضُها إلى جانب بعض، ولا علاقة لإحداها بالأخرى من حيـــث الأصل أو الجوهر، على كلٍّ منها أن تهتم بمصيرها الخاص. فكلٌّ واحدة من هـــذه النفوس سقطت وحدها، وهي تنال أجرها الذي تستحق، وتبذل قصارى جهدها لتخليص ذاتها بقدر ما تقوى عليه. وما يقرب الناس بعضهم من بعض هو في الواقع الشقاء الذي فيه يتواجدون جميعاً، ولذلك فالشفقة أو العطف هي أسمى الفضائل. على أن لهذه النظرية مضموناً واضحاً بعد، وهو أن الذين يحيون حياةً محظوظة على الأرض يستطيعون أن يُركنوا إلى ناموس المجازاة ويفتخروا مـــن ثم بفضـــائلهم، محتقرين غير المحظوظين يكونون –بموجب الناموس عينه – قد نالوا رغم كل شيءٍ ما يستحقون.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ينبغي لنا أن نحصل على نظرة واضحة في هذه الأمور، إذا كان لنا أن نقدِّر قيمة كلمة الله وما تُلقيه من ضوء ساطع على مسألة شمول الخطية للجنس البشري كله. فإن كلمة الله المقدسة لا تستريح قانعةً بالتوهمات أو التخيلات، بل تعترف بالحقائق الواقعة التي يُقرُّها الضمير ويوقِّرها. إذ لا يشير الكتاب المقدس – لا تصريحاً ولا تلميحاً – إلى وهم وجودٍ سابق لنفوس البشر قبل دخولها الحياة على الأرض، ولا أثر فيه أيضاً لما يدلُّ على سقوط كل إنسانٍ بمفرده، سواءٌ حدث ذلك السقوط المفترض قبل الحياة على الأرض أم في أثنائها وعوضاً عما تطرحه البوذية والبيلاجيوسية من حلول فردانية وذرية، يقدم الكتاب المقدس نظرةً عضوية تشمل الجنس البشري بكامله.

فالجنس البشري لا يتألف من تجمع نفوس فردة اجتمعت بالصدفة من كل ناحية في مكان محدد، واضطرت بسبب احتكاكاتنا العديدة، أن تتعايش على أفضل ما يُمكن، وبطريقة من الطرق، سواء كان ذلك نحو الأفضل أم نحو الأسوأ. بل إن الجنس البشري هو بالأحرى وحدةٌ واحدة، جسدٌ واحد له أعضاء كثيرة، أو شجرة واحدة لها أغصان كثيرة، أو مملكة واحدة فيها رعايا كثيرون. ليس أن البشرية ستصير وحدةً كهذه في المستقبل فقط، وذلك عن طريق اتحاد خارجي. بل إنها كانت هكذا منذ البدء، وهي ما تزال هكذا الآن على رغم الانفصال والانشقاق، لأن لها أصلاً واحداً وطبيعة واحدة. إنها واحدة عضوياً لأنها جاءت من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

دمٍ واحد. وهي واحدة قضائياً وخلقياً لأنها، على أساس الوحدة الطبيعية بالذات، قد وُضِعت تحت ناموس إلهي، هو ناموسُ عهد الأعمال.

ومن هذا تخلص كلمة الله المقدسة إلى أن البشرية تبقى واحدةً في سقوطها أيضاً. فهكذا ينظر الكتاب المقدس إلى البشرية. من أول صفحة فيه إلى آخر صفحة. وإذا كان من تمييزٍ بين البشر، من حيث الطبقة والمقام والوظيفة والكرامة والمواهب وما إلى ذلك، أو إذا كان إسرائيل قد مُيِّز من بين الشعوب وعلى خلافها بأن اختير ميراثاً للرب في القديم، فإنما يعود ذلك فقط إلى نعمة الله. فالنعمة وحدها هي التي تُجري التمييز (1 كورنثوس 4: 17). غير أن البشر أجمعين، في ذواتهم، سواسيةٌ أمام الله، لأنهم جميعاً خطاة، يشتركون في الذنوب العامة وتدنِّسُهُم النجاسة عينُهَا، فيخضعون للموت عينه ويحتاجون إلى الفداء الواحد بعينه. فقد شملهم الله جميعاً ضمن دائرة العصيان الواحدة، لكي يرحم الجميع على السواء (رومية 11: 32). فلا يحق لأحد أن يتيه كبراً، ولا يحق لأحدٍ أن يستسلم لليأس.

أما أن هذه هي نظرة الكتاب المقدس المستمرة في الجنس البشري فأمرٌ لا يحتاج إلى مزيد من المناقشة، وهو واضحٌ بما فيه الكفاية مما قُلناه آنفاً بخصوص شمولية خطية الإنسان، بيد أن وحدة الجنس البشري العضوية فيما يتعلق بالقانون والأخلاق، تحظى بمعالجة خاصة ومستفيضة من جانب الرسول بولس.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فبعد أن يعرض بولس أولاً، في رسالته إلى أهل رومية، حقيقة كون العالم كلِّه محكوماً عليه بالدينونة في نظر الله (رومية 1: 18 3: 20)، ثم يشرح بعدها كيف أن التبرير وغفران الخطايا والمصالحة والحياة قد تمت كلُّها بالمسيح وهي متوافرة فيه للمؤمن (رو 3: 21 – 5: 11)، ينتهي في الإصحاح الخامس والآيات (12 – 21) (قبل الانتقال إلى وصف الثمار العملية للبر الحاصل بالإيمان، وذلك في الإصحاح السادس) إلى إيجاز المضمون الكامل الذي يشتمل عليه الخلاصُ الذي ندين للمسيح بفضله. ويعقد مقابلة – في سياقٍ من تاريخ العالم – بين هذا الأمر وجميع المعاصي والمساوئ التي تراكمت علينا من جراء انتسابنا إلى آدم.

فيقول بولس إن الخطية، بإنسانٍ واحد، قد دخلت إلى العالم، ومعها اجتاز الموت إلى جميع الناس. إذ إن تلك الخطية التي ارتكبها الإنسان الأول كانت مختلفةً في طبيعتها عن سائر الخطايا الأخرى. فهي تُدعى تعدياً، وتختلف نوعاً عن الخطايا التي ارتكبها الناس في الزمان الممتد من آدم إلى موسى (رومية 5: 14)، لكونها خطيئة متعمَّدة سُمِّيت معصية (رو 5: 14 – 19)، وبذلك تشكل نقيضاً حاداً لإطاعة المسيح المطلقة التي اجتازت حتى امتحان الموت (رو 5: 19).

ولذلك، فالخطية التي ارتكبها آدم لم تبق مقتصرةً على شخصية فقط، بل تعدته ليستمر مفعولُها في الجنس البشري كُلِّه ومن خلاله. فإننا لا نقرأ أن الخطية بإنسان واحد دخلت إلى شخصٍ واحد، بل إلى العالم (رو 5: 12). وكذلك أيضاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الموتُ اجتاز إلى جميع الناس، وهذا حقٌّ، لأن جميع البشر أخطأوا في شخص ذلك الإنسان الواحد.

أما أن هذا هو فكر بولس فأمرٌ تمكن البرهنة عليه. بحقيقة كونه يستنتج من تعدي آدم موت الناس الذين عاشوا من آدم إلى موسى والذين ما كان ممكناً أن يرتكبوا خطية شبيهة بتعدي آدم (نظراً لأنه لم يكن آنذاك ناموسٌ محدد بوضوح كناموس العهد الذي ارتبط به شرطٌ معين وتهديد مبين).

ولكن إذا كان (رومية 5: 12) وما يلي يُخلِّف بعدُ أي شك في هذا الموضوع، فمن شأنه أن يزول بفضل مايقوله بولس في (1 كورنثوس 15: 22). ففي ذلك الموضع نقرأ أن الناس يموتون، لا في أنفسهم، ولا في آبائهم أو أجدادهم، بل في آدم. ومعنى هذا أن الناس ليسوا عرضة للموت بالدرجة الأولى لأنهم هم أو أجدادهم أذنبوا شخصياً، بل إنهم جميعاً ماتوا بالفعل في آدم. فقد تحتم للتو في خطية آدم وموته أن هؤلاء جميعاً سيموتون. وليس بيت القصيد أنهم فيه أصبحوا جميعاً مائتين، بل إنهم حقاً، وبمعنىً موضوعي، ماتوا فيه فعلاً. فحالئذٍ نُطِق بحكم الموت، وإن كان تنفيذه جاء في أعقاب ذلك، إذا جاز التعبير. والآن، لا يعترف بولس بأي موت سوى الموت الذي هو نتيجة الخطية (رو 6: 23). فإن كان جميع الناس ماتوا في آدم، فمعنى ذلك أنهم أيضاً أخطأوا فيه. وبتعدي آدم قُدِر للخطية والموت أن يدخلا العالم ويجتازا إلى جميع الناس، لأن ذلك التعدي كان ذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

طبيعة خاصة. فهو كان تعدي قانونٍ محدد، ولم يجر هذا التعدي من قِبَل آدم وحده. بل من قِبَله بوصفه رأس الجنس البشري.

وحينما نفهم فكرة بولس في (رومية 5: 12 – 14) على هذا النحـــو، حينئذٍ فقط نستطيع أن نُنصف تمام الإنصاف ما يرد في الآيات التالية عن عواقب تعدي آدم. فالأمر كلُّه توسيعٌ لفكرة أساسية واحدة. إذ بخطية إنسان واحد (آدم) مات الكثيرون (أي جميع المتحدرين منه) (الآية 15). والحكم (أي حكم الدينونة الذي ينطق به الله بوصفه القاضي)، جزاء الذنب الذي ارتكبه هذا الواحد الذي أخطا، صار دينونةً تشمل الجنس البشري بكامله (الآية 16). وبخطية الواحد عينه قد ملك الموت في العالم على جميع البشر (الآية 17). وبخطية واحدٍ، صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة (الآية 18). وكخلاصة نهائية، بمعصية الإنسان الواحـــد جُعِل الكثيرون (جميع بني آدم) خطاةً. فبتلك المعصية جاءوا جميعاً ليقفوا أمام وجه الله بشراً خُطاة (الآية 19).

ويوضع الختم على هذا التفسير لفكرة بولس بالمقارنة التي يأتي بها ما بين آدم والمسيح. ففي سياق "رومية 5" لا يُعالج بولس أصل خطية آدم، بل بالأحرى الخلاص الكامل الذي أتمه المسيح. ولكي يعرض هذا الخلاص في كل مجده، يقارن ويفارق بينه وبين الخطية والموت اللذين عما الجنس البشري كلَّه انطلاقاً من آدم. وبكلامٍ آخر، يُتّخذ آدم في هذا السياق مثالاً للآتي (الآية 14).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ففي آدم الواحد، ومن جراء تعديه، صدر الحكم بالدينونة على الجنس البشري كله، وفي الإنسان الواحد يسوع المسيح صدر حكم قضائي من لدن الله يُعلن تحرير الجنس البشري وتبريره. وكما بإنسانٍ واحد دخلت الخطية إلى العالم كسلطة أو قوة سيطرت على جميع البشر، فكذلك حقّق إنسانٌ واحد سيادة النعمة الإلهية في البشرية. ومثلما بإنسانٍ واحد أيضاً، هو المسيح يسوع ربنا، بدأت النعمة تملك عن طريق برٍّ يؤدي إلى الحياة الأبدية. وهكذا تصدق المقارنة بين آدم والمسيح على جميع المقاييس. غير أن هنالك هذا الفرق الواحد: أن الخطية جبارة وقوية، ولكن النعمة أسمى منها جداً في غِناها ووفرتها.

وقد ضمن علم اللاهوت المسيحي عقيدة الخطية الأصلية هذه الأفكار المستفادة من الكتاب المقدس. وربما جال أحدٌ مناقضاً هذه العقيدة، أو أنكرها، أو استهزأ بها، غير أن أحداً لا يستطيع ردَّ شهادة الكلمة الإلهية ولا طمس الحقائق التي يقوم هذا التعليم على أساسها. فإن تاريخ العالم بكامله برهانٌ على حقيقة كون البشرية – سواءٌ بمجموعها أم بأفرادها – مذنبةً أمام وجه الله، ومالكةً لطبيعة مُفسدة أدبياً، ومعرضة كل حين للانحلال والموت. وعليه، فالخطية تتضمن – أول كلِّ شيء – حقيقة الذنب الأصلي. ففي الإنسان الأول قد جُعِل الكثيرون ممن خرجوا من صلبه أي نسله خُطاةً، وذلك من جراء معصيته وبحكمٍ عادلٍ من الله البار (رو 5: 18).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم إن الخطية الأصلية – ثانياً – الدنس الأصلي. فجميع البشر حُبل بهم وولدوا في الإثم (مزمور 51: 5)، وهم أشرار منذ حداثتهم (تكوين 6: 5؛ مز 25: 7)، لأنه لا أحد يستطيع أن يُخرج الطاهر من النجس (أيوب 14: 4؛ يوحنا 3: 6). وجرثومة الفساد والتلوث هذه لا تتفشى فقط في البشر كلِّهم، بل تُلوِّث أيضاً الكائن الفرد بكليَّته. فهي تضرب القلب الذي هو أخدع من كل شيء؛ والنجيس (أو الخبيث أي المصاب بمرض لا شفاء له)، والذي لن يُسبر غَوْرُ فساده (إرميا 17: 9)، والذي بوصفه نبع مخارج الحياة (أمثال 4: 23) هو أيضاً نبعٌ لكلِّ إثم وشر (مرقس 7: 21 و 22). وإذ ينبع هذا الفساد من القلب كمركزٍ له، يُغشي الفهم بالظلام (رومية 1: 21)، وينحرف بالإرادة نحو الشر ويجعلها عاجزة عن فعل ما هو صالحٌ حقاً (يوحنا 8: 34؛ رومية 8:)، ويدنِّس الضمير أو ينجسه (تيطس 1: 15)، ويجعل الجسد سلاح إثم بكامل أعضائه، من عينين وأذنين، ويدين ورجلين، وفم ولسان.. (رو 3: 13 – 17؛ 16: 13). فهذه الخطية هي على حال تجعل كل إنسان خاضعاً للموت والفساد، لا بسبب ما يُدعى خطاياه "الفعلية" بالدرجة الأولى، بل منذ الحبل به (رو 5: 14). إذ إن جميع البشر قد ماتوا حقاً في آدم (1 كورنثوس 15: 22).

ومهما بدا لنا الآن هذا المفهوم للخطية الأصلية صعباً، فإنها تقوم على أساس قانونٍ يتحكم في كامل الحياة البشرية ولا يستطيع أحدٌ أن ينجح في إنكار وجوده، ولا أحدد يُبدي تجاهه أي اعتراضٍ ما دام يعمل لمصلحته.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عندما يكون الوالدون قد جمعوا الممتلكات، من نوعٍ أو آخر، لمصلحة أولادهم، لا يعترض الأولاد قط على الاستيلاء على الأملاك التي يُخلِّفها لهم الآباء عند موتهم. فهم لا يعترضون على الحصول على الميراث مع أنهم لم يحصِّلوه بكدهم، ومع أنهم أحياناً يُثبتون بسلوكهم المخزي أنهم غير مستحقين له إن يتولَّونه ظلماً بإسرافٍ في عيشة الخلاعة. وإذا لم يكن للمتوفي أولاد، فإن الأقرباء الأباعد، كأحفاد الأخ أو الأخت وأبناء العمومة، يتقدمون دون أي تأنيب من الضمير للاشتراك في إرث خلَّفه على غير توقع أفراد من الأسرة مجهولون أو مغمورون. هذا كله يصح في مجال المقتنيات المادية. ولكن هنالك أيضاً خيرات معنوية، من قيم المراتب والمناصب، والشرف والصيت الحسن، والعلم والفن، يرثها الأبناء من الآباء، ولم يكسبوها بأي حال، إلا أنهم ينسبوها إلى أنفسهم دون اعتراض، ولهم بالحقيقة أن يفعلوا ذلك بامتنان. فمن الممكن أن يُقال إذاً إن قانون ميراث كهذا صالح للعمل به في الأُسر والأجيال والشعوب، وفي الدولة والمجتمع، والعلم والفن، وفي البشرية جمعاء. ذلك أن الجيل اللاحق يعيش على الخيرات التي ادخرها الجيل السابق، والأحفاد يتولون في ميادين الحياة جميعاً العمل الذي كان الأجداد يقومون به. وليس من إنسانٍ واحد، مادام الأمر نافعاً له، يُبدي اعتراضاً على هذا الترتيب الإلهي الكريم.

على أن كل شيء يتغير حينما يعمل قانون الميراث هذا بعينه لغير مصلحة الإنسان المعني. فعندما يُناشد الأولاد أن يعولوا والديهم الفقراء، فإنهم يقطعون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حالاً كل علاقة بوالديهم ويُشيرون إلى سبيل المؤسسات الكنسية أو الخيرية التي تهتم بإغاثة المحتاجين. وعندما يشعر الأقرباء بأن كرامتهم قد أهدرت لأن أحد أفراد الأسرة تزوج بحسب رأيهم، زواجاً دون المستوى اللائق، أو فعل فعلةً شائنة، فإنهم يتركونه حالاً في ورطته ويُبدون له عدم الرضى. فإلى حدٍّ ما، توجد في كل إنسانٍ نزعةٌ لأن يتمتع بفوائد الاندماج في الجماعة وبمنافع علاقات القُربى المتبادلة، مع رفض ما يقابل ذلك من واجبات. إلا أن هذه النزعة، في حد ذاتها، هي برهانٌ قوي على الحقيقة المماثلة في وجود مجموعة متوافقة من الامتيازات والواجبات فثمة وحدةُ حالٍ وتكافل أو تضامن مشترك لا يستطيع أحدٌ أن يُنكر وجودهما وفاعليتهما.

وحقيقة نحن لا نعرف بالتمام كيف يعمل هذا التكافل ويُحدث تأثيره. فما زلنا نجهل مثلاً حقيقة قوانين الميراث التي بموجبها تؤول الخيرات المادية والمعنوية من الآباء إلى الأبناء. فنحن لا نفهم هذا السر: كيف يُتاح لشخص فرد، يُولد في الأسرة ويتربى على يدها، أن يبلغ حالة استقلالٍ وحرية، ومن ثم يحتل في الأسرة مركزه الخاص الذي يكون أحياناً متميزاً بالقوة والنفوذ. وليس في وسعنا أن نُشير إلى الحد الفاصل الذي عنده يتوقف التكافل ويبدأ الاستقلال الشخصي والمسؤولية الفردية. غير أن هذا كُلَّه لا يغير شيئاً من حقيقة وجود مثل هذا التضامن وكون الناس متحدين بعضهم ببعض في تكافل حقيقي، سواء كان ذلك في أسرٍ صغيرة أو كبيرة تجمعها علاقاتٌ متبادلة فلا شك أن الأفراد موجودون، ولكن هنالك أيضاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

رابطة غير منظورة تجمع الأسر والأجيال والشعوب في وحدة قويـــة.وكمـــا أن للإنسان نفساً واحدة، فالشعوب أيضاً لها "نفس" قوية أو جامعة، بمعـــنى مجـــازي طبعاً. هنالك خصائص شخصية ولكن ثمة أيضاً خصائص اجتماعية تتميز بها دائرة معينة من الناس. وهنالك خطايا فردية خاصة، ولكن توجد أيضاً خطايا اجتماعية عامة. كذلك أيضاً توجد ذنوب فردية، ولكن هنالك أيضاً ذنـــوب اجتماعيـــة مشتركة.

وهذا التكافل الذي يتبدى بألف طريقة وطريقة في العلاقات ما بين الناس يحمل معه مرةً تلو الأخرى، وعلى نحوٍ طبيعي،فكرة تمثيل الأقلية للأكثرية.فنحن لا نستطيع أن نكون حاضرين عند كل شيء بأنفسنا ولا أن نقوم بكل شيء شخصياً. إذ أن الناس منتشرون على وجه الأرض كلِّها ويعيشون بعيدين بعضهم عن بعضهم مسافاتٍ شاسعةٍ. وهم لا يعيشون معاً في وقت واحد بل يعقب بعضهم بعضـــاً في أجيالٍ متتالية ثم إنهم ليسوا جميعاً متساوين في القدرة والحكمة. وهم يختلفون إلى ما لا نهاية في المواهب والقدرات. من هنا يُدعى في كل حين بعض الأقلاء إلى التفكير والتكلُّم، أو على التقرير والتصرف، باسم الأكثرية أو نيابة عنها. وفي الواقع إنه لا يمكن إقامة أسرة مجتمعٍ حقيقية بغير تفاوت في المواهب والمهمـــات ودون تمثيـــل وإنابة. فما من جسمٍ يمكن التواجد إلا إذا كانت فيه عدة أعضاء مختلفة وكانت جميع تلك الأعضاء خاضعةً لسيطرة رأس يفكر عنها ويتخذ القرارات باسمها جميعاً. ومثل هذا الدور يتولاه الأب في الأسرة، والمدير في المؤسسة ومجلـــس الإدارة في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجمعية، والقائد في جيشه، والمجلس النيابي أو البرلمان بالنسبة للذين يمثلهم، والملك بالنسبة إلى رعاياه. ثم إن المرؤوسين يشتركون في عواقب تصرفات ممثليهم.

على أن ذلك كُلَّه يعني فقط دائرة صغيرة ومحدودة من البشرية. وفي دائرة كهذه يستطيع إنسان واحد، إلى حدٍّ ما، أن يكون لكثيرين إما بركةً وإما لعنةً، غير أن الآثار تبقى، رغم ذلك، مقصورة على نطاق مقيد على نحوٍ لا بأس به. حتى أن إنساناً ذا سلطان مثل نابليون، وإن لم يكن نطاق سلطته ونفوذه كبيراً بهذا المقدار، لا يحتلُّ في تاريخ العالم إلا مكاناً يسيراً، ويكون له دورٌ عابرٌ وحسب. غير أن الكتاب المقدس يحدثنا عن شخصين شغلا مكانةً خاصة، كلاهما وقف على رأس الجنس البشير بكامله، وله قوة ونفوذ لا يمتدان إلى أمة أو مجموعة من الأمم فقط، ولا إلى بلد أو قارة فحسب ولا على مدى قرنً واحدً أو عدة قرونٍ محدودة، بل يشملان البشرية بكاملها ويصلان إلى أقاصي الأرض ويدومان مدى الأبدية. هذان الشخصان هما آدم والمسيح.أولهما يقف عند بداية التاريخ، أم الثاني ففي وسطه. الأول يقف رأس البشرية القديمة، أما الثاني فرأس الخليقة الجديدة. الأول مصدر الخطية والموت في العالم، أما الثاني فينبوع البر ومعين الحياة.

فبفضل المقامين الفريدين اللذين لهذين الشخصين على رأس البشرية، من الممكن مقارنة أحدهما بالآخر. فإن بينهما تناظُراً أو تماثُلاً من حيث المكانة والأهمية والتأثير النافذ، في جميع أشكال التكافل الظاهرة بين الناس، من أسرة وعشيرة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وقبيلة وأمة ونحوها. ثم إنه يُمكن ويجوز أن يُستعان بجميع وجوه هذا التنـــاظر أو التماثل لإلقاء الأضواء الكاشفة على التأثير الذي كان لكلٍّ من آدم والمســـيح في لجنس البشري كلِّه. وفي هذا ما يُقنعنا، إلى حد معين، بصلاحية عمل قانون الميراث حتى في مجال حياتنا العُليا، أعني في حياتنا الدينية والخُلقية، مادام هذا القـــانون لا يقوم وحده بل هو وثيق الصلة بالبشر عموماً لكونه جزءاً لايتجزأ مـــن وجـــود البشرية العضوي. فآدم والمسيح، مع ذلك، يشغلان على السواء مكانة فريـــدة كلياً. وكلاهما ذو أهمية بالنسبة إلى الجنس البشري لا يمكن أن يُحرِز مثلها البتة أيُّ واحد من فاتحي العالم أو عباقرته الأفذاذ. والميراث الذي به شملنـــا آدم أجمعـــين بتعديه، هو وحده يجعل من الممكن لنا أن نتصالح كلياً مع الله في المسيح.

فرغم كل شيء، هو القانون عينُه يديننا في الإنســـان الأول ويُبرئنـــا في الإنسان الثاني، فلو لم يكن ممكناً لنا، دون علمٍ منا، أن نتشارك في دينونة آدم، لما كان ممكناً لنا أيضاً، بالطريقة نفسها أن نُمنحَ من جديد قبولاً بالنعمة في المسيح. وإذا لم يكن لدينا اعتراضٌ على أخذ حسنات لم نكتسبها بل آلت إلينا على سبيل الهبة أو الإرث، فلا حق لنا أن نستعفي من ذلك الميراث وندافعه حين يحمل إلينا السوء. أالخير نقبل من يد الله، والشر لا نقبل؟ (أيوب **2**: **10**). فلا نتهمنَ آدم بالذنب إذاً، بل بالأحرى لنشكر المسيح الذي أحبنا محبة تفوق الوصف. ولا ننظرن للوراء إلى الجنة، بل للأمام إلى الصليب. إذ وراء ذياك الصليب ذلك الإكليـــلُ الذي لن يفنى أبداً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

****

ليست الخطية الأصلية التي فيها يحبل بالإنسان ويولد صفةً سلبية هامدة، بل هي بالأحرى أصلٌ تطلع منه جميع أنواع الخطية، نبعٌ نجسٌ تنبع منه الخطية باستمرار، قوة تشد قلب الإنسان دائماً في الاتجاه الخاطئ – بعيداً عن الله وعن الشركة معه وفي اتجاه الفساد والانحلال. عن هذه الخطية الأصلية، إذاً، ينبغي تمييز تلك الخطايا التي تُدعى في العادة فعلية، وضمنها جميع تعديات الناموس الإلهي التي يرتكبها الفرد شخصياً، وإن كانت متفاوتة في درجة تعُّمدها واشتراك الإرادة في ارتكابها. فلكل الخطايا من هذا القبيل اصلٌ واحد مشترك، إذ تنبع كلُّها من قلب الإنسان (مرقس 7: 23). والقلب البشري هو هو عند كل الشعوب وفي كل مكان وزمان، ما دام بالطبع لم يتغير بالرجوع إلى الله والتجديد. فإن طبيعة بشرية واحدة يشترك فيها كل نسل آدم، وهي في جميع الناس مذنبة ومدنسة. وعليه، فلا داعي البتة لأن ينفصل المرء عن الآخرين قائلاً: "ابعد عني، أنا أقدس منك". فبالنظر إلى الطبيعة البشرية الواحدة التي يشترك فيها الجميع، لا يعود من مسوِّغٍ البتة لتكبُّر البار في عيني نفسه، ولا لتعظُّم الشريف، ولا لتمجيد الحكيم لذاته. ومن بين آلاف الخطايا الموجودة لا توجد واحدة يستطيع أحد أن يقول إنه غريب عنها تماماً ولا علاقة له بها. فبذور الآثام كلِّها، حتى أكثرها شناعة، تكمن في القلب الذي يحمله كلٌّ منا في أحشائه. وليس الآثمون والمجرمون جنساً خاصاً، بل إنهم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يطلعون من المجتمع الذي نحن جميعاً أعضاءٌ فيه. فهؤلاء، إنما يعرضون علناً ما يجيش دائماً ويعتمل في المركز الخفي لكل إنسان، أي في القلب.

وما دامت جميع الخطايا تطلع من أصل واحد، فإنها كلَّها ترتبط عضوياً بعضها ببعض، سواءٌ كانت في حياة كل إنسان بمفرده، أو في حياة أسرة أو جيل أو عرق أو شعب أو مجتمع، أو في حياة البشرية كلِّها. والحق إن الخطايا لا يُحصى عددها، بحيث حاول البعض أن يصنفوها أو يبوبوها، فتحدثوا عن سبع من الكبائر أو الخطايا الرئيسية (الكبرياء، الجشع، الإدمان، عدم العفة أو الفجور، الكسل، الحسد، الغضب). أو صنفها بعضُهم بحسب الإرادة التي بها يُرتكب، فميزوا بين خطايا الفكر والقول والفعل، أو خطايا العرض وخطايا الروح. وبإهما آخرون أحياناً بحسب الوصايا التي تشكل مخالفةً لها، فقالوا: خطايا ضد الوصايا التي وردت في اللوح الأول من الوصايا، وخطايا ضد ما ورد في اللوح الثاني، والمعنى: خطايا ضد الله، وخطايا ضد القريب والنفس. أو جرى تصنيفها بحسب الشكل الذي به تم التعبير عنها، فقيل: خطايا إهمال، وخطايا أفعال. ثم كان أيضاً تمييز في الدرجة، فقيل: خطايا سرية أو علنية، وخطايا بشرية أو شيطانية، وما إلى ذلك.

ولئن اختلفت الخطايا بعضُها عن بعض، فهي لا تقوم وحدها البتة كأشياء ذات كيانٍ كيفي بعضها منفصلٌ عن بعض، فإنها دائماً مترابطة في أساسها بحيث تؤثِّر إحداهما في الأخرى وتخلِّف فيها أثرها. فكما في حال المريض يبقي قانون الحياة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

السليمة عاملاً لكنه ينشط آنذاك في صورة مضطربة، كذلك تكون الخطية تعبيراً عن الصفة العضوية المميزة لحياة الإنسان والبشرية. والتعبير الذي تظهر به الخطية إنما يُبين أن الحياة الآن تتطور في اتجاه معاكسٍ على خطٍّ مستقيم لما قُصد أصلاً.

فما أشبه الخطية بسطح زَلِق، إذ لا يمكننا أن نسير عليه مسافة ثم نلتفت عند نقطة نختارها كيفما اتّفق وعندئذ نعكس خط سيرنا. وقد أحسن أحد الشعراء الأفذاذ إذ نمَّ عن حصافة وبراعة في وصف لعنة الفعل الشرير فقال فيه إنه ما ينفكُّ يلد الشر. وكلمة الله المقدسة تُلقي أمامنا ضوءاً عارماً على هذه المسألة. ففي (يعقوب 1: 14 و 15) نجد تفسيراً لكيفية نشوء الفعل الأثيم في الإنسان بطريقة عضوية. فحينما يجرَّب أحدٌ بالشر، لا يكون سببُ ذلك عائداً إلى الله. بل هو كامنٌ في شهوة الإنسان بالذات. هذه الشهوة هي أم الخطية. على أن هذه الشهوة في حد ذاتها لا تكفي لإنتاج الخطية (أي الفعل الخاطئ، سواءٌ بالفكر أو القول أو العمل). فلا بد من أن تحبل الشهوة. وذلك يحدث حينما يتحد العقل والإرادة بالشهوة. فحينئذ، حين تُخصب الإرادة الشهوة، تلد الشهوة خطية، أي فعلاً خاطئاً، وهذه الخطية بدورها، إذ تنمو وتتطور وتبلغ أشدها، تُنتج موتاً.

هكذا هي حال كل خطية بمفردها، ولكنها أيضاً حال الترابط المتبادل بين مختلف الخطايا. فالرسول يعقوب يُشير أيضاً إلى هذه الحقيقة حيث يقول في (2: 10) من رسالته إن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في نقطة واحدة فقد صار

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مجرماً في الكل، لأن الذي وضع هذه الوصية هو بعينه الذي وضع الكل. ففي الوصية الواحدة المعنية يشن المتعدي هجومه على معطي الوصايا كلِّها. وبذلك يُطيح كل سلطان وكل قوة. فبفضل مصدر الناموس وطبيعته أو جوهره، هو ناموس واحد. إنه جسمٌ عضويٌّ واحد إذا انتُهك في واحد من أعضائه، صار كله مشوهاً. وهو سلسلة إذا ما انقطعت إحدى حلقاتها، انفرط عقدها. فالشخص الذي يتعدى في واحدة من الوصايا، يُنحي جانباً – من حيث المبدأ – الوصايا كلَّها، وهكذا يصير من سيئ إلى أسوأ. إنه يصير، على حد قول المسيح، عبداً للخطية (يوحنا 8: 34)، أو يكون – كما قال بولس – مبيعاً تحت سيادة الخطية، بحيث لا يكون أكثر استقلالاً عن الخطية مما يكون العبد بالنسبة إلى السيد الذي قد اشتراه (رومية 7: 14).

هذه النظرة العضوية تنسحب أيضاً على الخطايا التي تظهر في ميادين خاصة من الحياة البشرية. فهنالك خطايا شخصية وفردية، إلا أن هنالك أيضاً خطايا اجتماعية عامة، وهي خطايا أُسَرٍ أو أُممٍ معينة أو ما شابه. إذ إن كل رتبة ومنصب في المجتمع، وكلَّ مهنة ومصلحة، وكلَّ وظيفة، تصطحب أخطارها الخاصة بها وخطاياها التابعة لها. فالخطايا تختلف بين أهل المدينة وأهل القرية، بين الفلاحين، والتجار، المثقفين والأميين، الأغنياء والفقراء، الصغار والراشدين. على أن هذا الواقع يُفضي أيضاً إلى البرهنة على أن جميع الخطايا في كل دائرةٍ من الدوائر تتعلق إحداها بالأخرى ويستند بعضُها إلى بعض. وكما يتبين لنا، فنحن لا نلاحظ إلا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

جزءاً يسيراً جداً من خطايا المجموعة المحدودة الخاصة بنا، ولا نلاحظ ذلك إلا سطحياً. ولكن إذا قُدِّر لنا أن ننفذ إلى الجوهر الكامن وراء المظاهر، مترسمين أصل الخطايا في قلوب الناس، فإننا على أكثر احتمال سننتهي، ولا بد، إلى الاستنتاج أن في الخطية أيضاً وحدةً ومثالاً وتصميماً ونموذجاً – وبعبارة أخرى– إن في الخطية أيضاً نظاماً أو جهازاً.

يُميط الكتاب المقدس جزءاً من اللثام إذ يُنيط الخطية بمملكة الشيطان، سواء من حيث أصلها وتطورها واكتمالها. فبما أن الشيطان قد أغوى الإنسان وحمله على السقوط (يوحنا 8: 44)، فقد أصبح – بمعنى أدبي – رئيس العالم وإله هذا الدهر (يو 16: 11؛ 2 كورنثوس 4: 4). ومع أن المسيح قد حكم عليه وطرده خارجاً (يو 12: 31؛ 16: 11)، ولذلك ينشط في العالم الوثني بصورة رئيسية (أعمال 26: 18؛ أفسس 2: 2)، فهو يستمر رغم ذلك في مهاجمة الكنيسة من الخارج. ولذا ينبغي على الكنيسة أن تخوض بكامل سلاحها غمار الحرب الروحية ضده (أفسس 6: 11). وينظم الشيطان موارده الإجمالية لكي يشن في آخر الأيام هجوماً نهائياً وحاسماً على المسيح ومملكته (رؤيا 12 وما يلي). فليس حينما نركز اهتمامنا على خطية بعينها أو على خطايا شخصٍ معين أو شعبٍ مخصوص، بل بالأحرى حين نربط الخطية بكامل مداها في البشرية، مستفيدين من الضوء الذي يُلقيه عليها الكتاب المقدس، حينئذ نفهم لأول مرة طبيعة الخطية الحقيقية ومقصدها. فهي في مبدأها وجوهرها، ليست أقل من كونها عداوة لله،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهي لا تهدف فيا لعالم إلى أقل من السيطرة المطلقة. وكل خطية، حتى الصغرى، لكونها بالحقيقة تعدياً لناموس الله، إنما تخدم هذا الغرض النهائي فيما يتعلق بالنظام كله. فليس تاريخ العالم عملية تطورية تسير على غير هدى، بل هو مأساة رهيبة، جهادٌ روحي مداه طوال العصور، حربٌ بين الروح الذي من فوق والروح الذي تحت، بين المسيح وضد المسيح، بين الله والشيطان.

****

على أن هذه النظرة إلى الخطية، وإن كان يجب أن تحظى بالاعتبار الأولي، ينبغي ألا تُغرينا باتخاذ موقفٍ متحيز، وألا تطمس التمايز الذي يفصل بين مختلف الخطايا. صحيحٌ أن الخطايا، شأنها شأن الفضائل، هي وحدةٌ لا تنقسم، وأن الذي يرتكب واحدةً منها يكون قد ارتكبها جميعاً من حيث المبدأ (يعقوب 2: 10) إلا أن هذا لا يعني أن الخطايا جميعها متساوية نوعاً ودرجةً. فثمة فرق بين خطايا السهو أو الجهل وخطايا التعمُّد (عدد 15: 27 و30)، بين الخطايا ضد اللوح الأول من الوصايا والخطايا ضد اللوح الثاني (متى 22: 37 و 38)، وهناك فرق بين الخطايا الحسية والروحية، والخطايا البشرية والشيطانية، وهكذا دواليك. ولأن وصايا الناموس الواحد تختلف إحداهما عن الأخرى، وتعدي هذه الوصايا يمكن أن يحدث في ظروفٍ مختلفة وبموافقةٍ من الإرادة متفاوتة الدرجات، فلذلك ليست جميع الخطايا خطيرةً بالتساوي ولا هي تستحق العقاب نفسه. فالخطايا المرتكبة ضد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الناموس الأدبي أخطر من تلك المرتكبة ضد النوامس الطقسية، لأن الطاعة أفضل من الذبيحة (1 صموئيل 15: 22). والشخص الذي يسرق بدافعٍ من الجوع أقلُّ ذنباً من الذي يحدوه الجشع (أمثال 6: 30). والغضب درجات (متى 5: 22). وبينما اشتهاءُ المرء لامرأة متزوجة في قلبه هو ارتكابٌ للزنى، فإن الذي لا يُقاوم مثل هذه الشهوة بل يستسلم لها يمضي إلى ارتكاب الزنى بالفعل أيضاً.

وإذا كنا لا نعدل في التمييز بين الخطايا، فإننا ندخل في نزاعٍ مع الكتاب المقدس والواقع. صحيحٌ أن الناس، بمعنى أدبي، يولدون متساويين؛ فهم في بداية أمرهم يحملون الذنب نفسه ويتنجسون بالدنس عينه. غير أنهم عندما يكبرون يختلف أحدُهم عن الآخر، ويكون اختلافُهم بيّناً. حتى المؤمنون يقعون أحياناً في خطايا فادحة، وينبغي لهم أن يحاربوا كل حين الإنسان العتيق الذي في طبيعتهم، ولا يتأتى لهم على هذه الأرض إلا تحقيق بداءة يسيرة من الطاعة الكاملة. وبين الذين يعرفوا اسم المسيح، أو لم يؤمنوا به، قومٌ يستسلمون لكل نزوةٍ من نزوات الفجور ويشربون الإثم كالماء. ولكن بين أولئك عديدين ممن يميزون أنفسهم بحياةٍ محترمة اجتماعياً ورفيعة أدبياً، بحيث يصلح أن يكونوا نماذج في الفضيلة حتى للمسيحيين الحقيقيين. حقاً إن بذور الشر كانت في كل قلبٍ بشري، وكُلَّما ازددنا معرفةً بذواتنا تأكد لنا حقُّ الاعتراف أننا بالطبيعة ميالون إلى كره الله والقريب وغير قادرين على أي صلاح ونزاعون إلى كلِّ شر. غير أن هذه النزعة الشريرة لا تصل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بجميع الناس، على حد سواء، إلى نقطة ارتكاب الأعمال الشريرة. فليس جميع السائرين في الطريق الرحب يسيرون بالسرعة عينها أو يتقدمون التقدم نفسه.

أما سبب هذا التفاوت فليس كامناً في الإنسان، بل في نعمة الله الضابطة. فالقلب هو هو في الناس أجمعين. إذ في كل زمان ومكان تطلع في جميع البشر التصورات والرغبات الشريرة عينُها. وتصورات القلب إنما هي شريرةٌ منذ الحداثة. ولو تخلى الله عن البشر وأسلمهم إلى أهواء قلوبهم، لصارت الأرض جحيماً ولم يكن يُطاق مجتمع بشري ولا تاريخ بشري. ولكن مثلما تبقى النار في جوف الأرض مكبوتة بفعل قشرة الأرض اللبة، بحيث لا تتفجر في صورة ثورات بركانية رهيبة إلا بين حينٍ وآخر وفي أماكن محدودة، فكذلك تبقى الأفكار والشهوات الشريرة داخل القلب البشري مكبوتةً ومقيدة من كل ناحية بفعل الحياة الاجتماعية. فالله لم يُلقِ حبل الإنسان على غاربه، بل يجعل الحيوان الوحشي الذي في داخل الإنسان مشدوداً بزمام ولجام، وذلك في سبيل أن يحفظ تعالى مشورته من جهة الجنس البشري ويتمِّمها. إذ يُبقي الله في داخل الإنسان على عمل المحبة الطبيعية، والشوق إلى العشرة، والإحساس الديني والخُلُقي، والضمير وفكرة القانون، والعقل والإرادة. ثم يضع تعالى الإنسان في أسرة ومجتمع ودولة تعمل جميعها على ضبطه وإلزامه وتدريبه كي يعيش حياة محترمة مدنياً واجتماعياً. وذلك بما تشيعه تلك المؤسسات من رأي عام، ومفاهيم عن الكرامة والشرف، ورغبةٍ في العمل، ونظامٍ وانضباط، وقانونٍ وعقاب، وما إلى هذا.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بواسطة هذه العوامل العديدة والفعالة كلِّها، يُتاح للإنسان الخاطئ، رُغم كل شيء، أن يحقق خيراً كثيراً. فعندما تقول العقيدة المعروفة "بإقرار إيمان هايدلبرج" إن الإنسان عاجزٌ كلياً عن فعل أي خير وميالٌ إلى كل شر، تقصد بهذا الخير – على حد ما تُبين بكل وضوحٍ بنود الرد على المعترضين – الخير المخلِّص.

ذلك أن الإنسان بالطبيعة عاجزٌ كلياً عن فعل أي خير من شأنه أن يخلِّصه. فلا قِبَل له بعمل أي صلاحٍ يكون خيراً روحياً داخلياً، نقياً في نظر الله الفاحص القلوب، خيراً ينسجم انسجاماً كلياً – بمعنىً روحيٍّ وحرفيٍّ على السواء – مع مطالب الناموس، وبالتالي يكسب له الحياة الأبدية والسعادة السماوية بحسب وعد ذلك الناموس. ولكننا لا نقصد بهذا على الإطلاق أن ليس للإنسان، بنعمة الله المشتركة، أن يكون في وضعٍ يعمل فيه على تحقيق كثيرٍ من الخير. ففي حياته الشخصية، يمكنه أن يكبح، بعقله وإرادته، تصوراته الشريرة وشهواته الرديئة، وينصرف إلى الفضيلة. وفي حياته العائلية والاجتماعية، يستطيع أن يفي بالتزاماته، باستقامةٍ وأمانة، ويُساهم في نشر الخير العام والحضارة، وفي تقدم العلم والفن. باختصار، فإن الله يمكِّن الإنسان من أن يحيا هنا على الأرض حياةً بشرية صالحة، وذلك بواسطة جميع القوى التي يُحيط تعالى الإنسان الطبيعي الخاطئ بها.

على أن هذه القوى كلَّها لا تكفي لتجديد الإنسان داخلياً، وغالباً ما يتبين أنها غير وافية، ولو لضبط الإثم ضمن حدود. وليس علينا هنا أن نفكر فقط، في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا الإطار، في عالم الجريمة الذي يوجد في كل مجتمع والذي يحيا حياته الخاصة. إذ أن ذلك واضح أحياناً في الفتوحات وحركات الاستعمار، والحروب الدينية والعِرقية، والثورات الشعبية والقومية، وما إلى ذلك، حيث يتبدى للعيان ما في القلب البشري من إثمٍ رهيب لا يسبر غوره. أما تهذيب الحضارة فلا يستأصل الشر المتأصل في القلب، بل بالأحرى يُنشئ صفاقةً في تنفيذ الإثم. حتى أنبلُ الأعمال ظاهرياً، إذا ما فُحصت عن كثب، لا يندر أن يكون قد دفع إليها أنواعٌ شتى من الاعتبارات الآثمة من أنانية وطموح قتال. وأيُّ من يفهم شيئاً من أمر شرِّ القلب البشري وخداعه، لا يُدهش البتة إزاء وجود شرٍّ في العالم كثير بهذا المقدار. بل إنه بالأحرى ليتعجب من كون خيرٍ كثيرٍ بهذا المقدار ما زال موجوداً في العالم، ويسجد لحكمة الله الذي يعرف دائماً كيف يُنجز هذا المقدار العظيم بمثل هذا الجنس البشري. إنه من إحسانات الرب أننا لم نَفْنَ، لأن مراحمه لا تزول (مراثي إرميا 3: 22). أجل، إن الصراع المتواصل بين خطية البشر التي تحاول أن تتفجر ونعمة الله التي تقمعها وتُحيل فكر البشر وفعلهم إلى خدمة مشورته وقصده تعالى.

****

ففي وسع نعمة الله هذه أن تحمل الإنسان على الاتضاع، ولو كان ذلك فقط بمعنى ما حصل لآخاب (1 ملوك 21: 29) ولأهل نينوى (يونان 3: 5 وما يلي). ولكن من الممكن أيضاً، على المدى البعيد، أن يقاوم الإنسان هذه النعمة. في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

تلك الحال تحدث الظاهرة الرهيبة التي تدعوها الكلمة المقدسة تقسية القلب، ومثَلُها النموذجي فرعون. وبينما تنسب كلمة الله التقسية إلى آخرين أيضاً، تظهر بأجلى بيانٍ طبيعة التقسية وتطورها في حالة فرعون. فقد كان رئيساً مقتدراً ورأساً لمملكة عظيمة، متكبر القلب وغير راغبٍ في الانحناء أمام آيات قدرة الله. وقد حدثت هذه الآيات واحدة إثر واحدة، وكانت تزداد في قوتها المعجزية وفاعليتها الفتاكة. ولكن فرعون، حسب الموجة التصعيدية عنها، ازداد شراً وعناداً. وأخذت اقتراحاته بأن يستسلم وينحني أمام هذه القوة المعجزية، تفقد شيئاً فشيئاً طابَع الصدق. وإذا به أخيراً يُسارع الخطو إلى مصيره المحتوم وعيناه مفتوحتان على الحقائق القاطعة.

وفي مأساة فرعون هذه، نرى بأم العين صراع نفس هائلاً، صراعاً تُمكن رؤيته من جانب الله كما من جانب الإنسان. فمرة يُقال إن الرب قسَّى قلب فرعون،[1] ومرة أخرى إن فرعون نفسه قسَّى قلبه، [2] أو إن قلبه تقسَّى.[3] ففي ظاهرة التقسية هذه عملٌ إلهي وآخر بشري؛ فيها عملٌ للنعمة الإلهية التي تصير باستمرار أكثر فأكثر ميلاً إلى الدينونة، وعملٌ للمقاومة البشرية التي تصير بطبيعتها

---

(67) خر 4: 21؛ 7: 3؛ 9: 12؛ 10: 20، 27.

(68) خر 7: 14؛ 9: 7؛ 9: 35.

(69) خر 8: 15، 19، 32؛ 9: 34.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أكثر فأكثر اتصافاً بأنها عداوةٌ لله واعيةٌ متعمدة. وبهذه الطريقة نفسها يصف الكتاب المقدس هذه التقسية في مواضع أخرى. ففي (تثنية 2: 30) و (يشوع 11: 20) و (إشعياء 63: 17)، الرب هو من يُقسّي. وفي مواضع أخرى، [1] الناس يُقسُّون أنفسهم. فهنا تفاعلٌ متبادل وصراعٌ أو نزاعٌ بين الأمرين لا ينبغي فصله عن إعلان النعمة الإلهية. هذا التفاعل مرتبطٌ بالإعلان العام، غير أنه – على وجه الخصوص – يعود إلى نعمة خاصة لها مزيةُ الإتيان بالدينونة وإحلالُ فصل أو تفرقة بين الناس (يوحنا 1: 5؛ 3: 19؛ 9: 39). حتى إن المسيح قد وضع لسقوط كثيرين وقيام كثيرين (لوقا 2: 34). فهو صخرة خلاص، وصخرة عثرة وصدمة (متى 21: 44؛ رو 9: 32). والإنجيل أيضاً يُفضي إما إلى موت وإما إلى حياة (2 كورنثوس 2: 16)، ومضمونه مخفي عن الحكماء والفهماء ومعلَن للأطفال (متى 11: 25). وفي هذا كله تتوضح مشورة الله ومسرة صلاحه، كما يتوضح في الوقت ذاته ناموس الحياة الدينية والأدبية.

ثم إن خطية التقسية تبلغ ذروتها القصوى في التجديف على الروح القدس. وعن هذا الموضوع يتحدث المسيح في مناسبة خلافٍ جذري مع الفريسيين. فبعدما شفى إنساناً كان أعمى وأخرس ومسكوناً من قبَل إبليس، دُهش

---

(70) 1 صم 6: 6؛ 2 أي 36: 13؛ مز 65: 8؛ مت 13: 15؛ أع 19: 9؛ رو 11: 7، 25.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الجمهور الحاضر جداً حتى هتفوا: أليس هذا هو ابن داود، المسيّا الذي وعد به الله آباءنا؟

إلا أن هذا الإكرام المقدم للمسيح لم يُثِر بين الفريسيين غير البغضاء والعداء، فصرحوا – على عكس الجموع – أن المسيح ما طرد إبليس إلا ببعلزبول رئيس الشياطين. وبذا وقفوا موقفاً مناقضاً لموقف الجموع كلياً. بدلاً من أن يعترفوا بيسوع أنه المسيح ابن الله وقد طرد الشياطين بروح إله وأسس ملكوت الله على الأرض، قالوا إن المسيح شريكٌ للشيطان وإن عمله شيطاني. وفي وجه هذا التجديف الرهيب حافظ المسيح على كرامته. فقد رد التهمة وبيَّن كم هي غير منطقية، إلا أنه في نهاية دفاعه زاد هذا التحذير الخطر على ما قاله: كل خطية وتجديف يُغفر للناس؛ أما التجديف على الروح القدس فلن يُغفر للناس .. لا في العالم ولا في الآتي (متى **12**: **31** و **32**).

إن هذه الكلمات في حد ذاتها، والسياق الذي ترد فيه، تبين بوضوح أن التجديف على الروح القدس لا يحدث في بداية طريق الخطية ولا في وسطها بل في نهايتها. وليس قوام هذه الخطية الشك أو عدم الإيمان في الحق الذي أعلنه الله، ولا مقاومةُ الروح القدس وإحزانه، إذ إن خطايا كهذه قد يقع فيها المؤمنون، وغالباً ما يحدث ذلك فعلاً. وإنما التجديف على الروح القدس قد يحدث فقط حينما يمثُل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أمام الوعي إعلانٌ إلهيٌ غنيٌ وإنارةٌ قوية من الروح القدس بحيث إن الإنسان يقتنع تماماً في قلبه وفي ضميره بحق الإعلان الإلهي.[1]

فهذه الخطية تشمل بالأحرى على ما يفعله شخصٌ حظي بوافر الإعلان الموضوعي والاستنارة الذاتية. إلا أنه – رغم حقيقة كونه قد عرف الحق وذاقه باعتباره حقاً – يدعو الحق كاذباً ويندد بالمسيح كما لو كان، له المجد، أداةً بيد الشيطان. وفي هذه الخطية يصير الإنساني شيطانياً. لا، إنها ليست عبارةً عن الشك وعدم الإيمان، ولكنها تقطع احتمال هذين كما تقطع تأنيب الضمير والصلاة (1 يوحنا 5: 16). إذ تكون قد جاوزت بعيداً لحظة الشك وعدم الإيمان والتبكيت والصلاة. وبصرف النظر عن حقيقة كون الروح القدس يُعترَف به بوصفه روح الآب والابن، فإنه يُجدَّف عليه رغم ذلك بشر شيطاني. فعند الذروة، تُصبح الخطية صفيقة جداً في فجورها بحيث تنفض عنها كل أثرٍ من آثار الحياء، وتطرح جانباً كل ستر فتقف في عريها المعيب، وتزدري كل دواعي التعقل، وتقوم ضد حق الله ونعمته، يدفعها في ذلك سرورها بالشر وحسب. إنه إذاً لتحذير خطير هذا الذي يضعه المسيح أمامنا في تعليمه المختص بالتجديف على الروح القدس. ولكن علينا ألا ننسى ما يتضمنه هذا التعليم من تعزية: فإن كانت هذه الخطية هي الخطية التي لا تغفر، فسائر الخطايا الأخرى، حتى أعظمها وأكثرها قباحةً، يُمكن أن تغفر

---

(71) عب 6: 4 – 8؛ 10: 25– 29؛ 12: 15 – 17.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ذا لتعليم من تعزية: فإن كانت هذه الخطية هي الخطية التي لا تغفر، فسائر الخطايا الأخرى، حتى أعظمها وأكثرها قباحةُ، يُمكن أن تغفر حقاً. وهي تُغفر لا عن طريق الممارسات البشرية التكفيرية، بل بفضل غنى النعمة الإلهية.

****

وما دامت الخطية لا تُغفر ويُطهر منها إلا بالنعمة، فذلك يعني – فيما يعنيه – أنها في حد ذاتها تستحق القصاص. من هذه المُسَلمة ينطلق الكتاب المقدس حين يهدد الخطية بعقوبة الموت، حتى قبلما دخلت الخطية إلى العالم (تكوين 2: 17). ثم إن الكتاب ما ينفك يُعلن دينونة الله على الخطية، بصرف النظر عما إذا كانت تلك الدينونة تُجرَى فعلاً في هذه الحياة (خروج 20: 5) أو في يوم الدين العظيم (رومية 2: 5 – 10). ذلك لأن الله هو العادل القدوس الذي يكره كل شر.[1] والذي لا يبرئ المذنب بأي حال،[2] بل يُعلن غضبه على كل فجور وإثمٍ (رو 1: 18) ولعنته (تثنية 27: 26؛ غلاطية 3: 10) وانتقامه (ناحوم 1: 2؛ 1 تسالونيكي 4: 6)، وهو تعالى سيُجازي كل إنسان بحسب أعماله.[3] ويشهد

---

(72) أي 34: 10؛ مز 5: 5؛ مز 45: 7.

(73) خر 34: 7؛ عد 14: 18.

(74) مز 62: 12؛ أي 34: 11؛ أم 24: 12؛ إر 32: 19؛ حز 33: 20؛ مت 16: 27؛ رو 2: 6؛ 2 كو 5: 10؛ ا بط 1: 17؛ رؤ 22: 12.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الضمير لهذا في كل إنسان حين يلومه على أفكاره وأقواله وأفعاله الشريرة، وحين يطارده غالباً بإحساس الذنب والتبكُّت، أو الارتعاد والخوف من الدينونة. وعلى أساس هذه الفكرة المتعلقة بملومية الخطية واستحقاقها للعقاب يقوم إجراء القضاء عند جميع الشعوب.

غير أن القلب البشري يدخل دائماً أبداً في صراعٍ مع هذه الدينونة الشديدة لأنه يشعر أنه محكومٌ عليه بها. وغالباً ما دخل العلم والفلسفة في خدمة القلب فحاولا تقديم أسبابٍ بالغة الجاذبية لفصل العمل عن الجزاء، والشر عن العقاب. فكما أن الفن يجب أن يُمارس لأجل ذاته، فكذلك ينبغي – بحسب قياس التمثيل هذا – أن يتم فعل الخير لأجل ما هو في ذاته، لأن العقاب منوط به. ويزعمون أنه لا ثواب للفضيلة ولا عقاب للرذيلة. أما العقوبة الوحيدة المنوطة بالخطية، فهي العاقبة تجلبها معها حتما طبيعتُها الخاصة بسببٍ من الناموس الطبيعي. فكما ينعم الفاضل بسلام القلب، كذلك يشقى الخاطئ ويتعذب من جراء شعوره بالذنب والقلق والخوف، أو هو يُعاني سوء الصحة إذا كانت خطاياه من نوع الإدمان والانغماس في الشهوات.

في الزمن الحديث، وجَدَت هذه الفكرة المختصة بفساد القلب البشري وشره سنداً قوياً لها في نظرية التطور التي تذهب إلى أن الإنسان تحدر من الحيوان، وهو في صلب كيانه يبقى حيواناً، ولا بد له حتماً أن يفعل ما يفعله ويبقى على ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

عليه. فليس الإنسان مخلوقاً حراً وعاقلاً أدبياً، ولا هو بمسؤول عن أفعاله، وليس ممكناً أن يؤاخذ على أعماله باعتباره مذنباً، إذ إنه هو ما يجب أن يكون وحسب. فمثلما توجد أزهار عطرة الرائحة وأخرى نتنة، ومثلما توجد حيوانات أليفة وأخرى مفترسة، هكذا يوجد أناس نافعون للمجتمع وآخرون ضارون. صحيح إن المجتمع، في سبيل الحفاظ على الذات، له الحق أن يميز أولئك الفارد الضارين ويحبسهم، غير أن هذا ليس عقاباً. فما من إنسانٍ فرد له الحق أن يحكم على الآخرين أو يدينهم. ذلك أن المجرمين ليسوا أشراراً بقدر ما هم فاقدو الصواب. فهم يُعانون ضعفاً موروثاً أو نوعاً من النقص غذّاه المجتمع بالذات وعزّزه. وعليه، فإن أناساً. كهؤلاء ليسوا أهلاً للسجن بل يحتاجون إلى علاج في المستشفى أو المصح حيث من حقِّهم أن يخضعوا لمعالجةٍ طبية أو تثقيفية تهذبهم إنسانياً.

على أنه من الواجب، إنصافاً للحقائق الواقعية، أن يُقال إن هذه النظرية الجديدة في الإجرام هي في جزءٍ منها ردة فعل على موقف متطرف آخر ذهب إليه قومٌ في الماضي. فبينما يعتبر المجرمون اليوم مرضى عقلياً، كان المرضى عقلياً وسائر المنكوبين في الماضي غالباً ما يُعتبرون مجرمين، وقد تفنن الناس في ابتكار وسائل من شأنها أن توقع أشد الآلام هولاً على الأشخاص الذين يُعتبرون مذنبين وأهلاً للقصاص. لكن مثل هذه الممارسات، وإن كانت تفسح المجال لترويج النظرية الجديدة، ليست مسوِّغاً لها ولا تُزكيها . فالفكرة الجديدة متميزة، شأنها شان القديمة، لكونها لا تُنصف فداحة الخطية بل تسلب الإنسان حريته وتهبط به إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مستوى الحيوان، وتتحدى بكل وقاحة طبيعة الإنسان الأدبية بما فيها من ضـــمير وشعور بالذنب، وتقوِّض من حيث المبدأ كامل أساس السلطة والحكومة وإجراء القضاء.

وبغض النظر عن المحاولات التي يبذلها العلم للبرهنة على حتمية الخطية، فإن أي شخص لم يتبلَّد فيه الضمير ولم يفقد الحس بعد، يشعر في ذاته أنه مُلزَم أن يفعل الخير ومسؤول عن فعل الشر. فمن المؤكد أن رجاء الثواب ليس هو الدافع الوحيد والأهم لفعل الخير، كما أن خوف العقاب ربما لا يكون هو الدافع الوحيد الذي يحدو الناس على الكفِّ عن الشر. ولكن أي من يستجيب لهذين الـــدافعين الثانويين فيفعل الخير ويمتنع عن الشر، وإن يكن بمعنىً خارجي فقط، يكونُ رغم ذلك في وضعٍ أفضل جداً ممن يتجاهل هذين الدافعين ويسترسل في العيشة بحسب أهوائه. أضف إلى هذا أن الفضيلة والسعادة، وكذلك الخطية والعقاب، متـــرابطٌ بعضها ببعض ليس فقط على سبيل تعاقب السبب والنتيجة وفقاً لاعتبار خارجي، بل هي متواجدة جميعاً في الإدراك الخُلُقي أيضاً منذ البداية. فإن محبة الخير الحقيقة الصادقة، أي ملء الشركة مع الله، تعني أن الإنسان بكليَّته يدخل إلى أعماق تلك الشركة، في السر والعلن على السواء. وبالخطية كذلك، بمثل هذا الشمول تنطوي عند اكتمالها على فساد الإنسان نفساً وجسداً.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن العقوبة التي حددها الله لقاء الخطية هي الموت (تكوين 2: 7)، غير أن هذا الموت الجسدي العارض ليس وحده إذ تسبقه وتلحقه عقوبات أخرى عديدة.

حالما أخطأ الإنسان انفتحت عيناه، فخجل لأنه عريان واختبأ من وجه الرب (تكوين 3: 7 و 8). فالخزي والخوف عند الإنسان لا ينفصلان عن الخطية لأنه يشعر حالاً أنه مذنب ومدنَّس من جراء خطيته.

فالشعور بالذنب، وهو قريب الصلة بالعقاب، والتدنُّس أو التلوُّث، وهو فسادٌ أدبي، هما العاقبتان اللتان حصلتا حالاً بعد السقوط. ولكن فضلاً عن هذا النوع الطبيعي من العقوبة، أضاف الله أحكام قصاصٍ أخرى. فقد عوقبت المرأة من حيث هي أنثى وأم: فبالوضع تحمل الأولاد وتلدهم، إلا أن اشتياقها إلى زوجها يظلُّ فعالاً رغم ذلك (تك 3: 16). كذلك عوقب الرجل في الدعوة التي أوكلت إليه بتعهد الأرض بعمل يديه (تك 3: 17 – 19). حقاً إن الموت لم يحدث حالاً بعد التعدي، بل أُرجئ بالفعل مئات السنين، لأن الله لا يتخلى عن مقاصده من نحو الجنس البشري. غير أن الحياة الموهوبة الآن للإنسان تصير حياة معاناة للألم، مليئةً بالجهاد والحزن، توطئةً للموت، بل موتاً متواصلاً. فالإنسان لم يصبح مائتاً وحسب من جراء الخطية، بل إنه بدأ يموت. إنه يموت باستمرار من المهد إلى اللحد. إذ ليست حياته سوى معركة مع الموت قصيرةٍ وعبثية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

حقيقة تتجلى للعيان في الشكاوى الكثيرة التي يوردها الكتاب المقدس بخصوص هشاشة الحياة البشرية وزوالها المصيري وبطلانها. فالإنسان كان تراباً، حتى قبل سقوطه. ومن حيث الجسد، صُنع الإنسان من تراب الأرض، وهكذا كان ترابياً من الأرض، لكنه كان أيضاً نفساً حية (1 كورنثوس 15: 45، 47). غير أن حياة الإنسان الأول تلك كان مقصوداً لها أن تصير روحانية وممجدة إذ يسيطر عليها الروح في سبيل حفظ الناموس الإلهي. ولكن نتيجةً للتعدي، بات الناموس الفعال الآن هو هذا: أنك تراب، وإلى ترابٍ تعود (تك 3: 19).

فبدل أن يصير الإنسان روحاً، صار جسداً من جراء الخطية. وها حياته الآن ظلٌّ أو حلمٌ أو هزيعٌ من الليل، جسر عبور أو خطوة، موجةٌ من المحيط تعلو وتنكسر وتتلاشى، شعاعٌ من النور يتوهج ثم يخبو، زهرةٌ تتفتح ثم تذوي. وهي بالحقيقة لا تستحقُّ أن تُسَّمى "حياة"، هذه الاسم المجيد الزاخر بالمعنى. إنها موتٌ دائم في الخطية (يوحنا 8: 21، 24)، موتٌ بالخطايا والذنوب (أفسس 2:1).

تلك هي الحياة منظوراً إليها من الداخل، وقد أفسدت الخطية نواتَها وجرَّت عليها الوبال والانحلال. ثم إنها، من الخارج أيضاً، عرضةٌ في كل حين لمخاطر تأتيها من كل جهة. فبعد السقوط في التعدي مباشرةً، طُرد الإنسان من الجنة، ولا يجوز له الرجوع إليها بأي حق خاص به، إذ غُرِّم بفقدان حق الحياة، ولم يعُد مكان الراحة والسلام ذاك خليقاً بالإنسان الساقط. فكان يجب أن يخرج إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

العالم الفسيح ليكسب خبزه بعرق جبينه متمماً بذلك دعوته. إن الفردوس هو المسكن اللائق بالإنسان غير الساقط، والمُبارَكون يعيشون في السماء. أما الإنسان الخاطئ، وإن كان عتيداً أن يُفدى، فله الأرض مكان إقامة – أرض تشترك في عواقب سقوطه، وهي ملعونةٌ بسببه، وقد أُخضِعت وإياه للبُطل (رومية 8: 20).

وهكذا بتوافق الباطن والظاهر مرةً أخرى، إذ إن بين الإنسان ومحيطه انسجاماً. فالأرض التي نعيش على سطحها ليست نعيماً، إلا أنها كذلك ليست جحيماً. إنها بين هذا وذاك، ولها شيءٌ من خصائص كليهما. وليس في وسعنا أن نتبين على وجه الخصوص العلاقة القائمة بين خطايا البشر ومصائب الحياة. فالمسيح نفسُه حذر من فعل هذا، إذ قال إن الجليليين الذين خلط بيلاطس دماءهم بدماء ذبائحهم لم يكونوا خطاةً أكثر من سواهم (لوقا 13: 1– 3)، وإن الرجل المولود أعمى لم يكن معاقباً على خطاياه ولا على خطايا أبويه، بل ابتُلي بعلَّته لكي تظهر أعمال الله فيه (يوحنا 9: 3). فليس علينا إذاً أن نستدل من حقيقة نزول الآلام والمصائب بأحد الناس على أنه مستحقٌ ذلك بسبب ذنبه الشخصي. ومع أن أصحاب أيوب احتجوا بهذه الحجة، فقد تبين أنها باطلة.

على أنه ما من شك، بحسب تعليم كلمة الله كلها، أن ارتباطاً يقوم بين الجنسين البشري الساقط والأرض الساقطة. فكلاهما قد خُلِق منسجماً مع الآخر، وهما معاً أُخضعا للبُطل، وقد افتداهما المسيح كليهما من حيث المبدأ، ولسوف

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يقامان معاً ذات يوم ويمجدان. ومع أن العالم الحاضر ليس أفضل الممكن ولا أردأه، فإنه عالم صالح للإنسان الساقط. فلأن الأرض من تلقاء ذاتها تنبتُ فقط شـــوكاً وحسكاً، فهي تضطر الإنسان إلى العمل، وتصونه من الفساد، وتُنشئ في صـــميم قلبه رجاءً لا يُخمد بان سيكونُ بعدُ خيرٌ مقيم وسعادةٌ أبدية. رجاءٌ يجعل الإنسان يحيا، وإن تكن حياته قصيرة الأمد وملأى بعدم الاستقرار ليس إلا.

فإن كل حياة ما تزال للإنسان بحسب الطبيعة هي عرضةٌ لفساد الموت. وإذا كان الإنسان قوياً، يستمر في الجهاد سبعين سنة أو ثمانين، غير أن الحياة عادة ما تنقصف في مرحلةٍ أبكر كثيراً، في عز الشباب أو ريعان الصبا، وبُعَيد الولادة أو قبلَها أحياناً. ويقول الكتاب المقدس إن هذا الموت هو دينونة من الله، غرامة عقوبة على الخطية؛ وهذه الحقيقة يشعر بها قلب البشرية كلِّها وقلب كل بشري بمفرده. حتى الشعوب المسماة بدائية تصدر عن الفكرة القائلة بأن الإنسان في جوهره فان، وأن ما يعوزنا البرهان عليه ليس هو الخلود بل الموت الذي يحتاج إلى تفسير. إلا أن كثيرين، في الأزمنة القديمة والحديثة، قد اعتقدوا أن الموت بجملته ظاهرةٌ طبيعيـــة وحتمية، لا بوصفه أمراً خارجياً يأتي من الخارج بعنف بل عملية انحلالٍ تحـــدث داخلياً. وبحسب هذه النظرة فإن الموت، في ذاته ليس رهيباً، إنما يبـــدو هكـــذا للإنسان لأن غريزة الحياة تقاومه. وحينما يحقق العلم في تقدُّمه فتوحات جديدة، سيؤول ذلك أكثر فأكثر إلى الحد من الموت المبكر وغلى رفع مســـتوى المـــوت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الطبيعي من جراء فراغ القوى. حينئذٍ يموت الناس بسلام وهدوء كما الأزاهير إذ تذوي أو البهائم إذ تنفق.

ولكن رغم وجود قلةٍ ممن يتكلمون هكذا، هنالك بالحقيقة آخرون يعزفون لحناً آخر. فليس أهل العلم على وفاق، بأي حال من الأحوال، حول أسباب الموت وطبيعته. إذ في مقابل أولئك الذين يرون في الموت نهاية للحياة طبيعية وضرورية، كثيرون يجدون الموت لغزاً أكثر تحييراً حتى من الحياة، ويعلنون صراحةً أنه لا يوجد سبب واحد يحتم الموت على الكائنات الحية لضرورة ما داخلية. بل إنهم يقولون أيضاً إن الكون كان في الأصل كائناً حياً ضخماً إلى ما لا نهاية، وإن الموت أدخل عليه ملامحه فيما بعد، وإن هنالك بعض الحيوانات ما تزال غير ميتة. كلام يتشربه بشغف في الزمن الحاضر من يعتقدون أن النفوس كان لها وجود سابق ويعتبرون الموت تغييراً في الشكل يجتازه الإنسان في سبيل الارتقاء إلى حياةٍ أسمى – كاليُسروع الذي يصير فراشة.

واختلاف الآراء في حد ذاته بينةٌ على حقيقة كون العلم غير قادر على النفاذ إلى علل الأشياء الأساسية والنهائية، ولا قدرة له على تفسير الموت أكثر من قدرته على تفسير الحياة. فكلا هذين يظل لغزاً أمام العلم. ولحظة يحاول العلم أن يقدم تفسيراً، يتعرض لخطر قائم في ألا يُنصف إما حقيقة الموت وإما حقيقة الحياة. فإذا قال العلم إن الحياة في الأصل أزلية، يتعين عليه عندئذ أن يقدم جواباً عن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

السؤال: من أين جاء الموت؟ فهو يتحدث عنه كما لو كان مجرد مظهر أو تغيير في الشكل، وإلا فإنه يحاول فهمه كأمر طبيعي بجملته. وفي هذه الحال لا يدري ماذا يقول في الحياة، ويُلفي نفسه مضطراً إلى إنكار الخلود. وفي كلتا الحالين يمحو الخط الفاصل بين الموت والحياة، كما بين الخطية والقداسة.

وفي حين لا يبرهن العلم الإقرار بأن الموت أجرةٌ للخطية، فهو لا ينقض ذلك أيضاً. فهذا الأمر إنما يقع خارج نطاق البحث العلمي وبعيداً عن متناوله. ثم إن هذا الإقرار لا يحتاج إلى بيّنة يقدمها العلم. فهو مؤسس على الشهادة الإلهية ومؤكد ساعة فساعة بالخوف من الموت الذي به يخضع الناس للعبودية كل حياتهم (عبرانيين 2: 15). فمهما قيل إذاً في مجال البرهنة على ضرورة الموت، أو الدفاع عن شرعيّته، فهو يبقى أمراً غير طبيعي. إنه غير طبيعي نظراً لجوهر الإنسان ومصيره فيما يتعلق بخلقه على صورة الله، لأن الشركة مع الله تتعارض والموت. فالله ليس إله أموات، بل إله أحياء (متى 22: 32). وعلى نقيض هذا، فالموت طبيعي كلياً نسبة إلى الإنسان الساقط، إذ أن الخطية متى كملت تُنتج موتاً (يعقوب 1: 15). ورغم كل شيء، فبحسب الكتاب المقدس يجب عدم المساواة بين الموت والفناء، كما يجب عدم اعتبار الحياة محتوية على مجرد الوجود الخالص. فالحياة تمتُّعٌ وغبطة بركة ووفرة فياضة، أما الموت فشقاء وفقر وجوع وافتقار إلى السلام والسعادة. الموت انحلالٌ وانفصال لِما ينتمي بعضُه إلى بعض. فالإنسان المخلوق على صورة الله، مقامه الشركة مع الله، حيث يحيا ملء الحياة وفي سعادة إلى الأبد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لكنه متى فصم عري هذه الشركة، يموت في تلك اللحظة عينها ويظل يموت بعد ذلك دائماً أبداً. فتُحرم حياتُه الفرح والسلام وغبطة البركة إذ يكون قد أصبح ميتاً بالخطية. وهذا الموت الروحي، هذا الانفصال بين الله والإنسان، يستمر في الجسد ويبلغ ذروته في الموت الأبدي. ذلك أن مصير الإنسان الأبدي يكون قد خُتم عليه عند انفصال النفس عن الجسد، غير أن وجوده لا ينتهي عندئذٍ. فإنه قد وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة (عبرانيين 9: 27).. ومن ذا يستطيع الوقوف في تلك الدينونة؟

الفصل السادس

عهد النعمة

طالما قدم جميع البشر في كل زمان ومكان الجواب عن السؤال المطروح في آخر الفصل السابق، الجواب الذي يُفيد أن البشر، على حالهم تلك، لا يستطيعون

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الظهور أمام وجه الله ولا المكوث في حضرته. فما من أحد يمكنه أن يقول، أو يجرؤ على القول: إني زكيّت قلبي، تطهرت من إثمي (أمثال 20: 9). وكل امرئ يشعر في نفسه أنه مذنب ومدنَّس، وكلٌّ يعترف، أمام نفسه على الأقل إن لم يكن أمام الآخرين، بأنه ليس كما ينبغي أن يكون. حتى الخاطئ والقاسي القلب يمر بلحظات تسيطر عليه فيها مشاعر القلق والاضطراب، والبار في عيني نفسه يظلُّ يأمل في اللحظة الأخيرة أن يغض الله الطرف عما ينقصه ويرضى بحُسن نيته.

صحيح أن كثيرين يحاولون طرد هذه الأفكار الخطيرة من أذهانهم وينغمسون في الحياة كما لو كان الله غير موجود والوصية غير واضحة. وهم يخدعون أنفسهم بالتعلُّل بأن ليس إله (مزمور 14: 1)، وانه غير معنيٍّ بخطايا البشر بحيث إن كل من يفعل الشر هو صالح في عينيه تعالى (ملاخي 2: 17)، وأنه لا يتذكر الشر ولا يراه (مز 10: 11؛ 94: 7)، أو لأنه المحبة الكاملة فهو لا يُطالب ولا يُعاقب على الشر (مز 10: 14).

إلا أن أي من يراعي مطالب الناموس الأدبي، ويدع المثال الأخلاقي يقوم في سموه، لا يمكنه إلا الإقرار بأن الله لا بد أن يعاقب الشر. حقاً إن الله محبة، ولكن هذا التصريح الجليل لا يوضع في سياقه الصحيح إلا متى فُهمت المحبة في كينونة الله على أساس كونها محبة مقدسة متناغمة تماماً مع العدل الإلهي. فلا يتسع المجال لنعمة الله إلا إذا ترسخ عدلُه أولاً رسوخاً كلياً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ثم إن تاريخ العالم بكامله يؤدي شهادةً لا تُدحض لعدالة الله هذه. فليس في وسعنا أن نحرز بالتأمل في العالم الإعلان الخاص الذي تم على يد المسيح والذي يُطلعنا على محبة الله. وإذا كان لنا أن نفعل ذلك يفوتنا الإعلان العام بكل فوائده وبركاته. ولكن إذا نحينا جانباً – في أفكارنا – ولو للحظة واحدة فقط الإعلان المبلغ في المسيح، فلا يبقى حينئذ إلا أساس ركيك جداً للاعتقاد بإله محبة. فإن كان تاريخ العالم يعلّمنا شيئاً بوضوح، فإنما يقنعنا بأن لله مخاصمة مع خلائقه. فبين الله والعالم الذي يراه خلافٌ وانفصال وصراع. فإن الله لا يتفق مع الإنسان والإنسان لا يتفق مع الله، بل يمضي كلٌّ منهما في سبيله، ولكلٍّ منهما فكرته وإرادته الخاصتان فيما يتعلق بالأمور. غذ أن أفكار الله ليست أفكارنا، ولا طُرقه طرقنا (إشعياء 55: 8).

ولذلك فإن تاريخ العالم هو أيضاً دينونةٌ للعالم، وليس هو كما قال أحد الشعراء دينونة العالم، لأن هذه سوف تحدث في آخر الأيام، ولا هو دينونةً وحسب، لأن الأرض ملآنة من غنى الله (مز 104: 24). إلا أن تاريخ العالم، رغم ذلك، دينونةٌ له، إذ هو تاريخ ملئ بالدينونات، بالصراع والحرب، والدم والدمع، والمصائب والضيقات. وفي رأس العالم مكتوبةٌ الكلمات التي قالها موسى مرة لما رأى بني اسرائيل يموتون أمام عينيه: قد فنينا بسخطك، بغضبك ارتعبنا (مز 90: 7).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وشهادة التاريخ هذه لعدالة الله تؤيدها حقيقة كون البشرية قد رَنَت دائماً، وما تزال ترنو، إلى فردوسٍ مفقود، إلى سعادة مقيمة، إلى فداء يحررها من جميع الشر الذي يحيق بها. فإن لدى جميع البشر حاجة إلى الفداء وطلباً له. وحقاً إن المرء يستطيع أن يفهم كلمة الفداء بمعنى واسع جداً بحيث يشمل جميع العمل الذي يقوم به البشر على الأرض. فإذ يحاول الإنسان بعمل يديه أن يوفر حاجات حياته، وإذ يمهد لأن يحمي نفسه من سائر القوى المعادية له في الطبيعة وبين البشر، وإذ يسعى كي يُخضع الأرض كلَّها بعلمه وفنه، يكون لهذا كله أيضاً هدف التحرر من الشر والدخول إلى الخير.

على أن الفداء بهذا المفهوم لا يُطبَّق البتة على هذا النوع من الجهد البشري. فمهما جعل مثل هذا الجهد حياة الإنسان شيئاً أهنأ وأغنى، فإن في البشرية شعوراً مقيماً بأن كل تقدُّم وتحضُّر كهذا لا يفي بأمسِّ الحاجات الإنسانية وما كان لينقذ البشر من ضيقهم الأدهى. ذلك أن الفداء مفهومٌ ديني لا يكتسب بُعده الحقيقي إلا في نطاق الدين. فالدين سابقٌ لكلِّ حضارة ومدينة، وهو ما زال إلى يومنا هذا يحتل مكانته الرفيعة إلى جانب العلم والتكنولوجيا. ولا يُمكن أن تحل محله أو تعوض عنه النتائج الباهرة التي يحققها الجهد البشري. فالدين يفي بحاجة فريدة في الإنسان، وهو دائماً ينزع – بعد السقوط – إلى إنقاذه من ورطته الأساسية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

من هنا نعثر على فكرة الفداء في جميع الديانات. صحيح أن الديانات تُصنَّف أحياناً ما بين طبيعية وأخلاقية وافتدائية. عندئذٍ يُميَّز النوع الافتدائي بوصفه نوعاً خاصاً. غير أن مثل هذا التصنيف عرضة للجدل، وذلك بالصواب. فبمعنى عام، تنتمي فكرة الفداء إلى جميع الأديان. إذ أن أديان الشعوب كلَّها تسعى لأن تكون افتدائية. فهنالك اختلاف حول طبيعة الشر الذي يُعنى الفداء بمعالجته، وحول الطريقة التي يمكن بها الحصول عليه، وحول الخير الأسمى الذي ينبغي للناس أن ينشدوه. غير أن جميع الديانات تهدف إلى الاعتاق من الشر، والحصول على الخير الأسمى. فالسؤال الكبير في الدين هو دائماً: ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟ وبالتحديد، فإن ما لا يمكن الحصول عليه بالحضارة والمدنية، بإخضاع الأرض والسيطرة عليها، ذلك بالضبط هو ما يُنشَد في الدين، أعني السعادة الدائمة والسلام الأبدي والبركة التامة. ففي الدين نجد الإنسان دائماً معنياً بالله. وبينما يصوِّر الإنسان الله لنفسه، وهو في وضعه الأثيم، على نحوٍ مغلوط فيه وبخلاف حقيقته تعالى، ويسعى إليه بدافعٍ خطأ وبالطريقة الخطأ وفي المكان الخطأ، فهو إنما يطلب الله حقاً لعلَّه يتلَّمسه فيجده (أعمال 17: 27).

فهذه الحاجة إلى الفداء، وهي قدر البشرية المشترك، وإلى سدها يسعى كثير من الأديان التي تتشبث بها الشعوب، هي في حد ذاتها وبالنسبة للمسيحية بالذات بالغةُ الأهمية إلى أقصى الدرجات. إذ أن هذه الحاجة تُثار في قلوب البشر، وتبقى ماثلة فيها بكل حيويتها، من قِبَل الله بالذات. وهي بينةٌ على أن الله لم يتخل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

كلياً عن الجنس البشري ويدعه يسلك في سبله الذاتية. إنه أملٌ لا تمكن ملاشاته، وهو يمكّن الناس من الاستمرار في الحياة والعمل على درب رحلتهم الطويلة والمخيفة في هذا العالم. كما أنه عبارة عن ضمانة ونبوءة بأن هنالك في الحقيقة مثل هذا الفداء وأنه يُمنح مجاناً من لدن الله بفضل رحمته الخالصة، وإن كان الناس عبثاً ينشدونه بأنفسهم.

وفي سبيل أن نفهم حقَّ الفهم ونُقدِّر حق التقدير هذا الفداء العظيم الذي أعدته نعمة الله في المسيح، من المفيد أن نتوقف هُنيهةً أمام المجهودات التي طالما بذلها الناس – خارج نطاق الإعلان الخاص – للتحرر من الشر ولامتلاك الخير الأسمى. حالئذٍ يصعقنا الفرق الكبير، وفي الوقت نفسه التشابه العظيم، في الخصائص التي تتميز بها كلُّ هذه المجهودات.

أما الفرق الكبير فيبرز للعيان في كثرة عدد الديان التي وُجِدت عبر العصور، والتي ما تزال توجد، بين البشر. ففي الواقع أن عدد الأديان يفوق عدد الأمم والألسنة. ومثلما يطلع الشوك والزوان من الأرض كذلك تماماً تطلع الديانات الزائفة من الطبيعة البشرية – وما أوفر ما تنبت! فهي كثيرة العدد والاختلاف بحيث لا تكاد تُستقصى، ولا يمكن تصنيفها على نحوٍ وافٍ. وبقدر ما يشغل الدين مركزاً أساسياً، فهو يتخذ شكلاً مختلفاً باختلاف نظرته إلى العلاقة بين كلٍّ من الله والعالم، والطبيعة والروح، والحرية والضرورة، والمصير والذنب،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والتاريخ والحضارة. فإن فكرة الفداء، والطريقة التي بها يسعى الناس إلى الحصول عليه، تختلفان تبعاً لاعتبار الشر إيجابياً أو سلبياً، عنصراً دائماً أو لحظةً عابرة في تطور الحضارة طبيعياً أو خُلُقياً، حسياً أو روحياً بطبيعته.

إلا أننا حين نحاول النفاذ إلى جوهر هذه الأديان كلَّها، تبدو لنا بينها جميعاً ملامح شتى من التشابُه والعلاقة المشتركة. ففي المقام الأول، يحاول كل دين أن يستوعب مجموعة كلية من الأفكار عن الله والعالم،والأرواح والبشر، والنفس والجسد، وأصل الأشياء وجوهرها وغايتها. فكل دينٍ يأتي في معيته بتعليم أو عقيدة تنطوي على نظرة معينة في العالم والحياة. وفي المقام الثاني، لا يكتفي أي دين من الأديان بمجرد الإدراك العقلي لهذه الأفكار، بل يحث الناس – بهذه الأفكار وبمعونتها – على اختراق الحُجب للوقوف على عالم الله والأرواح، هذا العالم الفائق للطبيعة، وعلى الاتحاد بالله والأرواح. غير أن الدين ليس البتة مجرد عقيدة أو تعليم نظري. فهو يشمل أيضاً مشاعر العواطف وموقف القلب والتمتع برضوان الله. إنما يعلم الناس في كل زمان ومكان أن الظفر برضوان الله ليس مِلكَ يمينهم بالطبيعة. فمن جهة، يستشعر الناس حقيقة احتياجهم إلى الرضوان الإلهي إذا كان لهم أن يحصلوا على السعادة الأبدية وعلى خلاص أنفسهم؛ ومن جهة أخرى، يشعرون كذلك في قرارة نفوسهم بأنهم يفتقرون إلى رضى الله، وأنهم بسبب خطاياهم فاقدون للشركة مع الله. من هنا يدخل في صُلب كل دين عنصرٌ ثالث، ألا وهو السعي بطريقة أو أخرى للحصول على رضى الله والتمتُّع بالشركة معه ولضمان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

استمرارها في المستقبل. فكلُّ دينٍ إنما يأتي في كوكبةٍ من الأفكار المتعلقة به، ويحاول أن يرعى مشاعر وإحساسات معينة، ويوصي بسلسلة من الممارسات.

وهذه الممارسات الدينية تنقسم بدورها إلى نوعين. ينتمي إلى الأولى منهما جميع تلك الممارسات التي يمكن إدراجها تحت عنوان العبادة والتي قوامها في الأساس المحافل الدينية والقرابين والصلوات والتسابيح. على أن الدين لا يبقى مقتصراً البتة على هذه الممارسات الدينية المباشرة. فلأنه يشغل مركزاً أساسياً في الحياة، تجده يشبِّع بخواصِّه تلك الحياة بكاملها، محاولاً أن يجعلها منسجمة مع ذاتها. لكل دين يقيم أيضاً مثالاً خُلُقياً رفيعاً ينبغي للمرء بمقتضاه أن يتصرف كما يليق، سواءٌ في حياته الشخصية أم البيتية أم المدنية أم الاجتماعية. إذاً في كل دين أفكار ومشاعر وأفعال تنتمي في جزء منها إلى العبادة، وفي جزء إلى الحياة الخلقية، ويمكن بالتالي أن تُدعى دينية وخُلُقية معاً.

وليس من دينٍ واحد يفتقر إلى أي واحد من هذين العنصرين المكونين. غير أن مقداراً كبيراً من الاختلاف يقدم حول المضمون الذي يشتمل عليه كلٌّ من هذين العنصرين، وحول علاقتهما بعضهما ببعض، وحول الأهمية التي لكلٍّ منهما. ويقول بولس إن جوهر الوثنية عند الأمم يكمن في أن الناس استبدلوا بمجد الله الذي لا يفنى صوراً تشبه الإنسان الفاني والطيور والدواب والزحافات. فالمفاهيم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الدينية تتغيّر تبعاً للدرجة التي يبلغُها توحيد الألوهة بالكون والطبيعة والبشر والبهائم، وبتغير المفاهيم الدينية هكذا تتغير العواطف والأفعال الدينية.

وهنا يمكن أن نميز ثلاثة أصناف رئيسية. فعندما تُضفي الألوهة على قوى الطبيعة الغامضة، يُمسخ الدين فيصير مجموعة هائلة من الخرافات والسحر المروِّع. وعندئذ يؤدي العرافون والسحرة دورهم في منح الناس سلطة استبدادية على كائنات إلهية غير منظورة. وإذا اعتُبر الإلهي أشبه بالبشري، يُضفي على الدين طابعٌ أكثر إنسانية، إلا أن رُغم ذلك يتردى بسهولة في مهاوي عبادة الأشكال مع الإغراق في العشائرية – وإلا فإنه يتحول إلى خُلُقية صرف. وعندما يتم تصور الكائن الإلهي وكأنه فكرُ العالم أو نفسُه أو جوهرُه، ينسحب الدين عن مظاهر الأشياء إلى تصوف القلب، وينشد الشركة مع الله عن طريق الزهد (التقشف والتوحد) والانخطاف (الانجذاب الروحي). ففي مختلف الأديان يتجلى واحد أو آخر من هذه الأصناف الثلاثة الرئيسية، ولكن لا يبلغ البتة حد إقصاء سواه. ويتم البحث عن الفداء دائماً في طريق الفهم والمعرفة، والإرادة والعمل، والقلب والعواطف.

ثم إن الفلسفة تتدخل لتدعم ذلك. فالفلسفة أيضاً تنشغل بفكرة الفداء وتسعى إلى نظرة في العالم تفي بمطالب العقل والعاطفة معاً. وقد نشأت الفلسفة من الدين، وهي تأخذ من الدين بصورةٍ دورية عناصر تُدخِلها في نظامها الخاص، حتى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

لقد أصبحت عند كثيرين نوعاً من الدين. ولكنها، على الرغم من كل ما في ساحتها من تخمين وتفكير، لا تبلغ نقطة تجاوز الأفكار الأساسية في الدين. فلحظة أن تستنتج الفلسفة مبدأً للسلوك في الحياة من نظرتها في الكون، تحاول أن تشق طريقاً إلى الفداء في شِعاب معرفة العقل، وأفعال الإرادة الخُلُقية، واختبارات القلب. ولكن دين البشر وفلسفة المفكرين، من دون الإعلان الخاص، لا يوفران معرفةً صحيحة لله، وبالتالي معرفةً صحيحة للإنسان والعالم، وللخطية والفداء. وفي حين يطلب كلاهما الله لعلهما يتلمسانه فيجداه، فإنهما ما كانا ليوفقا في ذلك.

****

لذا أضيف الإعلان الخاص إلى الإعلان العام. وفي ذلك الإعلان يبادر الله، من جانبه، إلى الخروج إلى العلن، فيُعلن ذاته للإنسان ويعدُّ لنفسه مسكناً في الإنسان. وبالتالي، فإن بين الأديان المبتدَعة التي يتشبث بها الناس والدين المؤسس على الإعلان الخاص لإسرائيل، وعلى المسيح لفرقاً في المبدأ. ففي الأولى نجد أن الإنسان دائماً هو الذي يحاول أن يجد الله، لكنه يكوّن باستمرار فكرةً زائفة عن الله، ولذلك لا يتسنى له أبداً أن ينظر ببصيرة صائبة إلى طبيعة الخطية وطريقة الفداء. أما في الأخير – أي دين الكتب المقدس – فالله دائماً هو الذي يبحث عن الإنسان، ويكشف للإنسان حالته المتّضعة بالذنب والنجاسة، إلا أنه تعالى يُعلن ذاته كما هو في نعمته ورأفته. فمن أعماق القلب البشري يصعد التحسُّر والتمني: ليت

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الله يشق السماوات وينزل! وفي المسيحية تنفتح السماوات فعلاً، وينـــزل الله إلى الأرض. ننظر إلى باقي الأديان فنرى أن الإنسان هو الذي يعمل كل حين، ساعياً إلى الحصول على الفداء من الشر وعلى الشركة مع الله، وذلك بإحراز المعرفـــة والعمل بكل نوع من الأحكام، أو باعتزال العالم والاعتكاف في مخـــدع الحيـــاة الداخلة الخاصة. أما في الدين المسيحي، فعمل الإنسان هو لا شيء، بل إن الله ذاته هو مَن يعمل، فيتدخل في التاريخ، ويفتح طريق الفداء في المسيح، وبقوة نعمته يأتي بالإنسان إلى هذا الفداء ويمكّنه من السير في رحابه. فالإعلان الخاص هو الجواب الذي يقدمه الله بالقول والفعل عن الأسئلة التي تثور في القلب البشري بإرشاد منه تعالى.

بعد السقوط مباشرة، جاء الله إلى الإنسان تواً. فقد أخطأ الإنسان ووقع في قبضة الخزي والخوف، وهرب من خالقه واختبأ في وسط شجر الجنة الملتف. إلا أن الله ما نسيه ولا تخلَّى عنه، بل تنازل وبحث عنه وتحدث إليه وهداه من جديد إلى الشركة معه تعالى (تكوين 3: 7 – 15).

وهذا الأمر الذي حدث على هذا النحو بعد السقوط مباشرة، ما بـــرح مستمراً في التاريخ من جيل إلى جيل. ونحن نرى الأمر عينه يحدث مرة تلو مـــرة. ففي عمل الفداء بكامله، هو الله وحدَه من يُعلن ذاته بوصفه الباحث والـــداعي، وبوصفه المتكلِّم والعامل. فكامل الفداء يبدأ منه وينتهي إليه. إذ إنه هو الذي وضع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

شيئاً عوضاً عن هابيل (تكوين 4: 25)، ووجد نوح نعمةً في عينيه (تك 6: 8) وحفظه في وسط دينونة الطوفان (تك 6: 12 وما يلي)، ودعا أبرام وأدخله في عهده (تك 12: 1؛ 17: 1)، واختار شعب إسرائيل ميراثاً له – وذلك بفضل نعمته وحسب. (تثنية 4: 20؛ 7: 6 – 8)، وفي هذا التدبير يجمع لنفسه من بين البشر كافة كنيسة اختارها للحياة الأبدية، ويحفظها جميعاً للميراث الأبدي إلى النهاية (أفسس 1: 10؛ 1 بطرس 1: 5). فكما هي الحال في عمل الخلق والعناية، كذلك أيضاً في عمل الفداء، أي الخلق من جديد، الله هو الألف والياء، الأول والآخر، البداية والنهاية (إشعياء 44: 6؛ رؤيا 22: 13). ولا يُعَقل أن يكون غير هذا، ولا أقل من هذا، لأنه هو الله – فإن منه وبه وله كل الأشياء (رو 11: 36).

أما أن الله هو البادئ في عمل الخلاص، فذلك واضح ليس فقط من حقيقة كون الإعلان الخاص صادراً عنه كلياً، بل هو مُعَلن أيضاً بوضوح في حقيقة كون عمل الفداء بمجمله متعلقاً بمشورة أزلية. وقد سبق لنا أنا أشرنا إلى أن عمل الخلق والعناية الإلهي بكامله نابعٌ من مشورة كهذه .إلا أن كلمة الله تقول لنا – إذا صح التعبير – بلغةٍ أكثر وضوحاً وعباراتٍ أكثر قوةً إن مثل هذه المشيئة الأزلية غير المتحوِّلة تكمن أيضاً في أساس عمل الفداء – الخلق من جديد – بكامله.

ففي مواضع شتى من الكتاب المقدس يرد ذكر مشورة تسبق كل شيء (إشعياء 46: 10)، وتعمل كل شيء (أفسس 1: 11)، ومضمونها عمل الفداء

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

على الأخص (لوقا 7: 30؛ أعمال 20: 27). وهذه المشورة ليست مشورة من فكر الله فقط بل من إرادته المقتدرة أيضاً (أف 1: 5، 11) وهي لا تُنقَض (إش 14: 27؛ 26: 10). ولا تتغير (عبرانيين 6: 17) بل تثبت إلى الأبد (مزمور 33: 11؛ أمثال 19: 21). هذا، ويستعمل الكتاب أسماءً أخرى تُلقي على الأمر مزيداً من الضوء. ففضلاً عن المشورة، نقرأ عن المسرة الصالحة التي أعلنها الله للناس في المسيح (لوقا 2: 14) والتي تبتهج بأن يأتي الناس ويُقبلوا بصفة أولاد الله (أف 1: 5، 9). ونقرأ عن قصدٍ يتعلق بعمل الاختيار (رومية 9: 11؛ أف 1: 9). وقد قُصِد في المسيح يسوع (أف 3: 11)، وهو يتحقق في دعوة الذين يحبون الله (رو 8: 28). ثم نقرأ أيضاً عن اختيارٍ، مقرون بعلمٍ سابق، صادرٍ عن النعمة (رو 11: 5) ومتركز في المسيح (أف 1: 4) وغرضُه أشخاص مخصوصون (رو8: 29). وغايته خلاصُ هؤلاء (أف 1: 4). أخيراً، نقرأ كذلك عن تعيين أو تعيين سابق يتخذ وسيلة إعلان حكمة الله (1 كورنثوس 2: 7) ويبلغ ذروته في تبني الله أولاداً لنفسه بيسوع المسيح، وفي الحياة الأبدية.[1]

حتى إذا جمعنا معاً هذه المعطيات الكتابية كلَّها، يتوضح لنا أن مضمون مشورة الله ينطوي على ثلاثة أمور.

---

(75) أع 13: 48؛ رو 8: 29؛ أف 1: 5.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

أما الأول فهو الاختيار، ويُعنى به قصد الله بالنعمة. ذاك الذي بموجبه عيّن أولئك الذين سبق فعرفهم، في المحبة ليكونوا مشابهين صورة المسيح (رومية 8: 29). ومن الممكن أيضاً التكلم عن اختيار شعوب أو أمم، لأنه في أزمنة العهد القديم اختيرت إسرائيل وحدها ميراثاً للرب؛ وفي تدبير العهد الجديد يُعَّرف بالإنجيل شعبٌ أسبق من غيره بكثير. على أن قبول الشعوب هذا لا يشكل المدى الكامل للاختيار كما يصوره الكتاب المقدس. إذ إنه كما يتناول الأمم داخل البشرية جمعاء، يتناول كذلك أفراداً داخل الأمم. وهكذا يُرفض عيسو ويُقبَل يعقوب (رومية 9: 13). ومن ثم فالذين سبق أن عرفهم الله فأولئك أيضاً دعاهم في الزمان وبرّضرهم ومجّدهم (رو 8: 30).

ولكن الاختيار، وإن كان غرضه أشخاصٌ محددون، إلا أن أساسه ليس أولئك الأشخاص. بل أساسه الوحيد هو نعمة الله. فالرب يرحم من يرحم، ويترأف على من يترأف، فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى، بل لله الذي يرحم (رو 9: 15 و 16). حتى الإيمان لا نفع له هنا، إذ لا يُعقَل أن يكون الإيمان شرطاً للاختيار أو أساساً له، بقدر ما هو بالأحرى نتيجةٌ أو ثمرٌ له. ثم إن ذلك الإيمان هو عطية من الله (أف 2: 8). وبالتحديد، فإن المؤمنين مختارون في المسيح من قبل تأسيس العالم، لكي يتسنى لهم في الزمان أن يبلغوا الإيمان ويكونوا به قديسين وبلا لوم أمام وجه الله (أف 1: 4). وعليه، فإن الذين يؤمنون دائماً هم المعيّنون للحياة الأبدية من قِبَل الله (أعمال 13: 48). فإن مشيئة الله من نحونا هي الأساس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

النهائي لكل ما هو كائن ولكلِّ ما يحدث، وكذلك مسرته الصالحة أيضاً هي العلَّةُ الأكثر أساسية التي يُمكن أن يُعزي إليها التمييز الحاصل في مصير الناس الأبدي.

أما الأمر الثاني، فهو أن مشورة الفداء تتضمن إتمام ذلك الخلاص الكامل الذي يريد الله أن يهبه لمختاريه. وفي مشروع الخلاص لم يُعَّين فقط الأشخاص العتيدون أن يرثوا الخلاص الأبدي، بل أشير أيضاً إلى الوسيط الذي سيُعدُّ لهم هذا الخلاص. إلى هذا المدى يُمكن أن يُدعى المسيح غرض اختيار الله. وبالطبع، يجوز أن يُدعى هكذا ليس بمعنى أن، شأنُه شأن أعضاء كنيسته، اختير لكي يُنقذ من حالة خطية وشقاء ويُنقل إلى موقع خلاص وفداء. حاشا، بل إنما يمكن أن يدعى هكذا بهذا المعنى الآخر: أن ذاك كان وسط الخلق سيكون أيضاً وسيط إعادة الخلق، ويُتِمُّ عمل الفداء كلياً بآلامه وموته. لهذا السبب يُدعى عبد الرب، أو فتاه المختار (إشعياء 42 وما يليه؛ 12: 18). وبوصفه وسيطاً، هو خاضعٌ للآب ومُطيع له.[1] إذ كان له وصيةٌ وعملٌ يُتمه حددهما له الآب.[2] ومكافأة له على إتمام العمل، تقبّل مجده الخاص به، وحصّل الخلاص لشعبه، وتقلد أسمى سلطان على الإطلاق في السماء وعلى الأرض.[3]

---

(76) مت 26: 42؛ يو 4: 34؛ في 2: 8؛ عب 5: 8.

(77) إش 53: 10؛ يو 6: 38 – 40؛ 10: 18؛ 12: 49؛ 17: 4.

(78) مز 2: 8؛ إش 53: 10؛ يو 17: 4، 24؛ في 2: 9.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إذاً، لا تجري مشورة الفداء بغير الابن، كما لا تجري بغيره مشورة الخلق والعناية. فإننا نقرأ بالحرف الواحد أن قصد الدهور قد صُنع في المسيح يسوع (أف 3: 11)، وأن الذين يبلغون الإيمان في الزمان قد اختيروا في المسيح قبل تأسيس العالم (أف 1: 4). وهذا لا يعني القول إن المسيح هو علة الاختيار أو أساسه، ما دام هو في ذاته غرض اختيار الآب بالمعنى المحدد أعلاه. ولذلك لا يمكن أن يؤدي دور أساس الخلاص وعلته كما لا يمكن أن يؤدي دور أساس الخلق والعناية وعلتهما. ولكن مثلما أن الخلق والعناية، من حيث كونهما مشورةً وحقيقة واقعة معاً، يصدران عن الآب من خلال الابن وهكذا يبرزان إلى الوجود، فكذلك تماماً خطة الخلاص هي أيضاً مصنوعة من قِبَل الآب في الابن ومعه. فالابن، مع الآب، يسمي نفسه وسيط الفداء ورأس كنيسته. ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الاختيار، وإن كان له غرضاً أشخاصٌ محددون، يستبعد كلياً أي احتمال للصدفة أو الانتقاء الكيفي. فإن قصد ذلك الاختيار ليس هو انتقاء أناسٍ قليلين كيفما اتفق كي يؤتى بهم إلى الخلاص وكي يقفوا جنباً إلى جنبٍ بعيدين بعضُهم عن بعض كأفراد منفردين. ذلك أن الله لا يهدف في اختياره إلى اقل من وضع المسيح الوسيط على رأس كنيسته وتكوين الكنيسة جسداً للمسيح.[1] فبمعنى عضوي، هي البشرية تخلُص في المسيح، وفي السماء الجديدة والأرض الجديدة تُصلح حال العالم إصلاحاً شاملاً.

---

(79) 1 كو 12: 12، 27؛ أف 1: 22 و 23؛ 4: 16.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فالأمر الثالث الذي تتضمنه مشورة الله هو إذاً وضع مشروع الخـــلاص الذي أتمه المسيح وتحقيق هذا المشروع. ومع أن خطة الخلاص رُسِمَت من قِبَـــل الآب في الابن، فهي قد رُسِمت أيضاً بالشركة مع الروح القدس. فيقيناً، كما أن الخلق والعناية يبرزان إلى الوجود من لدن الآب بواسطة الابن وفي الروح القدس، كذلك يحصل الفداء، أو إعادة الخلق، فقط من خلال نشاط الروح القدس العملي. وقد مهد المسيح للحلول الروح القدس ووعد به وأرسله (يوحنا **16**: **7**؛ أعمال **2**: **4**، **17**)، وهو الذي يشهد للمسيح ويأخذ كل شيءٍ من المسيح (يوحنا **15**: **26**؛ **16**: **13** و **14**)، والذي يُحِدث الآن الولادة الجديدة في الكنيسة (يو **3**: **3**) والإيمان (**1** كورنثوس **12**: **3**) والتبني (رو **8**: **15**). والتجديد (تيطس **3**: **5**) والختم ليوم الفداء (أف **1**: **13**؛ **4**: **30**). وهذا كلُّه يستطيع الروح القدس أن يصنعه ويوجده لأنه، مع الآب والابن، الإله الواحد الحقيقي الحـــي والمالـــك سرمدياً. فإن محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس، مرسَّخةٌ جيداً لشعب الرب في مشورة الله السرمدية العديمة التغيُّر.

****

وبالتالي، فإن مشورة الرب غنية بالتعزية على نحوٍ فائق الوصف. إلا أنها غالباً ما تُصوَّر على خلاف هذا، أي باعثةً على اليأس ومثبطة للهمة. وربَّ معترضٍ على هذه المشورة يقول إنه إذا كان كل شيء محتوماً منذ الأزل فلا يكون الإنسان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إلا لعبةً بيد المزاجية الإلهية. فأي نفع للإنسان في إجهاد نفسه وعيش حياة فاضلة؟ فإذا كان الإنسان مرذولاً، أو مرفوضاً، فإنه يهلك على كل حال. ثم تمضي هذه المحاجَّة فتطرح السؤال: ماذا يضير الإنسان إذا عاش في الخطية وانغمس في أحط أنواع الفجور والرذيلة؟ وإذا كان الإنسان مختاراً، فإنه يخلص على كل حال! ومثل هذه المشورة الإلهية لا تدع مكاناً، مهما كان، لأية حرية ولا لأية مسؤولية من جانب الإنسان. فله إذ ذاك أن يعيش وفقاً لما تمليه عليه أهواء قلبه، وله أن يُخطئ لكي تتوافر النعمةُ أكثر!

أما أن الاعتراف بمشورة الله غالباً ما أُسيء فهمُه على هذا النحو، فأمرٌ واقع بالتأكيد، ولا تعود إساءة الفهم هكذا، في الممارسة الفعلية، إلى أيام كالفن أو أيام أوغسطينوس وحسب، بل إنها حدثت أيضاً في زمن المسيح والرسل. إذ إننا نقرأ عن الفريسيين والناموسيين أنهم رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم والتي تبدَّت لهم في معمودية يوحنا، بحيث إن ما كان يجب أن يكون عبارةً عن وسيلةٍ للرجوع إلى الله موجودةً في متناول أيديهم، قد صار أداة للحكم عليهم بالهلاك (لوقا 7: 30). ويقول الرسول بولس إن هذا افتراء أن يُتَّهم بإباحته فعل الشر لكي يأتي الخير (رومية 3: 8)، ويرد بالحجة موبخاً كل من يجرؤ على انتقاد الله (رو 9: 19 و 20). ولبولس كل الحق في أن يفعل هذا. فإن مشورة الله لا تقتصر على تحديد النتائج المحتومة بل تسيطر أيضاً على الوسائل. وهي لا تتضمن العواقب فقط، بل الأسباب أيضاً. كما أنها توطِّد علاقات كتلك التي تُرى موجودةً في الحياة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

بالذات. ولذلك، فإن مشورة الله لا تُبطل طبيعة الإنسان العقلية والخُلْقية، بل بالأحرى توجِدها وتضمنها، دائماً إلى الحد الذي يُتيح لنا التاريخ معرفته.

إن إساءة تطبيق هذا الاعتراف بمشورة الله هي أمرٌ فائق الخطورة. فهذه المشورة مُعلَنة ومبنية في الكتاب المقدس لا لكي ننكر حقيقتها ونقسي أنفسنا تجاهها، بل – على العكس – لكي يُتاح لنا، إذ نلمس مذنوبيتنا وإفلاسنا، أن نتكل على هذه المشورة الإلهية بإيمانٍ طفولي، وأن نضع فيها كامل ثقتنا القلبية في كل ضيقٍ وحاجة. فلو كان الخلاص يتعلق بالإنسان، إلى درجةٍ كبرى أو صغرى، وبإيمانه وأعماله الصالحة، لفاته الخلاص إذ ذاك إلى الأبد. غير أن مشورة الله تعلمنا أن الفداء، من أوله إلى آخره هو من عمل الله، بل إنه عمل الله على نحو فريد كلياً. فالفداء شانه شأن الخلق والعناية، إنما هو عمل الله وحده دون سواه. لأن من عرف فكر الرب أو صار له مشيراً، أو من سبق فأعطاه فيكافأ؟ (رو **11**: **34** و**35**). فإن الآب والابن والروح القدس فكروا معاً في عمل الفداء بكامله وصمموا عليه، وهم أيضاً من ينفِّذه ويكمله. أما الإنسان فلا يعمل هنا شيئاً ما. إذ كل الأشياء هي من الله وبه وله. ومن هنا تستطيع نفوسُنا أن تستريح في رحاب الفداء بيقينية لا يكدرها شيء. فإصلاح حال البشرية وخلاصُها في الكنيسة إنما هما مشيئة الله الأزلية المستقلة غير المتحولة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وتزداد قناعتنا بهذه التعزية التي ينطوي عليها الاختيار حينما نـــذكر أن مشورة الله ليست فقط عملاً من جانب فكره بل هي أيضاً عملٌ من جانب إرادته. وهي لا تقتصر على كونها فكرةً تقع في نطاق الأزل وحسب، بل إنها قوة مقتدرة تُحقق ذاتها في الزمن. هكذا هي حال سائر سجايا الله وكمالاته. فهـــب ليســـت صفات سلبية ساكنة بل قوىً قديرة مفعمة حياة وحركة. فكلُّ سجية من سجاياه داخلة في صُلب كينونته. فعندما يُدعى الله البار والقدوس، يتضمن ذلك أن يُعلِن ذاته أيضاً بهاتين الصفتين، وأنه يمارس عدالته على هذا العالم وعلى ضمائر البشر ويُعنى بالحفاظ عليها هنا وهناك. وعندما يُدعى محبةً، لا يكون مدلول هذا فقط أنه ينظر إلينا في المسيح بعين الرضى، بل أيضاً أنه يُعلن هذه المحبة ويسكبها في قلوبنا بالروح القدس، وحين يدعو ذاته أباً لنا، يتضمن ذلك أيضاً أنه يهدينا إلى ذاتـــه، ويتبنانا بصفة أولاد له، ويشهد بالروح القدس مع أرواحنا أننا أولاده. وحينمـــا يُعلن ذاته بوصفه المُنعِم والرحيم، لا يقول ذلك مجرد قول، بل يبرهن عليه أيضـــاً بالفعل إذ يغفر خطايانا ويعزينا في كل ضيقاتنا، وكذلك أيضاً حين يكلمنا الكتاب عن مشورة الله، فإنما يُعلن لنا بذلك أن الله نفسه سيُنفِّذ تلك المشورة ويحققها إلى التمام. ومشورة الفداء بالذات هي عملٌ إلهيٌّ منذ الأزل، إلا أنها _ في حد ذاتها – هي أيضاً مبدأُ عمل الفداء في الزمن، وقوةُ هذا العمل المحرِّكة، وضمانتهُ. وعليه، فمهما جرى للعالم وللبشر ولنا نحن، فإن مشورة الله الكلية الحكمة تقوم إلى الأبد، وإلى الأبد تظلُّ فاعلة. فما من شيءٍ البتة يقوى على تحويل قصد الله السامي عن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

خط سيره؛ فهو يبقى كما هو من جيل إلى جيل. إذاً، لا داعي إطلاقاً لتثبيط الهمة أو لليأس. فكل شيء سيكون بكلِّ يقين كما حتمَه الله في حكمته ومحبته؛ وإرادته القديرة والمُنعِمة هي الضمان لفداء البشر وإنقاذ العالم. لذلك تبقى قلوبُنا في سلامٍ بالرب إبان الضيقات الشديدة.

****

ولذلك فما إن أخطأ الإنسان حتى ابتدأت مشورة الفداء تعمل. وإذا الله، بمبادرةٍ شخصية منه فحسب، يتنازل إلى الإنسان ويبحث عنه ويدعوه كي يرجع إليه تعالى. صحيح إن فحصاً أو استجواباً جرى حينذاك، ومن ثم أُعلِن الجُرم وتُليَت العقوبة. إلا أن القصاص الذي أُعلِن على الحية والمرأة والرج، هو في الوقت عينه بركةٌ ووسيلة حفظ. ذلك أن الوعد الرئيسي (تك **3**: **14** و**15**)، رغم كل شيء، لم يقتصر على حط الحية وإصدار الدينونة على قوة الشر التي كانت مطيَّةً لها. بل لقد أُعلِن أيضاً أنه مذ ذاك تكون عداوة بين نسل الحية ونسل المرأة وأن الله نفسه هو مُحدِث هذه العداوة وموطِّدها. أما ذروة هذا النزاع والصراع فلسوف تكون أن نسل الحية يسحق فعلاً عقب نسل المرأة، غير أن نسل المرأة يسحق رأس نسل الحية.

في هذا الوعد الرئيسي المشار إليه لا يُضمَّن ما هو أقلُّ من إعلان عهد النعمة وتأسيسه. حقاً إن كلمة العهد لا تُذكر في هذا السياق: فهي كلمةٌ يمكن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

استخدامُها فيما بعد فقط، وذلك فيما يتعلق بنوحٍ وإبراهيم وغيرهما، حينما بات الناس يدركون ضرورة المواثيق والعهود، إبان مختلف صراعاتهم مع الطبيعة والحيوانات، باختبار الحياة عملياً. إلا أننا، من حيث المبدأ والجوهر، نجد جميع العناصر المكوِّنة لعهد النعمة حاضرة في الوعد الرئيسي. ذلك أن الإنسان بتعديه أقلع عن إطاعة الله وهجر الشركة معه والتمس صداقة الشيطان وتعاهد معه. وهوذا الله الآن يتداخل بنعمته لينقض علاقة العهد هذه بين البشر والشيطان وليضع عداوة بدلاً من الصداقة التي حصلت بينهما. فبعملٍ مقتدرٍ من قِبَل مشيئته الكريمة، يستعيد تعالى إلى صفه نسل المرأة بعدما أسلمته المرأة للشيطان. ومن ثم يضيف إلى هذا، الوعد بأن نسل المرأة، رغم سائر أنواع المقاومة والطغيان، سيُحرِز يوماً النصر النهائي على نسل الحية. وليس في هذا أيُّ شكٍ أو شرط. إذ إن الله نفسه يأتي إلى الإنسان، وهو بذاته يضع العداوة، ويشن الحرب، ويعد بالنصر. وليس للإنسان في ذلك أيُّ دورٍ ما خلا الإصغاء إليه والقبول به بإيمانٍ طفولي. فالوعد والإيمان هما مضمون عهد النعمة الذي وُضِع آنذاك للإنسان، مما يمهد السبيل أمام هذا المخلوق الساقط والضال للرجوع إلى بيت الآب، ويفتح سبيل القدوم إلى الخلاص البدي.

فهناك فرق كبير بين الطريقة التي كان سيشارك بها الإنسان في الحياة الأبدية قبل السقوط وبين الطريقة الوحيدة التي يستطيع الحصول بها على تلك الحياة بعد سقوطه. فإذ ذاك كانت تصحُّ القاعدة: اعمل هذه فتحيا. إذ كان على

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الإنسان، عن طريق الطاعة الكاملة لوصية الله، أن يتقدم ليرث الحياة الأبدية. وقد كانت هذه، في حد ذاتها، طريقاً صالحة، لو ظل الإنسان ملتزماً السير لأفضت به حتماً إلى الخلاص الأبدي. أما الله، فلم ينقض هذه القاعدة من جانبه، بل إنه مازال يلتزمها. فلو كان إنسانٌ واحدٌ يستطيع حفظ ناموس الله بالتمام والكمال لكوفئ بالحياة الأبدية فعلاً.[21]

غير أن الإنسان جعل طريق الخلاص هذه مستحيلةً عليه. إذ ليس في وسعه بعد أن يحفظ الناموس، لأنه نقض الشركة مع الله وما عاد يحب ناموس الله بل صار يكرهه (رومية 8: 7). وها هو عهد النعمة الآن يفتح أماه طريقاً آخر وأأمن. بموجب هذا الطريق لم يعد واجباً على الإنسان أن يعمل ليرِث الحياة، بل بالأحرى يحصل على الحياة الأبدية للحال في أول الطريق إذ يقبلها بإيمانٍ طفولي، وانطلاقاً من ذلك الإيمان يمضي فيُنتج أعمالاً صالحة. هنا ينعكس الترتيب. إذ قبل السقوط كانت القاعدة: إلى الحياة الأبدية من خلال الأعمال. أما الآن، بعد السقوط، وفي عهد النعمة، فالحياة الأبدية تأتي أولاً، ومن تلك الحياة تطلع الأعمال بالتالي كثمارٍ للإيمان. فمن قبلُ كان على الإنسان أن يرتقي لبلوغ المستوى الذي وضعه الله فيحصل على ملء الشركة معه. والآن، بعد السقوط، يتنازل الله إلى الإنسان

[1] - لا 18: 5؛ خر 20: 11، 13؛ مت 19: 16 وما يلي؛ رو 10: 5؛ غل 3: 12

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ويلتمس له مسكناً في قلب الإنسان. ومن قبلُ كانت أيام العمل تسبق سبت الراحة، أما الآن، فالسبتُ (المعنويُّ) يستهلُّ الأسبوع ويُقدِّس كلَّ أيامه.

أما وقد بات موجوداً الآن طريقٌ يُفضي بالإنسان الساقط إلى القدس السماوي، طريقٌ مكرَّسٌ حديثاً وحي، طريقٌ مضمون ومأمون ويقينيٌّ ثوابُه (عبرانيين **10**: **20**)، يعود ذلك كلُّه إلى فضل نعمة الله ومشورة الفداء. فإن مشورة الفداء، المرسومة أزلاً، وعهد النعمة الذي يُعرَّف الإنسانُ به بعد السقوط مباشرة، والذي أقيم آنذاك، ليتعلقان بعضُهما ببعض أوثق علاقة. إنهما مترابطان عضوياً بحيث إن أحدهما يقوم أو يسقط بقيام الآخر أوسقوطه. صحيحٌ إن كثيرين يعتقدون بغير هذا الاعتقاد. فهم يقفون على شرفة عهد النعمة من حيث ينظرون إلى سائر الأمور، ومن موقعهم ذاك ينكرون مشورة الفداء ويناقضونها؛ وباسم نقاوة الإنجيل يرفضون الاعتراف بالاختيار. وبذلك يقوّضون فعلاً عهد النعمة ويحوِّلون الإنجيل مرةً أخرى إلى ناموسٍ جديد.

وكيف دار الأمر، فعندما يُفصل عهد النعمة عن الاختيار، لا يبقى عهدَ نعمة بل يصير من جديد عهدَ أعمال. فالاختيار يتضمن أن الله يمنح الإنسان، مجاناً وبدافع من النعمة، الخلاص هبةً من نعمة الله مجانية، بل كان يتعلق بمجهود البشر بطريقة ما، فإن عهد النعمة يتحول إذ ذاك إلى عهد أعمال. حينئذٍ يكون على الإنسان أن يفي بشرطٍ معين لكي يرث الحياة الأبدية. ففي هذا الأمر، تقف النعمة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

والأعمال في قطبين متعاكسين بحيث تنفي إحداهما الأخرى. فما دام الخلاص هو بالنعمة فهو ليس بعدُ بالأعمال، وإلا فليست النعمة نعمةً بعد. ولو كان الخلاص بالأعمال، لما كان بالنعمة وإلا فالأعمال لا تكون أعمالاً (رو 11: 6). فالدين المسيحي له هذه المزية الفريدة، أعني أنه دينُ الفداء، بالنعمة الخالصة، ولذا فهو دينُ نقيٌّ. وهو إنما يتمُّ تمييزُه على هذا النحو، وإبقاؤه بهذه الصفة، فقط إذا كان عطية مجانية صادرة عن مشورة الله وحدها. وما دام الاختيار وعهد النعمة لا يُعقَل البتة أن يشكلا نقيضين متناقضين، فإن الاختيار هو أساس عهد النعمة وضمانُه وجوهره ولُبه. ثم إن التمسُّك بهذه العلاقة الوثيقة هو أمرٌ بالغ الأهمية بالضرورة الحتمية، لأن أدنى إضعافٍ لهذه العلاقة لا يحرم المرء فقط سواء البصيرة بالنسبة إلى تحقيق الخلاص وتطبيقه، بل يسلب المؤمنين أيضاً تعزيتهم الوحيدة واليقينية في ممارستهم لأمور حياتهم الروحية.

ويترامى على هذه العلاقة ضوءٌ أسطع عندما ننظر إلى عهد النعمة لا في سياق الاختيار وحسب بل في سياق كامل مشورة الفداء كلِّها. فليس الاختيار هو كامل مشورة الفداء؛ بل هو جزءٌ منها، وإن كان الجزء الأول والرئيسي. إذ تتضمن تلك المشورة أيضاً، على نحوٍ راسخٍ لا يحول، الطريقة التي ينبغي أن يتحقق بها الاختيار فعلاً، وبعبارة موجزة: إتمام الفداء بكامله وتطبيقه كلياً. فنحن نعلم أن الاختيار قد قُصد في المسيح، وأن مشورة الله ليست فقط من عمل الآب بل هي أيضاً من عمل الابن والروح القدس. إنه عملٌ إلهيٌّ يتولاه الثالوث الأقدس. بكلامٍ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

آخر، إن مشورة الفداء هي في حد ذاتها عهدٌ يتولى بموجبه – إذا جاز التعـــبير – كلٌّ من أقانيم اللاهوت عمله الخاص ويُنجز مهمته المتولاة. فليس عهد النعمة المُقام في الزمن والموصول من جيلٍ إلى جيل إلا تنفيذاً وصورةً طبق الأصل للعهد الراسخ في مشورة الله الأزلية. وكما في مشورة الله، فكذلك في التاريخ، يظهر كلٌّ مـــن الأقانيم. فالآب هو مصدر خلاصنا، والابن هو مكمِّله، والروح القدس هو مـــن يُحققه. ومن هنا فإن أيَّ شخصٍ يُجرد الزمن من أساسه الأزلي، وذلك بحلِّ التاريخ من مرساته في مشيئة الله الكريمة المقتدرة، إنما يُسيء مباشرةً، وبالمقـــدار الواحـــد عينه، إلى عمل كلٍّ من الآب والابن والروح القدس.

****

ولئن كان الزمن لا يمكن أن يستغنى عن الأزل، وكان التاريخ قائمـــاً في أوثق علاقةٍ بفكر الله، فليس هذان الأمران بعضهما مثل بعض من كل ناحية. فإنَّ بينهما ذلك الفرق الكبير القائم في أن فكرة الله تُعلَن في تاريخ الزمن وتغدو حقيقة واقعة. ومع أنه لا يمكن الفصل بتاتاً بين مشورة الفداء وعهد النعمة، ولا يجـــوز ذلك الفصل، فإنهما يختلفان بعضُهما عن بعض في هذه الناحية بحيث إن الأخير هو تحقيقٌ للأول. فليست خطة الخلاص، بحد ذاتها، كافية. بل إنها تحتاج إلى تنفيذ. ومن حيث هي تصميم، فهي تحمل طيَّ ذاتها تنفيذَها وتحقيقها، وهي تُجري هذين بذاتها. حتى إنها تفقد مزيَّة كونها مشورةً وتصميماً إن كانت لا تُحرز التحقيق والظهور في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الزمن. وهكذا كان ذلك. فبعد السقوط مباشرة أُعلِن عهدُ النعمة للإنسان وقُطِع له، ومن ثم سار في مجراه من جيل إلى جيل عبر التاريخ. فالشيء هو شيء واحد في التصميم، ينكشف في عرض الزمن ويتطور في مجرى العصور.

وعندما نصرف انتباهنا إلى هذا التطور التاريخي لعهد النعمة، نتبين فيه ثلاث خصائص جلية.

أما أولى هذه الخصائص، فهي أن عهد النعمة هو واحدٌ في جوهره في كل زمان ومكان، غير أنه يظهر دائماً بأشكالٍ جديدة ويجتاز تدابير مختلق. فهو يبقى واحداً من حيث جوهره ومادته، سواءٌ قبلَ تدبير الناموس، أم في أثنائه، أم بعده. إذ إنه دائماً عهدُ نعمة. وهو يُدعى هكذا لأنه صادر عن نعمة الله، ولو النعمة مضموناً، وتمجيد نعمة الله غرضاً نهائياً.

وتماماً كما كان عند إعلان هذا العهد أول مرة، إذ تم تثبيتُ العداوة وإطلاقُ شرارة الكفاح والوعدُ بالنصر، فكذلك الحال دائماً إذ يبقى الله هو الأول والآخِر في جميع تدابير عهد النعمة، سواءٌ مع نوح أم إبراهيم أم إسرائيل أم الكنيسة في العهد الجديد. فإن مضمون هذا العهد كان، ويبقى دائماً، هو الوعد والعطية والنعمة. وفي مجرى الزمن يتكشَّف بأكثر جلاء ما هو متضمَّن في هذا العهد، ويتوضح للعيان مقدارُ غنى مضمونه. إلا أن هذا كلَّه كان قد انطوى عليه مبدئياً الوعدُ الرئيسي. فإن الوعد الواحد والشامل والعظيم في عهد النعمة هو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

هذا: أنا أكون إلهك وإله شعبك. وعدٌ شامل يتضمَّن كلَّ شيء – إنجاز عمل الخلاص وتحقيقه بالكامل؛ المسيح والبركات المرتبطة به؛ الروح القدس والمواهب التي يُعطيها. وإن خطاً مستقيماً واحداً يجري من الوعد الرئيسي في (تكوين 3: 15) إلى البركة الرسولية في (2 كورنثوس 13: 13). ففي محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس يستقرُّ كاملُ الخلاص للإنسان الخاطي.

ولذلك ينبغي لنا أن نلاحظ على وجه الخصوص أن هذا الوعد ليس مشروطاً بل هو مؤكّد ويقينيٌّ إلى ما لا نهاية. فإن الله لا يقول إنه سيكون إلهنا إذا فعلنا كذا وكذا. بل يقول إنه هو سيضع عداوةً، وهو سيكون إلهنا، وهو سيمنحنا كل شيء في المسيح. ففي وسع عهد النعمة أن يبقى هو إياه على مر العصور لأنه يتعلَّق كلياً بالله، ولأن الله هو الأمين وغير المتغير دائماً أبداً. أما عهد الأعمال الذي أُقِرَّ مع الإنسان قبل السقوط فكان عرضة للانتهاك، وقد تم انتهاكه فعلاً، لأنه تعلَّق بالإنسان المتغير. غير أن عهد النعمة ثابت وموطد في رحمة الله وحدها. فلقد يصير الناس غير أمناء، إلا أن الله لا ينسى وعده البتة. إذ لا يُمكن، ولا يُعقل، أن ينقض عهده، ما دام قد التزم الوفاء به متعهداً بقسَم ثمين مقدِّم فضلاً، بحيث إن اسمه وكرامته وسمعته تتوقف كلُّها على ذلك. فلأجل نفسه هو يمحو الذنوب ولا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

يعود يذكر الخطايا.[1] حتى إن الجبال تزول والآكام تتزعزع، أما إحسانه فلا يزول عنا وعهد سلامه لا يتزعزع – قال الربُّ راحِمُنا (إشعياء **54**: **10**).

ومهما كان عهد النعمة غير متغير في جوهره، فإنه يتنوع في أشكاله ويتخذ ملامح شتى في مختلف التدابير. وفيما حدث في الفترة السابقة للطوفان تمييزٌ بين نسل شيث ونسل قايين، ظل الوعد رُغم ذلك غير مقصورٍ على شخصٍ واحد أو نسلٍ واحد، إذ امتد إلى جميع البشر. فلم يكن قد حصل بعدُ تمييزٌ رسمي؛ وكان الإعلان العام والإعلان الخاص ما يزالان يجريان في مجرى واحد. ولكن لما بات الوعد في تلك الحال مهدداً بالضياع، صار الطوفان ضرورياً. وأخذ نوحٌ الوعد معه إلى داخل الفلك. وآنذاك أيضاً استمر الوعد زمناً طويلاً بصفته العمومية. إلا أنه عندما نشأ بعد الطوفان خطرٌ جديد على سيرورة عهد النعمة، عندئذٍ لم يستأصل الله البشر مرةً أُخرى، بل ترك الناس يمضون في سبُلهم، وميز إبراهيم ليكون حامل الوعد. ومن ثم وجد عهد النعمة تحقيقه في عائلات الآباء. وقد مُيِّزت هذه العائلات عن سائر الأمم بعلامة الختان كختمٍ للبّر، وبالإيمان كعلامةٍ على ختان القلب.

ثم إن عهد النعمة وُطِّد في سيناء مع إسرائيل بوصفه نسل إبراهيم. ولكن بما أن إسرائيل كان أمَّةً أو شعباً وكان واجباً عليه أن يحيا أمام وجه الرب كأُمة

(**81**) إش **43**: **25**؛ **48**: **9**؛ إر **14**: **7** ، **12**.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

مقدسة، فقد أُضفي آنذاك على عهد النعمة شكلٌ قومي وصبغةٌ قومية. فإذا عهد النعمة الآن يستعمل الناموس، لا الناموس الأدبي وحده، بل الناموس الطقسي والمدني بكل أحكامه أيضاً، لكي يقتاد به الناس إلى المسيح وكأنه مؤدِّب أو معلِّم. وقد كان الوعد أسبق من الناموس، ولم يأتِ الناموس ليحلَّ محلّ الوعد، بل أُضيف إلى الوعد، وذلك بالتحديد لكي يدفعه قُدماً في خط تطوره، ويُعِدَّه لإتمامه في ملء الزمان. فإن الوعد يلقي إتمامه في المسيح، حيث يحصل الظلُّ على حقيقته، والحرفُ على روحه، والعبودية على حريتها. وهكذا يتحرَّر الوعد من كل حدودٍ وقيودٍ خارجية، ويعود لينتشر، كما فبالبداية، على البشرية كلِّها.

على أن عهد النعمة، بصرف النظر عن الأشكال التي يتجلى بها، يبقي له دائماً مضمونُه الجوهريُّ الواحد بعينه. فهنا يوجد دائماً الإنجيل نفسه (رو 1: 2؛ غلاطية 3: 8)، والمسيح نفسه (يوحنا 14: 6؛ أعمال 4: 12)، والإيمان نفسه (أعمال 15: 11؛ رو 4: 11)، كما تبلَّغُ دائماً البركاتُ عينُها من غفرانٍ وحياة أبدية وغيرهما (أعمال 10: 43؛ رو 4: 3)، فبينما يتفاوت النور الذي يسافر المؤمنون على هَدْيه، يبقى طريقُهم هو إياه في كل حين.

وأما المزية الثانية أو ثانية الخصائص الجلية التي تميز عهد النعمة فهي أن لهذا العهد، في جميع التدابير الإلهية، طبيعةً عضوية مميزة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إن الاختيار يركز الاهتمام على أشخاصٍ محددين، على أفرادٍ سبق الله فعرفهم ومن ثم دعاهم في الزمن وبرّرهم ومجدَّهم، غير أنه لا يُبين بعد العلاقة بين هؤلاء الأشخاص. ولكن الكتاب المقدس يُعلِمنا أيضاً أن الاختيار تم في المسيح (أفسس 1: 14؛ 13: 11)، وبالتالي طفق يعمل على نحوٍ يستطيع معه المسيح أن يظهر بوصفه رأس كنيسته، وتستطيع الكنيسة أن تكوِّن جسد المسيح. وعليه، فإن المختارين لا يقفون بعيدين بعضُهم عن بعض بلا أيَّ رابط، بل هم واحدٌ في المسيح. فكما كان شعب إسرائيل في أيام العهد القديم شعباً لله مقدساً، فكذلك تماماً كنيسة العهد الجديد هي جنسٌ مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء (1 بطرس 2: 9). ثم إن المسيح هو العريس، والكنيسة هي عروسه؛ هو الكرمة، والمؤمنون هم الأغصان؛ هو حجر الزاوية، وهم الحجارة الحية في بناء الله؛ هو الملك؛ وهم رعاياه. والوحدة بين المسيح وكنيسته متينة وحميمة إلى حدٍّ جعل بولس يشملهما معاً باسم المسيح: لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً (1 كورنثوس 12: 12). فالمؤمنون كلهم تجمعهم شركةٌ واحدة، وهم يجتهدون أن يحفظوا وحدانية الروح برباط السلام. وهنالك جسدٌ واحد وروح واحد، كما دُعُوا أيضاً في رجاء دعوتهم الواحد؛ ولهم ربٌّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة، إلهٌ وآبٌ واحد، للكل وعلى الكل وبالكل وفي كُلِّهم (أف 4: 3 – 6).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

إذاً لا يُعقَل أن الاختيار ربما كان عملاً كيفياً أو عرضياً. فإن كان يتحكم به قصدُ جَعْلِ المسيح رأساً والكنيسة جسده، يكون ذا طبيعة عضوية وينطوي حتماً على فكرة العهد.

إنما يُشار إلى أمرٍ آخر بعدُ بالشهادة المؤكدة أن الاختيار قد قُصِد أو صُنع في المسيح. فرُغم كل شيء، تظهر الوحدةُ العضوية التي تضمُّ الجنس البشري كلَّه أول ظهور لها في آدم وليس في المسيح. ويدعو بولس آدم بصريح العبارة مثالاً للآتي (رو 5: 14)، كما يدعو المسيحَ آدم الأخير (1 كورنثوس 15: 45). وفي هذا يبدو أن عهد النعمة ينطوي على الأفكار الأساسية والخطوط العريضة التي يشتمل عليها عهدُ الأعمال. فليس هو نقصاً لذلك العهد بل هو بالأحرى إتمامٌ به، تماماً كما أن الإيمان لا يبطل مفعول الناموس بل بالأحرى يعزّزه (رو 3: 21). فمن جهة، كما أشرنا آنفاً، ينبغي التمييز بوضوح كلي بين عهد الأعمال وعهد النعمة ومن جهة أخرى، هما مترابطان ترابطاً وثيقاً. أما الفرق الكبير فكامن في هذا: أن آدم غُرّم بفقد مركزه رأساً للجنس البشري وأن المسيح قد حل محلَّه. على أن المسيح لا يتولى بنفسه فقط إتمام ما أساء الإنسان الأول عملَه، بل أيضاً إتمام ما كان ينبغي لآدم أن يفعله لكنه لم يفعل. فالمسيح يفي عنا المطالب التي يشتمل عليها الناموس الأدبي، وهو الآن يجمع في وحدةٍ واحدةٍ كنيستَه بأكملها في شكل بشرية مجددة خاضعة له رأساً لها. وفي تدبير ملء الأزمنة، يجمعُ الله كلَّ شيءٍ في المسيح أيضاً – ما في السماوات وما على الأرض (أف 1: 10).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

ولا يُمكن أن يحدث جمعٌ كهذا إلا بطريقةٍ عضوية. وإذا كان عهد النعمة في ذاته قد تم التفكير فيه باعتباره عضوياً في المسيح، فمن ثم كان يجب أن يقـــوم ويستمر بطريقة عضوية. من هنا نلاحظ أن هذا العهد لم يكن يوطَّد في التاريخ مع شخصٍ واحدٍ بمفرده، بل دائماً مع إنسانٍ وأسرته أو قومه – مع آدم، ونـــوح، وإبراهيم، وإسرائيل، والكنيسة ككُل. فالوعد لم يخص مرة مؤمناً فرداً لوحده، بل كان يشمل معه دائماً بيته أو أسرته أيضاً. ذلك أن الله لا يحقق عهد نعمته بانتقاء بضعة أشخاص من البشرية كيفما اتفق، وبتجميع هؤلاء معاً في نوعٍ من التجمع حول العالم. بل إنه بالأحرى يحمل عهده إلى داخل البشرية، ويجعله جزءاً من العالم لا يُجتزأ، ويُعنى بأمر الحفاظ عليه من كل سوءٍ في العالم. فإذ يقوم الله بعمله فادياً أو خالقاً من جديد، يتبع الخط نفسه الذي رسمه باعتباره خالقاً ومدبراً وضـــابطاً لكل شيء. فالنعمة شيء يختلف عن الطبيعة ويسمو عليها، إلا أنها مع ذلك تواكب الطبيعة، فلا تدمرها بل بالأحرى تُصلحها. وليست النعمة إرثاً يـــؤول بـــالولادة الطبيعية، بل هي تجري فعلاً في المجرى الذي شق طريقه في العلاقات الطبيعية القائمة في الجنس البشري. فإنَّ عهد النعمة لا يهيم على وجهه كيفما اتفق، بل يُخلِّد ذاته – تاريخياً وعضوياً – في الأُسر والأقوام والأمم.

وأما المزية أو الخاصية الثالثة والأخيرة التي يتميز بها عهد النعمة فهي تقترن بالثانية، وهي أن هذا العهد يحقق ذاته بطريقةٍ ترعى طبيعة الإنسان العقلية والخُلُقية. أجل، إنه مؤسسٌ على مشورة الله. وهذه حقيقة لا يمكن أن يُنقص منها أي شيء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

فمن وراء عهد النعمة تكمن مشيئةُ الله المطلقةُ السيادة، والكلية القدرة، التي تتخللُّها الطاقة الإلهية اللامتناهية، والتي تضمن بالتالي انتصار ملكوت الله على قوى الخطية بأجمعها.

غير أن تلك المشيئة ليست ضرورة حتمية أو مصيراً جبرياً يفرض ذاته على الإنسان من الخارج، بل هي بالأحرى مشيئة خالق السماوات والأرض، مشيئة ذاك الذي لا يمكن أن ينقض عمله الخاص في الخلق والعناية، ولا أن يعامل الكائن البشري الذي خلقه كما لو كان خشبةً أو حجراً. ثم إن هذه المشيئة هي أيضاً مشيئة آبٍ رحيم ومُحسِن لا يُجري شيئاً بالقوة إكراهاً، بل يقهر بنجاحٍ كل مقاومتنا بما للمحبة من قوة روحية. فليست مشيئة الله قوة عمياء غير عاقلة، بل إنها مشيئة حكيمة ومُنعِمة ومُحِبة، كما أنها في الوقت نفسه مشيئة حرة وكلية القدرة. ولذلك يقوم الله بعمله فعلاً في صراعٍ مع أفهامِنا المُظلمة وإرادتنا الأثيمة، حتى إن بولس استطاع أن يقول عن الإنجيل إنه ليس حسب الناس، أي غير متجاوبٍ مع البصائر الغبية والرغائب غير السوية التي للإنسان الساقط (غلاطية 1: 1). ولكن هكذا يليق أن تعمل مشيئةُ الله، لأنه يريد بالتحديد أن ينقذنا من كل ضلال الخطية ويُعيد إلى سواء الحال طبيعتَنا العقلية والخُلقية بكامل صحتها وسلامتها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

وهذا يُبين السبب الكامن وراء حقيقة أن عهد النعمة يتناهى إلينا في صورة وصية تحفزنا على الإيمان والتوبة (مرقس 1: 15). وإن كان هذا العهد في حد ذاته لا يطلب أية مطالب ولا يضع أية شروط. فبالنظر إلى ما هو في ذاته، يتبين أنه نعمةٌ صرف، ولا شيء سواها، وانه يُقصي الأعمال من أي نوعٍ كانت. إنه يعطي ما يطلب، ويُنجز ما يُوصي به. فما الإنجيل سوى بشارة خالصة – لا طلب، بل وعد؛ ولا واجب بل هِبة. ولكن لكي يصبح الإنجيل بالنسبة إلينا حقيقةً واقعة باعتباره وعداً وهِبة، فهو يتخذ صفة التحريض الأدبي وفقاً لطبيعته. إنه لا يُريد أن يُرغِمنا، إلا أنه لا يُريد أقل من أن نقبل بالإيمان، طوعاً واختياراً، ما يريد الله أن يُعطينا إياه. فإن مشيئة الله لا تحقق ذاتها إلا عن طريق عقولنا وإرادتنا. ولهذا حق القول إن شخصاً ما، بالنعمة التي يحصل عليها، هو بنفسه يؤمن وهو بنفسه يتوب عن الخطية إلى الله.

ونظراً لأن عهد النعمة يدخل إلى وسط الجنس البشري على هذا النحو التاريخي والعضوي، فلا يمكن أن يظهر هنا على الأرض في صورةٍ توافق جوهره تمام الموافقة. إذ يبقى في المؤمنين الحقيقيين كثيرٌ مما يُناقض على خطٍّ مستقيم الحياة المتناغمة مع مطلب العهد: سر أمامي وكن كاملاً (مستقيماً)؛ كونوا قديسين لأني أنا قدوس. وليس هذا فقط، بل قد يوجد أيضاً أشخاص يشملهم عهد النعمة كما يتجلى للعِيان، إلا أنهم رغم ذلك محرومون من كل ما ينطوي عليه العهد من بركات روحية، وذلك بسبب قلبهم غير المؤمن وغير التائب. وليست هذه هي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

الحال في أيامنا فقط، بل هكذا كانت وما تزال على مر العصور. ففي أزمنة العهد القديم، لم يكن جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليين (رومية 9: 6)، إذ ليس أولاد الجسد هم أولاد الله، بل أولاد الموعد يُحسبون نسلاً (رو 9: 8؛ 2: 29). وفي العهد الجديد تضم الكنيسة (كهيئة منظورة) تبناً مع الحنطة، وأغصاناً رديئة معلقة بالكرمة، وأواني من خزف مختلطة بأوانٍ من ذهب.[1] فثمة قومٌ لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها (2 تيموثاوس 3: 5).

على أساس هذا التناقض بين الجوهر والمظهر، حاول بعضهم أن يُجروا تمييزاً وفصلاً بين عهدٍ داخليٍّ، أقيم مع المؤمنين الحقيقيين على نحوٍ حصري، وعهدٍ خارجيٍّ يشمل المعترفين ظاهرياً. إلا أن مثل هذا التفريق أو الفصل لا يُمكن أن يقوم في ضوء تعليم الكلمة المقدسة. فالذي جمعه الله لا يجوز أن يفرقه الإنسان. وما من أحد يمكنه أن ينكر ضرورة تجاوب المظهر والجوهر، ولا وجوبَ التناغُم بين الاعتراف بالفم والإيمان بالقلب (رو 10: 9). ولكن، رغم أنه لا يوجد عهدان يقفان جنباً إلى جنب عن بُعد، يمكننا أن نقول إن عهد النعمة الواحد له جانبان: أحدهما ظاهرٌ أمام أنظارنا، والآخر ظاهرُ أمام نظر الله وحده دون سواه. فعلينا أن نراعي القاعدة القاضية بأننا لا نستطيع أن نحكم على القلب، بل على السلوك الخارجي فقط، وحكماً يعتريه النقص أيضاً. وعليه، فإن الذين يبدون أمام أعيُننا

---

(82) مت 3: 12؛ 13: 29؛ يو 15: 2؛ 2تي 2: 20.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008

البشرية سالكين في طريق العهد ينبغي أن نَعدَّهم ونعاملهم باعتبارهم شركاء لنا في النعمة، بحسبما يُمليه علينا حُكم المحبة. إلا أن ما يحدِّد الحقيقة في آخر الأمر ليس هو حكمنا بل حكم الله. فهو فاحص القلب ومختبر الكُلى؛ وليس عنده محاباة. فإن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب (1 صموئيل 16: 7).

إذاً، ليمتحنْ كلُّ واحدٍ نفسه، هل هو في الإيمان، وهل يسوع المسيح فيه (2 كورنثوس 13: 5).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 USA - All rights reserved © 2008